مجلد ٨ — عدد ٣١ أبريل ١٩٤٨

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

أنطون تشيكوف

قصة رجل مجهول

تعريب محمود الشنيطى

٤ + ١٢٢ صفحة ، الثمن ١٠ قروش





الموزعون : الكاتب المصرى ش.م.م. القاهرة : ٥٢ شارع قصر النيل ، ت ٥٤٢٧٣
الاسكندرية : ٨ شارع طلعت حرب باشا ، ت ٢٣٨٩٩ — بور سعيد : شارع محمد محمود باشا ، ت ٤٦٨

بيير بنوا

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

غانية أطلنطا

ترجمة رشدى كامل

لم تكن تبحث عن نشوة الحب فحسب ،
بل كانت ترمى كذلك إلى أن تنتقم من الرجال ،
فتقتلهم بحبها .

٢٩٦ صفحة ، الثمن **٢٥** قرشاً



ظهر حديثاً

كتاب

البخلاء

للجاحظ

حقق نصه وعلق عليه

طه الحاجرى

مدرس الأدب العربى بجامعة فاروق الاول

٥١ + ٤٦٨ صفحة ، الثمن ١٠٠ قرشاً



تاريخ قضاة الأندلس

ألَّفه

الشيخ أَبو الحسن بن عبد الله بن الحسن
النُّباهى المالقى الأَندلسى

وسمَّاه

كتاب المرقبة العليا
فيمن يستحق القضاء والفتيا

نشر

إ. ليفى بروفنسال
أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون
مدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس

٢٤ + ٢٤٨ صفحة ، الثمن ٧٥ قرشاً



عبد العزيز البشرى

قطوف

مقدمة طه حسين

هى الأدب كل الأدب ، وهى الفن كل الفن ،
وهى الكلام الذى يجمع إلى رصانة الأدب
القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته

•

طبعة فى جزأين ، ثمن الجزء ٢٠ قرشاً



محمد الصادق حسين

البيت السبكي

بيت علم فى دولتى المماليك

٩٦ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشاً

سلامه موسى

تربية سلامه موسى

تاريخ حياة المؤلف باعتبار أن الحياه تربية
وتاريخ مصر فى تطورها وانتقالها من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين

٢٩٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشاً



حسن عثمان

ساڤونارولا

الراهب الثائر

SAVONAROLA



٢٦٠ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشاً



هنرى برجسون

الضحك

بحث فى دلالة المضحك

تعريب سامى الدروبى و عبد الله عبد الدايم

كتاب وضعه الفيلسوف الفرنسى الكبير
هنرى برجسون يدرس فيه الضحك
كظاهرة نفسية والمضحك وأنواعه المتعددة

١٣٦ صفحة ، الثمن ١٥ قرشاً



الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى

الكاتب المصرى

جمادى الأولى ١٣٦٧ — ابريل ١٩٤٨

السنة الثالثة — مجلد ٨ — عدد ٣١

فى الأدب الفرنسى

الوباء

هذا كتاب أتيح له فى العام الماضى من النجح ، ما لم يتح لكتاب فرنسى منذ أعوام طويلة . أجمع النقاد الفرنسيون ، أو كادوا يجمعون على الرضا عنه والاعجاب به . ولعله ظفر بأضخم طبعة عرفتها الكتب الفرنسية ، منذ الحرب العالمية الثانية . وقد قدمه ناشره لجائزة خطيرة من جوائز الأدب فى فرنسا ، وهى جائزة النقد ، فظفر بها فى غير مشقة ، أو قل ظفر بها فى غير امتحان ؛ فقد صرح بعض المحكمين للصحف بأنه صوت لهذا الكتاب دون أن يقرأه ، لأنه يمنح مؤلفه ألبير كامو من حبه وثقته وإعجابه ما يعفيه من قراءة كتابه قبل أن يمنحه الجائزة . ولست أدرى إلى أى حد يسوغ هذا فى قضية العقل ، وفى قضية النقد الأدبى الصحيح ، ولكنه على كل حال يدل على المكانة الرفيعة الممتازة التى يرقى إليها ألبير كامو فى نفوس النقاد الفرنسيين ، بل فى نفوس الأدباء والمثقفين والمفكرين الفرنسيين بوجه عام . وسيرة المؤلف أثناء الحرب هى التى رفعته إلى هذه المنزلة . فقد وفا لوطنه أثناء المحنة ، كأحسن ما يفى الناس لأوطانهم ، وكأحسن ما يفى المثقفون لأوطانهم ، واحتمل فى سبيل هذا الوفاء من الجهد والمشقة والعسر ، ما لم يحتمله كثير من المثقفين الفرنسيين . ثم هو إلى ذلك نافذ البصيرة ، دقيق الفطنة ، صارم الرأى ، مؤمن بالحرية ، وبالحرية الواضحة الصريحة المستقيمة ، التى لا تحب غموضاً ولا التواء . وهو بعد هذا كله ، أو مع هذا كله ، كاتب

ممتاز ، قد أخضع اللغة الفرنسية لسلطانه الصارم السمح معاً ؛ فبرع فى الوصف إلى حيث لا يكاد يباريه أحد من معاصريه ، وبرع فى اليسر إلى حيث لا يشق فهمه على أحد . ثم هو بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ، ليس صاحب امتياز فى البيان وحده ، ولكنه صاحب امتياز فى التفكير أيضاً . فهو أديب بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ، وهو فيلسوف بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها أيضاً . له محاولات رائعة فى فهم الحياة وتفسيرها ، وفى استكشاف الصلة بين الانسان والعالم الذى يعيش فيه ، وفى تفسير الوجود من حيث هو وجود ، وفى تفسير المصير الذى أتيح للانسان أن ينتهى إليه .

والمثقفون جميعاً يعرفون مذهب ألبير كامو فى العبث ، وكثير منهم قرءوا دون شك كتابه الرائع المشهور أسطورة «سيزيف» . وأسطورة هذا البطل اليونانى معروفة ؛ فقد قضى عليه أن يظل فى دار الموتى متبلا على صخرة عظيمة ،يرفعها من سفح الجبل إلى قمته ، يلقى فى ذلك الجهد والنصب والعناء ، حتى إذا ارتقى بالصخرة إلى القمة رآها تدفع إلى الانحدار بقوة لا يملك لها رداً ، حتى تصل إلى حيث كانت من القاع . ورأى نفسه مضطراً بحكم القضاء إلى أن يستأنف الجهد والنصب والعناء ، فيدفع الصخرة ليرفعها إلى القمة ، وما يزال يرقى بها إلى أعلى الجبل ، وما تزال تنحدر به إلى القاع ، إلى آخر الدهر ، إن كان للدهر آخر . فهذا الجهد الذى يبذله ، وهذا النصب الذى يلقاه ، وهذا العناء الذى يشقى به ، عبث متصل ليست له غاية يقف عندها ولا حد ينتهى إليه ، ولا غرض يبتغى منه . والعالم عند ألبير كامو شئ يشبه هذا الجهد الذى يبذله البطل اليونانى فى غير طائل . فليس للعالم غاية ينتهى إليها ، ولا حد يقف عنده ، ولا غرض يبتغى منه ، وإنما هو ماض فى هذا الوجود العابث إلى غير غاية ، ولا أمد ، وإلى آخر الدهر إن كان للدهر آخر . والانسان فى هذا العالم مدفوع إلى مثل ما دفع إليه العالم ، من هذا العبث الذى لا ينتهى إلى غاية ، ولا يحقق غرضاً . وليس بينه وبين غيره من الكائنات التى يأتلف منها العالم فرق إلا أن له شعوراً وعقلا ؛ فهو يحس الجهد العنيف الذى يبذله ، ويجد النصب الناصب الذى يلقاه ، ويأسى للعناء البغيض الذى يشقى به ، ويحاول أن يفهم جهده ونصبه وعناءه ، فلا يصل إلى شئ ، أو يصل إلى ما يخيل إليه أنه حل للمشكلة ، وتفسير

للغز ، ولكنه إذا تعمق ما يصل إليه من حل وتفسير لم يجد وراءه شيئاً ؛ فهو مصعد فى الجبل دائماً وأمامه صخرته تلك ، وهو مصوب فى الجبل دائماً وأمامه صخرته تلك ، وهو ينفق الدهر كله فى تصعيد وتصويب تتابع أجياله على ذلك ، رافعة للصخرة إلى القمة ، منحدرة معها إلى القاع . ومهما يفعل الانسان فلن يستطيع أن يغير من هذا العبث شيئاً . ولكنه مع ذلك حر فى حدود هذا العبث ، يستطيع أن يلائم بينه وبين نفسه ، وأن يختار من أطوار الحياة والتفكير والعمل ما يريد ، وأن يحقق مما يختار ما تساعده الظروف على تحقيقه . يستطيع أن يؤثر لوناً من الحياة على لون ، وضرباً من التفكير على ضرب ، وفنا من التصرف على فن ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل للوجود غاية أو غرضاً ، ولا يستطيع أن يغير أنه دفع إلى الحياة غير مختار ، وسيدفع إلى الموت غير مختار ؛ فحريته محدودة بهذين النوعين من الجبر . فليصطنع الحكمة إن شاء ، وليصطنع الحمق إن أحب ، فلن يخرج من هذه الحلقة المفرغة بحال من الأحوال .

ويمضى ألبير كامو فى الملاءمة بين مذهبه هذا اليائس ، وبين الحياة التى يحياها الناس على اختلافها وتباين منازلهم فيها وحظوظهم منها . ثم هو لا يكتفى بهذا الكتاب ، ولكنه ينتقل بمذهبه هذا إلى القصص ، وإلى التمثيل . فقصة الغريب ، ومسرحية كاليجولا ، وسوء التفاهم ، ليست فى حقيقة الأمر إلا محاولات للملاءمة بين هذا العبث الأساسى ، وبين حرية الانسان .

والكتاب الذى أتحدث عنه يعرض هذه المشكلة عرضاً واضحاً جليا ، وهو من أجل ذلك يثير الرغبة كل الرغبة فى البحث والجدل والاستقصاء . ويجب أن أقول إن العنوان الذى اتخذته لهذا الحديث ، ليس هو العنوان الدقيق لهذا الكتاب ؛ فعنوان الكتاب هو « الطاعون » . وقد كرهت أن أجعل هذا اللفظ البشع عنواناً لهذا الحديث ، وكنت أريد أن أتحدث إلى القارىء عن هذا الكتاب ، أثر عودتى من فرنسا ، فى أول الخريف الماضى ، ولكنى وجدت مصر موبوءة بالكوليرا ، ووجدت حديث الوباء فيها شائعاً مستفيضاً ، كما كان الوباء نفسه شائعاً مستفيضاً . فكرهت أن أتحدث عن الوباء ، وأجلت الحديث إلى فرصة أخرى ، ثم أنسيته ، ثم شغلت عن تذكره حتى كان شهر مارس ، فاذا حديثان يلقيان إلى الجمهور المثقف باللغة الفرنسية عن هذا

الكتاب ، يلقيهما حبران جليلان من أحبار المسيحية الكاثوليكية . أحدهما الأب زوندل ، وقد ألقى حديثه فى دار السلام ، والآخر الأب بوتيه ، وقد ألقى حديثه فى نادى الشبيبة .

وقد استمعت لهذين الحديثين ، فذكرت ما كنت قد أنسيت ، ورأيت أن أتحدث إلى قراء هذه المجلة عن هذا الكتاب ، على نحو ما كنت أريد أن أتحدث إليهم عنه فى الخريف . وليس غريباً أن يثير هذا الكتاب اهتمام المسيحيين ، واهتمام أحبارهم خاصة ، بل من الطبيعى أن يثير اهتمام أحبار الديانات كلها ؛ لأنه يضع موضع البحث مصير الانسان من جهة ، ويضع موضع البحث موقف العقل من الدين ، أو موقف العقل من الإله من جهة أخرى . وهو يضع هذه المشكلة وضعاً صريحاً فى هذا الكتاب ؛ لأنه ينطق حبراً من أحبار الكاثوليكية برأيه فى الصلة بين الانسان وخالقه ، ثم ينطق فريقاً من الذين لا يؤمنون بما ينقض آراء هذا الحبر المسيحى . ففى الكتاب شئ من التحدى لم يوجد فى الكتب الأخرى التى عرض فيها ألبير كامو مذهبه هذا فى الوجود .

ولاحظ قبل كل شئ أنى قد قرأت هذا الكتاب أثناء الصيف الماضى ، وأقبلت على قراءته مشغوفاً بها ، مشوقاً إليها أشد الشوق ؛ لأنى أحب الكاتب وأعجب بفنه . ولكنى لم أكد أمضى فى قراءة الكتاب ، حتى أدركنى شئ من خيبة الأمل ، ثم أخذت أضيق به وأمضى فى قراءته كارهاً للمضى فيها . ولو قد استجبت لميولى الأدبية لما أتممت قراءة الكتاب ، ولكنى لا أكاد أبدأ كتاباً حتى أفرض على نفسى إتمامه ، مهما يكن رضاى عنه ، أو سخطى عليه . تفرض ذلك علىّ طبيعتى التى تحب الاستقصاء ، وصناعتى التى تفرض على الاستقصاء فرضاً ، وتدفعنى إلى أن أتهم نفسى ولا أحفل بما يثور فيها من رضا أو سخط ، ولا أجعل رضاها أو سخطها وسيلة إلى الحكم للكتاب أو الحكم عليه .

ومصدر هذا الضيق الذى وجدته أثناء هذه القراءة أن الكاتب أخلف ظنى ؛ فقد كنت أنتظر أن أقرأ آية أدبية كالغريبّ ، أو كاليجولا ، أو سوء تفاهم ، أو كنت أنتظر أن أقرأ دراسة فلسفية متقنة كأسطورة سيزيف ، فاذا أنا أمام شئ ليس هو بالقصص الخالص ، ولا هو بالفلسفة الخالصة ، وإنما

هو محاولة لشئ بين ذلك : يريد أن تكون قصة تروع بالفن الأدبى فلا يبلغ ما يريد ، ويريد أن يكون درساً يروع بدقة البحث وحسن الاستقصاء فلا يبلغ ما يريد .

وقد عرض علينا ألبير كامو فى كتابه هذا مدينة بعينها هى مدينة وهران فى الجزائر ، تصور أنها قد امتحنت ذات يوم بوباء الطاعون . فهو يعرض علينا كيف استقبلت المدينة هذا الوباء شاكة فيه ساخرة منه أول الأمر ، وكيف استقبلت هذا الوباء بعد أن انجلى بشك . وأبانت الكارثة عن نفسها فى غير غموض ، فكان الذعر والهلع ، وكان تردد الحكومة وتلكؤها وتقصيرها . ثم كيف استقبلت المدينة هذا الوباء حين عظم أمره ، واشتد فتكه وأصبح خطره شنيعاً ، فقطعت المواصلات بينها وبين العالم الخارجى ، وضرب عليها حصار شديد قاس يمنع الخروج منها والدخول إليها ، ويعزلها عن العالم عزلا تاما ، لولا البرق الذى ينقل أطرافاً من أخبارها إلى الدنيا ، وينقل إليها أطرافاً من أخبار الدنيا ، ويتيح لبعض أهلها فى كثير من المشقة والجهد ، أن يتصلوا بذوى قرباهم فى المواضع النائية عنهم . وكل هذا التصوير صادق كل الصدق ، دقيق كل الدقة ، قد شهدناه إلى حد ما فى الأشهر القليلة الماضية . وتصوير آخر لحال المدينة ليس أقل صدقاً ولا دقة من هذا التصوير ، وذلك حين يعرض الكاتب ما يكون من الصلة بين الحكومة وبين الشعب أثناء المحنة . فالحكومة فى أول الأمر قد فوجئت بالكارثة ، لم تكن تنتظرها ولم تكن قد استعدت لها . وهى من أجل ذلك تنكر الكارثة مخلصة ، ثم متكلفة ، ثم مكابرة ، ثم تضطر إلى الاعتراف بما ليس بد من الاعتراف به ، ثم تتخبط فى مواجهة الكارثة ، فيكثر خطؤها ويقل صوابها ، ثم تلتجئ إلى العالم الخارجى تطلب منه المعونة والغوث ، ثم تنتهى آخر الأمر إلى الحزم الجاد حتى يزول الوباء . وهى فى أثناء هذا كله لا تقول للناس من أمر الكارثة وتطورها وفتكها وضحاياها إلا ما تريد هى أن تقول . وبين ما تقوله للناس وبين الحقائق الواقعة بون شاسع وأمد بعيد دائماً .

وليست حال الشعب نفسه بخير من حال الحكومة ؛ فالشعب يشك ثم ينكر ، ثم يتكلف ثم يكابر ، ثم يذعن للحقيقة الواقعة ، ثم تختلف به المذاهب بعد ذلك : فأما الفقراء فيذعنون فى غير مقاومة ويؤدون إلى الوباء ضريبته

فادحة . وأما الأغنياء فيؤثرون أنفسهم بأسباب الوقاية والعلاج ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وأما أوساط الناس فيتذبذبون بين أولئك وهؤلاء بمقدار حظهم من اليسر وسعة ذات اليد . وقد حوصرت المدينة وفرضت عليها الأحكام العرفية وقتر على أهلها فى الرزق ؛ فشقى الفقراء إلى غير حد ، ونعم الأغنياء مااستطاعوا أن ينعموا ، واضطرب أوساط الناس بين الشقاء والنعيم . وتكشفت الأخلاق عن مكنونها ، فكانت الأثرة ، وكان الاحتكار ، وكان ما ينشأ عنهما من التنافس والتباغض والاحتيال إلى آخر هذه الرذائل التى تتكشف عنها الانسانية حين تلم بها الخطوب ، وتلح عليها الكوارث . وفى أثناء هذا الشر كله يظهر شئ من خير قليل ، ولكنه قيم منتج قوى ، يستطيع أن يقهر الشر شيئاً فشيئاً حتى يمحوه وحتى يطرد الوباء عن المدينة ، ويرد الناس إلى ما ألفوا من حياة ، أو يرد إلى الناس ما ألفوا من حياة . فهؤلاء الأطباء الذين يعرفون الوباء ويحققون خطره ، ويصممون على مقاومته ماوسعتهم هذه المقاومة ، لا يدخرون فى سبيل ذلك جهداً ، ولا يبخلون بقوتهم مهما تكن ، ولا يترددون فى التضحية براحتهم وأمنهم ، وفى التعرض للخطر مصبحين وممسين ، ولا يبتغون على ذلك أجراً لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . لأنهم لايؤمنون بالآخرة ، ولأنهم يرون أن أجور الدنيا ليست بذات خطر ولا غناء ، فهم أعداء الوباء لأنه الوباء ، وهم حماة الحياة والصحة لأنهما الحياة والصحة ، لا أكثر ولا أقل .

هذه هى الخلاصة الظاهرة للكتاب . وهى كما ترى يسيرة قريبة ، لا عسر فيها ولا بعد . وهى كما ترى لا تدل على عمق فى التفكير ولا على براعة فى الابتكار . ولكن هذه الخلاصة الظاهرة ليست إلا أيسر ما فى الكتاب ، بل قل إنها ليست إلا رمزاً ضئيلا للحقيقة التى أراد إليها الكاتب حين ألف الكتاب . فهو لم يرد إلى مدينة وهران ولا إلى غيرها من المدن . وهو لم يقصد إلى الطاعون ولا إلى غيره من هذه الأوبئة التى تلم بالناس بين حين وحين . وإنما أراد إلى ما هو أعظم من ذلك شأناً ، وأجل خطراً ، وأكثر شمولا . فمدينة وهران رمز لفرنسا وغيرها من البلاد الأوربية التى اجتاحتها الحرب ، واحتلها العدو وعزلها من العالم الخارجى عزلا تاما . والطاعون هو الحرب والاحتلال والبطش والنكال . والشعب الذى انقسم هذا الانقسام ،

وتفرقت طوائفه هذا التفرق ، وتكشفت أخلاقه عن هذه السيئات الكثيرة والحسنات القليلة ، واحتمل ما احتمل ، وقاوم ماقاوم حتى انجلت عنه الغمرة ، هو هذه الأمم التي اصطلت نار الحرب ، وخضعت لنكر الاحتلال . والأطباء والمتطوعون الذين جاهدوا بأنفسهم وضحوا بحياتهم حتى جلوا هذه الغمرة ، لم ينتظروا على ذلك أجراً ، هم قادة المقاومة وزعماء الجهاد . بل إن هذه الحقيقة نفسها ليست إلا رمزاً لحقيقة أخرى أعم منها وأكثر شمولا . فمدينة وهران ليست فى حقيقة الأمر إلا الأرض كلها . وشعب وهران ليس فى حقيقة الأمر إلا الانسانية كلها . وطاعون وهران ليس فى حقيقة الأمر إلا الشر الذى يلم بالناس فى جميع المواطن والعصور . وأطباء وهران ومتطوعوها ليسوا إلا المفكرين والمثقفين والمصلحين والفلاسفة ، الذين يبذلون ما يملكون من جهد لوقاية الانسانية وحمايتها مما يلم بها من الشر ، ويصب عليها من المكروه . فالكتاب كما ترى يسير قريب فى ظاهره ، ولكنه أشد عمقاً وأبعد مدى مما يخيل إلينا هذا اليسر ؛ لأنه فى أيسر صورتيه الرمزيتين ، إنما يعرض جزءاً غير صغير من العالم الذى اصطلى نار الحرب ، وما ألم بهذا الجزء من الخطوب والمشكلات ، وما بدا فيه من مظاهر الضعف والقوة وألوان الجبن والبطولة . وهو فى أشد صورتيه عمقاً وتعقيداً ، إنما يضع قصة الانسانية كلها موضع البحث ، ويعرض قضية الخير والشر كلها على العقل ، ويحاول أن يجد جواباً لهذا السؤال التى تلقيه الانسانية العاقلة على نفسها منذ عقلت ، وهو : ماصير الانسان ؟

وهنا يسأل القارئ نفسه قبل كل شئ : هل وفق الكاتب توفيقاً أدبيا حين اختار هذا الرمز الضئيل النحيل لهذه المشكلة الكبيرة الخطيرة ، وهى حال العالم الذى اصطلى نار الحرب ؟ ثم هل وفق الكاتب توفيقا أدبيا حين اختار هذا الرمز الضئيل النحيل لهذه القضية الكبرى ، قضية الانسان بين الخير والشر ، وقضية الانسان بين العقل والدين ؟ أما أنا فأعتقد أن التوفيق الأدبى قد أخطأه إلى حد بعيد ؛ لا لأن الرمز ضئيل نحيل ، فمن طبيعة الرمز أن يكون ضئيلا نحيلا بالقياس إلى ما يرمز إليه الكاتب من المسائل الكبرى والمشكلات الضخام ؛ ولكن لأن هذا الرمز الضئيل النحيل قد احتاج إلى تفصيل كثير لا يلائم ضآلته ونحولته . فمدينة

وهران قد فجأها الطاعون كما أن العالم قد فجأته الحرب . ومدينة وهران قد شقيت بالطاعون ، وأظهر هذا الشقاء ما فى نفوس أهلها من خصال الخير والشر ، كما أن جزءاً من العالم قد شقى بالحرب التى أذلته ، وأظهر هذا الشقاء ما فى نفوس أهله من خصال أهله من الذلة والعزة ، والضعف والقوة والخور والجلد ، والأثرة والايثار . كل هذا حق لا شك فيه . ولكن دقائق الرمز قد احتاجت إلى إغراق فى التفصيل ، أخرجه عن أن يكون رمزاً . فوصف الطاعون وصفاً مفصلا ، يصور أعراض العلة ومظاهرها وتطورها ، ودقائق علاجها وأعقابها وعقابيلها ، وآثارها فى نفوس القريبين منها والبعيدين عنها ، كل ذلك يبعدنا عن الرمز ليغرقنا فى دقائق الحياة الخاصة . فنحن فى مدينة قد ألم بها الطاعون وألح عليها ، ونحن مشغولون بهذه المدينة البائسة المعذبة ، وبهذا الوباء الذى تفصَّل دقائقه تفصيلا ، عن التفكير فى أوربا المغلوبة على أمرها ، الممتحنة بالبطش والعسف والاحتلال . بل نحن مصروفون إلى هذه المدينة البائسة المعذبة ، وما تلقى من هذه الأهوال اليومية الذى تفصَّل دقائقها تفصيلا ، عن التفكير فى الانسانية حين يلم بها الشر وتدلهم من حولها الخطوب ، لولا أن الكاتب يضطرنا إلى هذا التفكير بما يدير حول بعض الأشخاص من حوار يتجاوز المحنة الخاصة إلى الشر العام ، وبما يسجل هو من ملاحظات تتجاوز مدينة وهران ومحنتها ، إلى طبيعة الحياة الانسانية وما يختلف عليها من الكوارث والأحداث . فالقارئ قلق مضطرب متردد لا يدرى أهو بازاء رمز مجمل يشير إلى أحداث خطيرة وقضايا عويصة ، أم هو بازاء قضية بعينها لا يريد الكاتب أن يبعد به عنها ، وإنما يريد أن يتعمقها معه تعمقاً وهى امتحان وهران بهذا الوباء .

ذلك إلى أن الكاتب أراد أن يكون موضوعيا كما يقال ، فجعل نفسه قاصًّا يروى أحداثاً سجلها أثناء هذه المحنة ، وقد برأ نفسه من الذاتية التى تجعل للعواطف والأهواء والميول والفن أثراً أى أثر فيما يروى من الأحداث . وهذا النوع من تكلف الاعراض عن الفن والالحاح فى الرواية الموضوعية ، قد يكون فى نفسه فنًّا رائعاً ، ولكن الكاتب لم يحسنه . فقصصه ممل فى كثير من المواضع كأنه يتكلف شيئاً لا يتقنه ، وهو من أجل هذا يثقل على القارئ بعض الشئ . وما أحب أن أظلم الكاتب ؛ فقد ينبغى أن أسجل أنه برع

البراعة كلها فى القسم الأول من كتابه ، فأنشأ البيئة الفنية أحسن إنشاء وأجوده . وقد تحدثت إلى غير قارئ من الفرنسيين فى باريس عن هذا الكتاب حين بدأت قراءته . فقال لى غير واحد منهم : لن تستطيع أن تفتن بالكتاب قبل أن تفرغ من ثلثه الأول . ولكنى فرغت من ثلثه الأول ، والثانى والثالث ، ونظرت فاذا أنا مفتون بثلثه الأول دون ثلثيه الأخيرين . ذلك لأن الكاتب أرسل نفسه على سجيتها حين ابتدأ كتابه : فهذا طبيب يخرج من منزله فى طابق من الدار الكبيرة التى يسكنها ، فيرى فى الدهليز فأراً ميتاً ، ويلفت البواب إلى مكانه ؛ فيغضب البواب لأن داره نظيفة لا يمكن أن يوجد فيها فأر ميت . ثم تمضى الأحداث فى يسر يسير على هذا النحو ، حتى يعود الطبيب ذات يوم ، فاذا البواب يعترف بكثرة الجرذان التى تموت . ثم يعود ذات يوم فاذا البواب نفسه عليل ؛ فيحاول علاجه ؛حتى إذا ثقل نقله إلى المستشفى ، فمات فى أثناء الطريق،كل هذا يصور ابتداء رائعاً لكتاب يريد أن يصف إلمام الطاعون بمدينة من المدن ، وأمر هذا الطبيب والبواب ليس إلا مثلا ؛ ففى المدينة قوم آخرون يمرون بالجرذان الميتة ، فينكرون ثم يرتابون ثم يذعرون ، والحكومة تنتبه شيئاً فشيئاً ، فتنكر وترتاب وتذعر ، وتحاول أن تهدئ الشعب ، ثم ترى نفسها أمام الحقيقة الواقعة ، فتأخذ الشعب بالقوة والحزم . وهذا كله يذكر القارئ بما كان من نذر الحرب الأخيرة حين كانت الأحداث اليسيرة تحدث فيلتفت إليها أصحاب الأنظار البعيدة ، ويعرض عنها أصحاب الأنظار القصيرة ، وتكون الحكومات بين هؤلاء . ولكن الأحداث الصغيرة تكثر وتنتشر، كما تكثر الجرذان الميتة وتنتشر ، فيكون الشك ، ثم يكون الخوف ، ثم يكون الذعر ، ثم تكون مواجهة الحقيقة الواقعة البشعة .

ولو أن الكاتب مضى فى سائر كتابه على النحو الذى مضى عليه فى أوله لأهدى إلينا كتاباً رائعاً ، ولكنه لم يلبث أن تعثر فى التفصيلات والدقائق الخاصة ، فأفسد الكتاب على نفسه وعلينا جميعاً .

وأخرى لابد من تسجيلها رعاية لما ينبغى من الانصاف ؛ فقد صور الكاتب جماعة من أشخاص الكتاب تصويراً دقيقاً صادقاً حقا . فهذا الطبيب الذى رأى الجرذ الميت ، وسبق إلى الانذار بوباء الطاعون ، واستقبل الجهاد فى ثبات

وأناة ، وتضحية وتواضع لا ينتظر أجراً ، ولا يريد إلا أن يقهر الوباء وينقذ الحياة من شره . وهذا الصحفى الذى فجأه الوباء فى المدينة ، وهمّ أن يخرج منها ليلحق بمن يحب ، واحتال فى هذا الخروج وبذل فيه الممكن وغير الممكن من الجهد ، فلما استيأس من ترك المدينة أقبل على الطبيب ، فتطوع للجهاد وأبلى فيه أحسن البلاء . وهـذا الشاب الطموح إلى المثل العليا ذو الآمال البعيدة والأمانى العراض ، والذى أقبـل متطوعاً فأشاع الحماسة من حوله ، ونظم الجهـاد فأحسن تنظيمه ، ومضى بعد الانتصار ضحية أخيرة للوباء . وهذا الموظف المتواضع الذى يداعب الغرور الفنى ، ويحاول فى سذاجة أن يكون كاتباً يضع قصة غرامية يتعزى بها عما أصابه من المحن ، ويتقنها حتى يرقى بها إلى أرفع منازل الفن ، والذى يترك هذه القصة فى يسر وفى غير تكلف ليعنى بالجهاد حتى يبلى فيه أحسن البلاء ، لا يشعر بأنه يجاهد ، ولا بأنه يضحى ، ولا بأنه يتعرض للخطر ، وإنما يشعر بأنه يؤدى واجب التضامن الاجتماعى فى أيسر اليسر — كل هؤلاء الأشخاص وأشخاص آخرون قد صورهم الكاتب فأجاد تصويرهم وبرع فيه . ولكنهم يظهرون فى أثنـاء هذا الكتاب ، كأنهم الواحة التى يرتاح إليها القارئ بين حين وحين ، وكأن القصة من حولهم طريق وعرة مضنية ، لا يمضى القارئ فيها إلا متكرهاً يحتاج إلى أن يستريح .

هذه هى الناحية الأدبية لهذا الكتاب ، وهى أيسر الناحيتين بالقياس إلى الكاتب من جهة ، وإلى القارئ من جهة أخرى ، وإلى التفكير الفلسفى من جهة خاصة . فقد يمكن أن يقال إن الكاتب لم يرد إلى إنشاء قصة بالمعنى الذى ألفه الناس . وقد يمكن أن يقال إن القراء جميعـاً ليسوا من العسر بحيث يحاسبون الكاتب حساباً يسيراً أو عسيراً ، على ما أتيح له وما لم يتح له من التوفيق . فأما الناحيـة الفلسفيـة فهى الغـاية التى من أجلهـا كتب الكتاب ، وهى لا تحتمل تسامحاً ولا تهاوناً ولا تفريطاً . فالدقة فيهـا هى الأصل ، واستقامة التفكير شرط أساسى لكل فلسفة . وقد قدمت أنى لست مقتنعاً ، بل إنى بعيد كل البعد عن الاقتناع بالمذهب الفلسفى العام لألبير كامو ، وهو مذهب العبث . ويخيل إلى بعد ذلك أنه لم يوفق فى عرض مذهبه فى هذا الكتاب . وأحب قبل كل شئ أن ألاحظ شيئاً من التحكم دفع الكاتب إليه حين أراد أن يبين موقف الانسـان بين العقل والدين .

فهو قد أنشأ شخصاً جعله حبراً من أحبار اليسوعيين ، وأنطقه بما ظن أنه يصور مذهب أصحاب الديانات فيما يلم بالانسان من الشر ، ثم مضى بعد ذلك ينكر ما قاله هذا الحبر اليسوعى ، مخيلا أو معتقداً أنه بالرد على هذا الحبر يرد على أصحاب الديانات جميعاً . وهذا الحبر اليسوعى قد أنشأه ألبير كامو نفسه بالطبع ، وأنطقه بما أراد أن ينطقه به . وأكاد أعتقد أنه لم يخلص من بعض الظلم حين صنع حبره على هذا النحو ، وحين أنطقه بما أنطقه به من القول . وآية ذلك أن أحبار المسيحيين أنفسهم ينكرون هذا الحبر الذى صنعه ألبير كامو ، ويراه بعضهم مسرفاً على الدين ، ويراه بعضهم خارجاً على الدين . وخلاصة ما يقوله الحبر للمؤمنين الذين أقبلوا يستمعون إليه فى الكنيسة ، أنهم يمتحنون بكارثة خطيرة مبيرة ، وأنهم أهل لما ألم بهم من هذه الكارثة ؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم بمعصية الله والخلاف عن أمره ، فهو يعاقبهم بما يصب عليهم من الهول ، ويجب عليهم أن يتلقوا هذا العقاب راضين به مذعنين له مطمئنين إليه ، تائبين إلى الله مما أسرفوا على أنفسهم فى الخطايا والموبقات . فالاله عند هذا الحبر الذى صنعه ألبير كامو سيد متكبر متجبر عزيز منتقم ، يضع الانسان أمام سيئاته دون أن يفتح له باباً من أبواب الرحمة ، أو يمسه بجناح من الرفق ، وهو يأخذ البرئ بذنب المسئ ، ويعاقب الصغار بذنوب الكبار . كذلك صور هذا الحبر موقف الانسان من إلهه موقف العبد الخاضع المذعن الذى يجب أن يمعن فى الخضوع والاذعان ، من السيد الكبير المتجبر الذى يستطيع أن يمعن فى الجبرية والكبرياء . وواضح أن الذين لا يؤمنون من الملحدين ينكرون هذا الاله المتكبر المتجبر ، ويرون أن فى كبريائه وجبريته قسوة عنيفة ، وغلظة غليظة ، وتجافياً عن العدل . فما ذنب الأطفال الذين عذبهم الطاعون وهم لم يعصوا للاله أمراً ولم يخالفوا عن قانونه ؛ لأنهم لم يعرفوا هذا القانون ولم يبلغوا سن التكليف . ومن يكفل أن يكون الثواب الذى يدخره هذا الاله لمن يدخره له من الناس قائماً على العدل ، مادام العقاب فيما يرون ليس قائماً على العدل ! فالمتكبر المتجبر قادر على أن يتحكم فيما يدخر للناس من مثوبة ، كما يتحكم فيما يصب عليهم من عقوبة . وهم من أجل ذلك لا يؤمنون بهذه الصلة التى لا تقوم على العدل ، ولا على الحرية . وإذ

كانوا لا يعرفون طريقاً إلى الإلٰه غير هذه الطريق التى رسمها الدين ، كما صوره هذا الحبر ، فهم لا يؤمنون بشئ بعد الطبيعة . وهم من أجل ذلك يعملون لا ينتظرون على عملهم أجراً فى الآخرة ؛ لأنهم لا يعرفون الآخرة . كما أنهم لا يخافون عقوبة فى الآخرة إن لم يعملوا ؛ لأنهم لا يعرفون الآخرة . وهم من أجل ذلك يمضون فى محاولة الخير إلى أقصى غاية ممكنة ، حتى يقول بعضهم لبعض : أليس من الممكن أن يصير بعض الناس قديساً مدنيا ، دون أن يؤمن بالله الذى يتلقى القديسين بما أعد لهم من أجر ومثوبة ، فيما يقول رجال الدين ؟

كذلك عرض ألبير كامو هذه المشكلة عرضاً يظهر فيه التحكم والسذاجة كما ترى . فأما التحكم فلأن حبره هذا ليس من الضرورى أن يكون قد نطق بلسان أصحاب الديانات ، فأحسن الاعراب عنهم . وآية ذلك أن رجال الدين أنفسهم ينكرونه . وآية ذلك بوجه خاص أن الديانات السماوية كلها لا تحدثنا عن الإلٰه المتكبر المتجبر المنتقم الباطش فحسب ، ولكنها تحدثنا كذلك عن الإلٰه الرحمن الرحيم العفو الغفور الذى يقبل الحسنة ، ويتوب على المذنب ، وتسع رحمته كل شئ وكل إنسان .

فمن التحكم إذن والتعسف أن يقال إن صلة الإلٰه بالانسان هى صلة السيد المتجبر المتكبر ، بالعبد الذى يجب أن يذعن ويستكين ليس غير . وإنما الديانات تقول إنها كذلك صلة القوى الرحيم بالضعيف الذى يحتاج إلى الرحمة .

وأخص ما يؤخذ به ألبير كامو من التحكم فى هذه القضية أنه ما زال يفكر بعقل القرن التاسع عشر حين كان هذا العقل ثملا مغروراً لكثرة ما استكشف من العلم وابتكر من المخترعات ، حتى ظن أنه قد عرف كل شئ ، وأحاط بكل شئ ، وأصبح قادراً على أن يحكم على كل شئ ، ويقول كلمته فى كل شئ . ولكن العقل فيما يظهر قد ثاب إلى شئ من الرشد والتواضع منذ أواخر القرن الماضى ، وقد استبان له أنه مادام يعترف بأنه يجهل من حقائق هذا العالم أكثر مما يعلم ، وبأنه يستكشف حقائق هذا العالم قليلا ، ويستكشفها فى كثير من الحذر والاحتياط ، فمن الجراءة أن ينكر ما عدا هذا العالم ، وأن يقول فيما ليس له به علم ، وما ليس له سبيل إلى القول

فيه . فهو لم يعرف الاله ، ولم يستطع أن يجد الطريق إلى معرفته من طريق الحس والتجربة والملاحظة ، كما يعرف ما يعرف من حقائقه العلمية . ولكنه يلاحظ فى غير شك أن من الناس من يسلك إلى معرفة الاله طرقاً غير طرق الحس والتجربة والملاحظة ، ويجد فى سلوك هذه الطرق رضا وأمناً وثقة واطمئناناً ؛ فأيسر ما تفرضه عليه الدقة أن يقف موقف الانتظار ، لا يتجاوزه إلى الجحود والانكار ، فضلا عن أن يتجاوزه إلى موقف الحكم على ما يوصف به الاله من صفات ، وما يصدر عنه من أعمال . فكل هذا تجاوز للقصد وخروج على قوانين العقل نفسه . فالعقل لا يحكم إلا عن علم . ومتى أخطأه العلم وجب عليه أن ينتظر . فالذين يعدون أطوارهم ، ويصفون الاله بالقسوة والعنف أو بالغلظة والظلم ، لا يسرفون على أنفسهم فحسب ، وإنما يدفعونها إلى السخف والهذيان ؛ لأنهم يقولون عن غير علم ، ويحكمون عن غير بصيرة . وما من شك فى أن الذين يعملون الصالحات لا يبتغون بها إلا الخير ، ولا ينتظرون عليها أجراً فى الدنيا والآخرة . قوم أخيار من حق الانسانية لنفسها أن تكبرهم وتتخذهم أسوة وقدوة فى حب الخير والسعى إليه والجد فيه ، غير مبتغية عليه جزاء ولا شكوراً . ولكن ليس من شك فى أننا لا نعلم مصير هؤلاء الأخيار ، كما أننا لا نعلم مصير الأشرار بالعقل ؛ لأن العقل لا يعرف مما بعد الطبيعة شيئاً .

وإذا كان الأمر كذلك بالقياس إلى هذه القضية ، فمذهب العبث كله معرض لهذا النقد نفسه ؛ لأن من الجراءة والاسراف فى الكبرياء والغرور أن يقول إنسان لست أعرف لهذه الوجود غاية ولا حكمة ولا غرضاً ، فيجب أن يكون هذا الوجود عبثاً . وإنما الذى يجب أن يقال لست أعرف لهذا الوجود غاية ولا حكمة ولا غرضاً ، فيجب أن أنتظر لعلى أستكشف أنا ، أو لعل غيرى أن يستكشف لهذا الوجود حكمة وغاية وغرضاً .

والشئ المحقق هو أن مذهب العبث هذا ، لون من ألوان اليأس الذى تدفع الانسانية إليه ، حين تشتد عليها الأزمات ، وتأخذها الخطوب والأهوال من جميع وجوهها .

وقد عرفت الانسانية هذا اليأس فى كثير من عصورها المختلفة التى تعرضت فيها لأنواع الهول ، وعرفت ما نشأ عن هذا اليأس من مذاهب الشك

والتشاؤم والجموح . ومهما يكن من شئ فلو لم يكن لهذا الكتاب إلا أنه يدعو قارئه إلى أن يفكر ويطيل التفكير فى مسائل ليست هى من هذه الهنات اليومية ، التى تملك عليه أمره وتفسد عليه حياته ، لكان خليقاً أن يقدر ويقرأ فى إعجاب بصاحبه واعتراف له بالجميل . لأنه يرفعنا من طور الحياة اليومية السخيفة ، إلى طور التفكير فى المشكلات العليا . وما أقل مايرق بنا إلى هذا الطور من التفكير الرفيع فى هذه الأيام .

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

سياسة الدول فى الشرق الأوسط

لعل أحرج مراكز السياسة فى العالم الآن هى منطقة الشرق الأوسط ؛ فقد تحول مركز الثقل السياسى بعد الحرب الأخيرة من أوربا إلى سواحل شرق البحر المتوسط وخليج فارس وما بينهما من بلدان الشرق الأوسط ولم يبق على مسرح السياسة فى أوربا سوى بعض المناظر الجانبية الأوربية . أما الدوامة التى تنجذب إليها تيارات السياسة العالمية وتلتقى فيها المصالح الكبرى للدول أو تصطدم فقد تحركت شرقاً من المحيط الأطلنطى إلى مياه الشرق الأوسط . وليس غريباً بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية يشترك فيها الشرق والغرب وتتحالف عليها دول العالم القديم والجديد أن تتجه سياسة الدول نحو المركز الذى تتجمع فيه أهم خطوط المواصلات فى العالم برية كانت أو بحرية أو جوية . وقد دلت الحربان العالميتان على ما لهذه المنطقة من أهمية حربية خطيرة امتازت بها على سائر الميادين الأخرى . ففى الحرب العالمية الأولى كانت ثورة العرب ضد الترك فى الحجاز وبلاد المشرق وهزيمة الترك ومعهم حلفاؤهم الألمان على قناة السويس عندما حاولوا غزو مصر فى فبراير سنة ١٩١٥ — كان هذا وذاك من أهم الأحداث التى حولت مجرى الحرب لصالح الحلفاء . وكانت معركة العلمين فى الحرب العالمية الثانية الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر فقد ارتدت على أثرها قوات المحور عن شمال أفريقية . وأصبح نصر الحلفاء بعد تلك الموقعة وشيكا قريب المنال .

وها نحن أولاء نرى فى قيام جامعة الدول العربية ومساعيها للتخلص من نير الاستعمار الأجنبى وفى النزاع القائم بين العرب والصهيونيين فى فلسطين وفى تنافس الدول بشأن ليبيا ومستعمرات إيطاليا القديمة . نرى فى كل هذا وفى غيره ما ينذر بأشد الأخطار على قضية السلام لا فى الشرق الأوسط وحده بل فى العالم أجمع .

ولم يكن هذا أول عهد الشرق الأوسط بتنازع القوى العالمية فى مياهه

وعلى أديم سهوله وهضابه . فقديماً تطاحنت فى ميادينه جيوش الفرس والاغريق وانتصر الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر فاصطبغ الشرق الأوسط بالصبغة الهيلينية ثم ورثه البطالمة فالرومان وبعدهم البيزنطيون . وظهر العرب فى العصر الوسيط فانتصروا على دولتى فارس وبيزنطة وسرعان ما طبعوا شعوب الشرق الأوسط بلسانهم وعاداتهم وغرسوا فى قلوب أهله ذلك الدين الحنيف فأمسوا ثم أصبحوا مسلمين يتكلمون العربية وكأنما قد قطعوا كل صلة بماضيهم القريب . ثم قامت من أوربا إلى بلدان الشرق الأوسط حملات الصليبيين التى بدأت فى أواخر القرن الحادى عشر واستمرت إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر وكانت الحرب سجالا بين المسلمين وطوائف الفرنجة حتى جمع المسلمون كلمتهم فى عهد الأيوبيين أولا ثم فى عهد سلاطنة المماليك فانتصر المسلمون وسقطت عكا آخر حصون الصليبيين عام ١٢٩١ وبسقوطها زالت دولة الصليبيين اللاتينية من الأراضى المقدسة ولم يبق لهم فى تلك الأصقاع إلا بقايا ورسوم من حصونهم وقلاعهم التى بنوها وإلا قطرات من دمائهم لا تزال تسرى فى شرايين بعض أهل البلاد المسيحيين .

وظهر الأتراك العثمانيون فى بلاد الشرق الأوسط فى أوائل القرن السادس عشر بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت إليه تجارة الشرق فتدهورت الصناعة والتجارة فى بلدان الشرق الأوسط وقل فيها الانتاج وآوت شعوبه إلى سبات عميق لم تصح منه إلا على صيحة الثورة الفرنسية وطلقات مدافع نابليون بونابرت فى الشرق .

وبظهور بونابرت على رأس حملته فى مصر تنبهت انجلترا إلى الخطر الذى تتعرض له مصالحها وممتلكاتها فى الشرق إذا ربض عدو لها فى تلك المنطقة الحيوية التى اعتبرتها منذ ذلك الوقت الرقبة التى تصل بين الرأس فى انجلترا وبين جسم مستعمراتها فى الهند والشرق . فأخذت تعمل كل ما وسعها لاحباط مسعى الفرنسيين من جهة ولتثبت نفوذها على طول الطريق إلى الهند من جهة أخرى . ومن أجل ذلك نشبت معركة أبو قير البحرية سنة ١٧٩٨ وفيها دمر نلسون أمير البحر الانجليزى أسطول بونابرت وقضى على الحملة الفرنسية فى مصر وفى سوريا بالاخفاق والخذلان . ومن أجل ذلك أيضاً احتل الانجليز جزيرة مالطة سنة ١٨٠١ كما احتلوا ميناء عدن سنة ١٨٣٩ . وخشى الانجليز أن

يثبت سلطان محمد على فى بلدان الشرق الأوسط فيقوى بذلك نفوذ فرنسا حليفته فجعلوا يناوئونه ويناصرون تركيا عليه حتى انسحب محمد على من بلاد العرب وبلاد المشرق وانكمش داخل حدوده فى مصر والسودان .

وتجدد الكفاح ثانية على أثر افتتاح قناة السويس وظهور ذلك الانقلاب الخطير فى عالمى السياسة والتجارة فى الشرق الأوسط ، فقد كان انشاء القناة عملا فرنسياً عظيما وكان النفوذ الفرنسى فى شركة القناة هو الغالب ولذلك أخذت الحكومة الانجليزية تعمل بمختلف الوسائل لمنع فرنسا من استغلال الحالة فى مصر والقناة لمصلحتها وسارع الوزير الانجليزى دزرائيلى إلى شراء أسهم الخديو اسماعيل فى القناة فأصبح من صالح انجلترا بعد ذلك أن تكون لها قاعدة قريبة تشرف منها على القناة من جهة وترقب منها نشاط السياسة الروسية التى بدأت تهدد مصالح انجلترا فى الشرق فاغتنمت فرصة انعقاد مؤتمر برلين ١٨٧٨ وطلبت إلى تركيا أن تنزل لها عن جزيرة قبرص ثمنا لمعاونتها لها ضد روسيا . وما فتئت انجلترا تواصل سياستها حتى أمكنها التغلغل فى شئون مصر المالية ثم التدخل فى شئونها السياسية وأخيراً استطاعت أن تتدخل بالقوة بمفردها وتحتل مصر سنة ١٨٨٢ بدعوى مناصرة الخديو توفيق وقمع الثورة العرابية .

ولم يكن احجام فرنسا عن الاشتراك مع انجلترا فى احتلال مصر بسبب زهدها فى مجال السيطرة والاستعمار ولكن فرنسا كانت حديثة عهد بالهزيمة أمام ألمانيا وكانت بحاجة شديدة إلى موالاة انجلترا وعدم اثارتها ضدها لتكون إلى جانبها إذا قست عليها الظروف . وكانت فرنسا ترنو ببصرها إلى شمال أفريقية وبلاد المغرب تريد أن تؤلف منها دولة استعمارية قريبة إلى بلادها تعوضها عما فقدته فى ميدانى الحرب والاستعمار فما زالت مسافة الخلف تضيق حتى تم بينهما الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ وبه انجلت فرنسا عن ميدان السياسة فى الشرق الأوسط ولم يبق لها غير الأثر الثقافى والدينى فى بعض أرجائه . وكانت لروسيا أيضاً مطامع فى الشرق الأوسط حول إيران وخليج فارس فعصفت بها هزيمتها المنكرة على أيدى اليابان براً وبحراً سنة ١٩٠٥ ، وتعاقدت روسيا وبريطانيا سنة ١٩٠٧ فانحسر الخطر الروسى وحل محله الخطر الألمانى بعد أن أعلن الامبراطور وليم الثانى صداقته نحو تركيا واعتزامه ربط الامبراطوريتين بالخط الحديدى بين برلين وبغداد . وعند ذلك أخذت انجلترا تستعد لدرء الخطر

عن تلك المنطقة بواسطة ساستها وخبرائها وصنائعها حتى دنت ساعة الحرب العالمية الأولى فلم تتوان فى إعلان حمايتها على مصر وعزل خديويها الذى اتهمته بممالأة الألمان .ودارت المفاوضات بين الشريف حسين أمير مكة وبين رسل الانجليز فاتفق الجانبان على أنه فى مقابل قيام الثورة العربية ضد الأتراك تتعهد الحكومة الانجليزية باستقلال البلاد العربية وقد حددها الشريف حسين حينذاك بحدود تدخل فى نطاقها سوريا والعراق وفلسطين فضلا عن شبه جزيرة العرب ما عدا مستعمرة عدن . وكان إعلان الثورة العربية فاتحة عهد جديد فى بلاد ظلت خاضعة للحكم العثمانى مع ما انطوى عليه من ضعف وانحلال وركود قومى شامل طوال أربعة قرون فأفاقت شعوب الشرق الأوسط من سباتها وسارت كتائبها تحت علم الثورة نافرة إلى الحرب فى صفوف الذين منوهم بالحرية والاستقلال فما انتهت الحرب بهزيمة الألمان وطرد الترك خارج حدود العالم العربى حتى تنكر لهم حلفاؤهم القدماء ودخل الشرق الأوسط فى طور جديد من حياته كله كفاح وجلاد وجهاد فى سبيل الاصلاح تارة وغالباً ضد المستعمرين الذين استمرأوا الحياة مع الغنم فى تلك البلاد .

وكان الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى قد قطعوا على أنفسهم العهود بأنهم لا يرومون من الحرب أن يوسعوا رقعة بلادهم أو أن يضيفوا إلى ممتلكاتهم ومستعمراتهم أقاليم جديدة . ولكنهم ما عتموا أن رأوا أن الحرب قد قضت على أربع من امبراطوريات العالم الكبرى وهى روسيا بعد ثورتها الكبرى فى سنة ١٩١٧ وألمانيا والنمسا وتركيا وأنه قد انسلخ عن تركيا وألمانيا ولايات ومستعمرات لا سبيل إلى عودتها إليهما ثانية فنكث الحلفاء بعهودهم وداروا أطماعهم تحت ستار رقيق من نظام الانتداب الذى ابتدعوه فى ميثاق عصبة الأمم .

وكان لبريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما بعد الحرب وخاصة بعد انسحاب الولايات المتحدة وانشغال روسيا بثورتها أن تقتسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها. وكانت فرنسا تدعى لنفسها مركزاً ممتازاً فى الشرق الأوسط مذ كانت أولى الدول الأوربية التى تعاقدت مع سلطان تركيا فى القرن السادس عشر وبسبب حمايتها للشعوب الكاثوليكية داخل الدولة العثمانية وخاصة فى لبنان وما كان لها من ثقافة لاتينية فرنسية بثتها ارسالياتها الدينية وكلياتها ومدارسها المنتشرة فى أنحاء بلدان الشرق الأوسط لذلك طالبت فرنسا

بحقها فى الانتداب على منطقة شرق البحر المتوسط كله. ولكن السياسة الانجليزية كانت على حذر من مطامع الفرنسيين فى الشرق فاتفق الرأى على أن يكون لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان واحتفظت انجلترا لنفسها بالانتداب على العراق وفلسطين وشرق الأردن ولا يبقى بعد ذلك مستقلا من دول الشرق الأوسط غير بلاد العرب بيد الملك حسين شريف مكة . وكانت انجلترا تعلم أن أمام النهضة العربية فى الشرق الأوسط مستقبلا سيعج بالأحداث والاحتمالات وأن مصالحها فى تلك المنطقة تقتضى أن تكون بيدها قواعد استراتيجية ترقب منها تطور الحركة العربية من جهة وتشرف منها على مصالحها فى القناة من جهة أخرى متى أذن الوقت بجلائها عن مصر استجابة للروح الوطنية التى بدأت تتأجج فى مصر منذ ثورتها فى سنة ١٩١٩ فصممت على أن تتمسك بمنطقة نفوذها فى فلسطين وشرق الأردن ، وهى لا تزال على رأيها فيما يخص شرق الأردن على الأقل .

وما كاد الحلفاء يوزعون على أنفسهم أسلاب الحرب باسم الانتدابات حتى ظهر فى ميدان الشرق الأوسط عامل جديد هو فى خطورته اليوم أبعد أثراً وأشد وقعاً من إنشاء القناة — ذلكم هو تفجر عيون البترول قرب الموصل وكركوك بالعراق واختزان كميات هائلة منه فى جهات متعددة على طول المنطقة التى تمتد من خليج فارس إلى ساحل البحر المتوسط وتشمل الكويت وجزيرة البحرين وبلاد العرب السعودية وسوريا ومصر . ولما كان زيت البترول هو عصب الحروب الحديثة والقوة المحركة للطائرات والدبابات والسيارات والسفن الحربية لذلك كان التسابق على استغلال آباره فى الشرق الأوسط من أقوى العوامل التى ركزت اهتمام الدول بهذه المنطقة . وليس أدل على ذلك من جهود ألمانيا الجبارة فى أثناء الحرب الأخيرة للوصول إلى موارده سواء فى رومانيا أو القوقاز أو خليج فارس . والدول فى معركة البترول تتساوى جهودها سواء منها المحروم كبريطانيا وفرنسا أو المتخوم كروسيا والولايات المتحدة . فالمحروم حاجته إليه طبيعية وأما المتخوم فتدفعه إلى التسابق بشأنه عوامل مهمة أخرى . فروسيا مثلا لديها موارد البترول التى تكفيها فى حالتى السلم والحرب وهى ثانية دول العالم إنتاجا للبترول بعد أمريكا ولكنها تأبى على منافسيها أو أعدائها أن يتوافر لديهم ذلك السائل السحرى الثمين فيستخدمونه ضدها إذا قامت الحرب ، والولايات المتحدة تخشى أن ينضب معين بترولها المتدفق فى بلادها

فتريد أن تأمن على مستقبلها فى السلم والحرب وذلك بالاستحواذ على بعض موارده الغنية فى الشرق الأوسط .

لذلك ما كادت شركة البترول العراقية تتألف من الانجليز والفرنسيين والهولنديين حتى طالبت الولايات المتحدة بنصيبها فى أسهمها فكان لها مقدار ٢٣,٧٥ فى المائة من أسهمها . وكان هذا أول تدخل من جانب أمريكا فى الميدان الاقتصادى بالشرق الأوسط .

ولما كشف الملك عبد العزيز آل سعود عن منابع البترول فى شبه جزيرة العرب خشى أن يؤدى ذلك إلى تدخل الدول الاستعمارية فى شئون بلاده ولذلك رفض أن يستمع إلى عروض بريطانيا أو إيطاليا واختار بعض الشركات الأمريكية فأعطاها سنة ١٩٣٣ حقوق الامتياز فى مساحات واسعة من بلاده وقد أفادت بلاد العرب السعودية من ذلك فوائد اقتصادية واجتماعية على جانب عظيم من الأهمية . وفى سنة ١٩٣٦ فازت الولايات المتحدة أيضاً بامتياز البترول فى البحرين . وأما بريطانيا فلديها انتاج الشركة الايرانية الانجليزية وهى أقدم شركات البترول فى الشرق الأوسط عهداً وأوفرها انتاجاً ولها فى شركة البترول العراقية مقدار نصف أسهمها كما أن لها إنتاج الكويت وتجد بريطانيا من نفوذها السياسى فى الشرق الأوسط ما يعنيها على المحافظة على مصالحها الاقتصادية . أما الولايات المتحدة فتركز جهودها فى الناحية الاقتصادية وتأتم ببريطانيا طواعية فى الناحية السياسية .

وتحرص انجلترا على مصالحها فى البترول حرصاً شديداً دعاها فى سنة ١٩٤٦ إلى إرسال قوة حربية لاحتلال البصرة عندما نشبت بعض الاضطرابات العالمية وخشيت على مواردها فى أيران من الخطر . ولما حاولت روسيا عقب الحرب الأخيرة مد أجل احتلالها لشمال إيران ثم إثارة أهل أذربيجان للثورة والاستقلال عن إيران وأحست بريطانيا أن الخطر الروسى يقترب رويداً رويداً من حقول البترول الايرانية تدخلت بريطانيا فتقدمت إيران بشكواها إلى مجلس الأمن ومازال المجلس يناقش روسيا الحساب حتى اضطرت إلى مغادرة إيران والتخلى عن أذربيجان فأخمدت فيها الثورة وبقيت مصالح بريطانيا فى البترول سليمة ولو إلى أجل موقوت .

ولما كان انتاج البترول الايرانى يصل إلى بريطانيا فى خزانات خاصة عن

طريق قناة السويس كما أن بترول العراق يمر فى أنابيب خاصة تحت أرض العراق وشرق الأردن وفلسطين إلى ميناءى حيفا بفلسطين وطرابلس بلبنان لذلك كان اهتمام بريطانيا عظيما بالتطورات السياسية التى لازمت نهضة بلدان الشرق الأوسط فى السنين الأخيرة . فسايرت انجلترا روح النهضة الحديثة التى بدت بين الشعوب العربية ووفقت بقدر الامكان بين مصالحها وبين مطالب هذه الشعوب فى الحرية والاستقلال وعلى ذلك نزلت عن حمايتها على مصر وأقرت استقلالها كما نزلت عن انتدابها فى العراق واستعاضت عن الحماية والانتداب بمعاهدتين مع البلدين أوشكتا أن يستنفدا موضوعهما . وبقيت مشكلة فلسطين التى عقدتها انجلترا ومعها الحلفاء فى سنة ١٩١٧ باعلان تصريح بلفور فما أفادت انجلترا من انتدابها عليها سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام النزاع بشأنها بين العرب واليهود حتى أصبحت مشكلة فلسطين من أعقد وأشد ماواجهه العالم الحديث من مشكلات الشرق الأوسط .

أما فرنسا فقد سارت فى سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية العتيقة التى ترمى إلى خدمة مصالح فرنسا الكبرى وادماج العناصر الوطنية داخل دائرة الجنسية الفرنسية المرنة فتغذيهم بثقافتها وتغذى بهم جيوشها لتخرج فرنسا من ذلك كله قوية عزيزة الجانب دون أى اعتبار لمبادئ الحرية التى ورثتها عن الثورة الفرنسية والتى لم تسمح منها بقليل أو كثير للشعوب التى انتدبت لها . ومع أن نظام الانتداب قد غيّر الأسس التى كانت تقوم عليه سياسة الاستعمار قديماً فجعل واجب الدولة صاحبة الانتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وتهيئته لحكم نفسه بل أن ميثاق العصبة لينص صراحة على الاعتراف باستقلال الشعوب الراقية التى كانت خاضعة لتركيا فان فرنسا لم تخط خطوة واحدة فى سبيل تحقيق استقلال هذه الشعوب أو تهيئتها للحكم الذاتى . وكان أول مبدأ راعته فرنسا فى دائرة انتدابها هو مبدأ التفرقة بين المذاهب الدينية والجماعات الوطنية فأوجدت دويلات محلية مستقلة عن سوريا ولبنان كجبل الدروز و إقليم العلويين وسنجق اسكندرونة . كل ذلك لأن الشعور بالاستقلال وبالوحدة العربية فى سوريا كان قوياً وجارفاً وكانت فرنسا تخشاه بدرجة جعلتها تقسو وتتعنت فى مناهضة المصالح الوطنية لأهل البلاد كافة حتى فقدت فرنسا المكانة الممتازة التى كانت لها فى الماضى لا فى سوريا وحدها بل وفى لبنان أيضاً .

لذلك لم يكن غريباً أن ينتهز الوطنيون فرصة اندحار فرنسا أمام ألمانيا فى الحرب الأخيرة فيعملوا على تحقيق أمانيهم فى الاستقلال والتخلص من آثار الانتداب الفرنسى جميعاً دفعة واحدة . وكانت الحكومة الانجليزية تدرك أهمية سوريا ولبنان من الوجهة الحربية مذ كانت دولتا المحور تهددان مصر من جهة حدودها الغربية . وكان الحلفاء يستمدون بترول العراق فى أنابيب حيفا وطرابلس فما كادت تلمح آثار المعاونة التى كان يقدمها أعوان حكومة فيشى للمحور فى دولتى المشرق وفى العراق حتى أجمع الحلفاء أمرهم على تحرير سوريا ولبنان من قوات حكومة فيشى وتألفت قوة من الجنود البريطانية وجنود فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ولسون ومعه القائد الفرنسى كاترو للزحف على بلاد المشرق فى خريف عام ١٩٤١ فلم تجد القوة صعوبة فى كسر مقاومة جنود حكومة فيشى . وقد سبق قيام الحملة وأعقبها إعلان من حكومة فرنسا الحرة ومن الحكومة الانجليزية بموافقتهما على استقلال سوريا ولبنان واعتبار كل منهما دولة ذات سيادة فاطمأن الوطنيون فى الدولتين ومهدوا للحلفاء طريق النصر على أعوان المحور .

وبدخول الانجليز منتصرين بلاد المشرق بدأت فى البلاد سياسة جديدة فقد أصبح للانجليز المكانة الحربية الأولى وتأخرت منزلة فرنسا على حين اتسعت دائرة المعاملات بين الانجليز والبلدين . وكان إعلان الاستقلال الذى أصدرته حكومة الجنرال ديجول يشير إلى ضرورة تسوية الروابط بين الطرفين فى معاهدة حرة تعقد بينهما بعد الحرب . ولكن الوطنيين أبوا الاعتراف بحق الانتداب نفسه على أساس أن حكومة فيشى قد انفصلت عن عصبة الأمم فى سنة ١٩٤١ ولم يعد للانتداب على بلادهم أصل قانونى وهم لذلك خليقون أن يتمتعوا بالاستقلال التام وبكل مظاهره من حكم نيابى ديمقراطى وتمثيل أجنبى وجيوش وطنية دون أى اعتراض من جانب فرنسا . واضطرت فرنسا إلى الخضوع فى أول الأمر وانضم الدروز والعلويون إلى سوريا وجرت الانتخابات فاختير الزعيم شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية السورية كما انتخب الشيخ بشاره الخورى رئيساً للجمهورية اللبنانية . ولما كان الحزب الذى يتزعمه الرئيس اللبنانى يناصر حركة الوحدة العربية ويؤيد استقلال لبنان التام فان فرنسا لم تستطع الصبر طويلا وحنق المندوب الفرنسى ذات ليلة وقبض على رئيس

الجمهورية ورجال حكومته واعتقلهم خارج بيروت فى نوفمبر ١٩٤٣ فكان ذلك إيذاناً بميلاد روح وطنية جديدة جعلت اللبنانيين يتعاونون جميعاً ضد الأجنبى . ولقيت الجمهورية الناشئة من جانب أمريكا الحكومة الانجليزية ومن جانب مصر وأخواتها من الدول العربية أكبر عون على فرنسا فلم يسع اللجنة الفرنسية الحرة إلا الرضوخ لمطالب الوطنيين .

ولما ترددت فرنسا وتباطأت فى الجلاء عن البلاد ما لم يعترف لها الوطنيون بمركزها الخاص لجأت سوريا ولبنان تشكوها إلى مجلس الأمن سنة ١٩٤٦ وطالبتا بجلاء الانجليز والفرنسيين جميعاً عن بلادها واضطرت فرنسا أخيراً إلى قبول رأى أغلبية المجلس فحزمت أمرها ومتاعها وانجلت عن بلاد المشرق تاركة بريطانيا وحدها أمام أخطار القومية العربية من جهة ومنافسة أمريكا وروسيا لها فى هذا الميدان الجديد من جهة أخرى .

ورأت انجلترا أن خير علاج للموقف بشقيه أن تحيى فكرة الجامعة العربية التى ازدهرت ردحاً من الزمن فى عهد السلطان عبد الحميد باسم الجامعة الاسلامية وكانت بريطانيا إذ ذاك كعادتها متحيرة مترددة بين تحبيذ الفكرة وانكارها فقد كانت تحض على الفكرة لمعارضة النفوذ الروسى الذى كان يهدد أملاك الدولة كما أنها كانت تخشاها خوفاً على ولاء مسلمى الهند نحو الامبراطور الملك . أما بعد انتصار الحلفاء فى الحرب الأخيرة واضطلاع الروس فيه بدور البطولة العالمية فان الخطر الروسى قد تجسم أمام بريطانيا بدرجة جعلتها تقدم على إخراج فكرة جامعة الدول العربية إلى حيز السياسة الواقعية دون أن تبالى بما قد يترتب على تأليف الجامعة من نتائج قد تضر بمصالحها قبل أية دولة أخرى . وكان أول إيذان بفكرة الجامعة الحديثة فى صيف عام ١٩٤١ إذ وقف مستر ايدن وزير خارجية انجلترا يعلن فى قصر محافظ لندن عن سياسة الحكومة الانجليزية بشأن مستقبل الشعوب العربية ويقول « إن روابط الصداقة التى تجمع بيننا وبين العرب ترجع إلى عهد بعيد فلنا بينهم أصدقاء عديدون كما أن لهم بيننا أصدقاء حميمين . . . ولقد كان من أعز أمانى عدد كبير من مفكرى العرب وقادة الرأى فيهم أن تنعم الشعوب العربية بوحدة أوسع مدى مما بلغته الآن . . . ونحن لا يسعنا إلا الاستجابة إلى هذا النداء لأن تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية أيضاً بين الدول

العربية أمر اعتبره فى الحقيقة طبيعيا وعادلا . ولهذا فان حكومة جلالة الملك تعلن أنها ستناصر كل مشروع يرمى إلى تحقيق هذه الأغراض متى كان المشروع حائزاً لرضاء الجميع . » ولم تكن أمريكا حين أعلنت انجلترا ذلك التصريح قد انحازت بعد إلى جانب الانجليز فى الحرب كما أن فرنسا كانت قد أقصيت عن الميدان مهزومة مهيضة الجناح . أما روسيا فكانت لا تزال مرتبطة بألمانيا وتوشك أن تنقلب عليها حليفتها بغزواتها المروعة . لذلك ولد مشروع الجامعة العربية بمنأى عن أمريكا وروسيا وفرنسا وعلى أيدى بريطانيا وحدها وهى إذ ذاك مثقلة بالهموم وفادح المسئوليات . وكأنما أرادت انجلترا أن تترك للشعوب العربية إرثاً يذكرونها به بعد الحرب فكانت أن أعلنت ذلك التصريح الذى يفوق فى مرماه البعيد فى الشرق الأوسط على مشروع قناة السويس أو كشف منابع البترول . وكانت الشعوب العربية منذ قامت مشكلة فلسطين تتوثب لتحقيق فكرة الجامعة العربية ولذلك سرعان ما قتنعت مصر بتبنى المشروع وقامت على تنفيذه مع أخواتها بمقتضى بروتوكل الاسكندرية فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ثم وفق ميثاق الجامعة فى مارس سنة ١٩٤٥ .

وإذا كانت بريطانيا قد ظنت أنه بانشاء جامعة الدول العربية قد أقامت حاجزاً فى وجه التنافس الدولى بشأن الشرق الأوسط . أو إذا كانت الشعوب العربية قد توهمت أن قيام الجامعة سيعصمها من استعمار المستعمرين فقد أخطأت بريطانيا وأخطأ العرب جميعاً . لأن الاستعمار لا يشترط فيه أن يكون مقصوراً على الحكم والسياسة بل إنه ليشمل الثقافة والاقتصاديات أيضاً وهيهات أن تجد الشعوب العربية فى ثقافتها وصناعاتها واقتصادياتها ما يغنيها عن التعاون الأجنبى . ثم إنه ما دامت الحروب أمراً محتمل الوقوع فان الدول التى تطمع فى مكانتها العالمية سترنو دائماً ببصرها إلى منطقة الشرق الأوسط حيث توجد أهم القواعد الاستراتيجية فى العالم .

وسيظل اهتمام الدول الكبرى بهذه المنطقة قائما إلى أن تستكمل شعوب الشرق الأوسط أسباب نهضتها أو تلغى مادة الحرب من القاموس الدولى .

محمد رفعت

فى بلاد اليمن

يعرف الناس عن بلاد العرب أنها بلاد صحراوية جافة ، يندر بها المطر ولا ينتظم سقوطه ، وتقل فيها النباتات، ويصعب استنباتها إلا حول العيون والآبار ، ويشتغل أهلها بالرعى والانتقال وراء الابل والأنعام ، سعياً إلى مواطن الكلأ والمرعى ، ويعمل فريق منهم فى النقل التجارى على طرق القوافل ، حيث تتباعد المسافات ، ويشق السفر والانتقال إلا على الجمال وحداتها من رجال البادية الأشداء . والصورة العامة التى تحضر الذهن عندما نسمع اسم الجزيرة العربية أنها بيداء شاسعة ، تنتثر مواطن الكلأ فى بطون أوديتها القليلة ، ولا تثمر تربتها الرملية غير النخيل وقليل من الحب أو الثمر ، ويعيش أهلها عيشة البدو والأعراب ، فى بيوت من الشعر أعدت لينتقل بها أصحابها خفيفة فوق ظهور الجمال ، ولا تستقر الحياة فيها ولا تتركز إلا فى واحات قليلة هنا وهناك .

ولكن الذى يدرس الجزيرة العربية يجد أن هذه الصورة لا تصدق إلا على مناطق معينة من تلك البلاد الشاسعة . وهى تصدق بصفة خاصة على المناطق الداخلية والوسطى من شبه الجزيرة . أما فى الشمال فهناك ما يعرف بالهلال الخصيب ، وقد اشتهر بأنه موطن المدنية المستقرة منذ أقدم العصور ، ويشمل بلاد العراق والشام بمعناهما الأوسع . وأما فى الجنوب فهناك عمان وحضرموت واليمن ، وكلها من مواطن المدنية والاستقرار القديم . واليمن وحياة أهلها هى موضوع هذا المقال .

ولا بد لنا إن نحن أردنا أن نتفهم الحياة فى بلاد اليمن من أن نتعرف شيئا عن ظروفها الجغرافية العامة . فالبيئة الجغرافية كما نعرف هى مسرح النشاط البشرى . وكثيراً ما تتكيف حياة الناس وأعمالهم بظروف هذا المسرح الطبيعى . ولذلك وجب علينا أن نشير إلى عوامل البيئة الأساسية التى

أثرت ، ولا تزال تؤثر فى حياة الناس وتاريخهم فى ذلك الركن من الجزيرة العربية .

وتختلف بلاد اليمن عن بقية البلاد العربية بأمور أساسية . أولها أنها هضبة عالية تسببت فى الأصل عن انكسار البحر الأحمر وارتفاع حافتيه فى بلاد العرب من جهة ، وفى الحبشة وشرق إفريقية من جهة أخرى . وكان الارتفاع ظاهراً فى بلاد اليمن بصفة خاصة ؛ لأن السطح أضيفت إليه طبقات من اللافا والتكوينات البركانية ، التى زادت من سمك الطبقات وارتفاعها . ويتراوح متوسط ارتفاع هضبة اليمن العليا بين ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ متر ، وإن كانت بعض جهاتها ، كمنطقة جبل النبى شعيب الواقعة إلى الغرب من صنعاء ، تزيد على ٣٥٠٠ متر ؛ وربما كان هذا الجبل أعلى القمم فى بلاد العرب كلها ما عدا بعض الجبال غير المعروفة فى بلاد عسير . وقد ترتب على ارتفاع بلاد اليمن أن امتازت بمناخها المعتدل ، رغم أنها تقع فى منطقة حارة . فضلا عن أن هذا الارتفاع أدى إلى ازدياد الأمطار الموسمية الصيفية ، التى تزيد فى بعض جهات الهضبة ، لا سيما ركنها الجنوبى الغربى ، على أكثر من ٥٠ سنتيمتراً فى العام ، ولا تقل على الجملة فى مختلف جهات الهضبة العليا عن ٤٠ سنتيمتراً ؛ وهو قدر يوازى عشر أمثال متوسط الأمطار فى الجهات الصحراوية الحارة من شبه الجزيرة ؛ بل هو قدر يكفى لنمو النباتات والأشجار التى تكسو معظم الهضبة ، ما عدا أطرافها الشرقية الداخلية ، حيث يقل المطر ، وما عدا منطقة تهامة ، وهى سهل ساحلى ضيق يمتد على طول شاطئ البحر الأحمر ، ويختلف فى مظهره الطبيعى وحياة سكانه عن الهضبة اليمنية بالمعنى الصحيح .

وهناك عامل جغرافى آخر ميز اليمن من غيرها من جهات الجزيرة العربية ، وذلك أن معظم صخورها من المواد البركانية التى تسربت من باطن الأرض فى شقوق عدة حتى بلغت السطح فغطته بطبقات سميكة مما يسميه الجيولوجيون باللافا الغطائية ؛ أو التى ظهرت فى هيئة براكين مخروطية الشكل تكونت فى آخر الأعصر الجيولوجية ، ولم يزل بعضها ثائراً مضطربا حتى خلال العصر التاريخى . ولقد تفتت هذه المواد البركانية بفعل العوامل الجوية والأمطار ، فكونت تربة صالحة للزرع والانبات ، بل صالحة للاحتفاظ بالرطوبة وتغذية

النبات بها ، حتى بعد أن ينقضى موسم المطر . وتلك التربة الغنية تشبه التربة التى توجد فى الجهات المقابلة من الهضبة الحبشية ؛ بل تشبه إلى حد ما التربة الغنية التى يجلبها النيل إلى مصر ؛ وفى ذلك يمتاز اليمن من معظم البلاد العربية ، حيث تسود التربة الرملية أو الجيرية أو التربة المتبلورة الجرداء ، ما عدا مناطق قليلة هنا وهناك .

فخصب اليمن وإيناعه وغناه بالنبات والخضرة والخيرات الزراعية يرجع إلى ارتفاعه وكثرة أمطاره وتربته الصالحة . وتلك كلها قد جعلت منه « بلاد العرب السعيدة » كما كان يسميه قدماء الكتاب من الجغرافيين فى عهد الرومان . ولقد ساعد على تميزه بصفة خاصة سقوط أمطاره فى الصيف أى فى الفصل الذى يشتد فيه القيظ وتقسو الطبيعة على ما قد يكون بالأرض من نبات ، فيأتى المطر ليسعف النبات بالماء فى الوقت المناسب ؛ وذلك بخلاف الحال فى شمال بلاد العرب مثلا حيث تسقط الأمطار فى أشهر الشتاء ، ويمتاز الصيف بارتفاع الحرارة واشتداد الجفاف فى آن واحد . فضلا عن أن التربة فى بلاد اليمن كانت كما ذكرنا من النوع الذى يحتفظ بالرطوبة ، ويختزنها بين ذراته من فصل إلى فصل . ولذلك لم يكن غريباً أن يمتاز هذا الركن المطير الخصيب من الجزيرة العربية بأنه كان موطن حياة زراعية مستقرة منذ أقدم العصور ، تختلف عن تلك الحياة الرعوية المتنقلة ، والتى عرفت عن معظم أنحاء الجزيرة العربية . بل لم يكن غريباً أن يصبح اليمن موطناً للحضارات والمدنيات القديمة والمستقرة ؛ والتى عرفت منها حتى الآن الحضارات المعينية والسبئية والحميرية . وقد استمرت كلها خلال ما يقرب من ألف وخمسمائة سنة قبل أن يظهر الاسلام ؛ كما بقى اليمن خلال العهد الاسلامى موطنا لحياة متقدمة ، ومدنية لا تقل عما نعرفه من بقية العالم الاسلامى العربى الشمالى . وتابع اليمنيون حياتهم ونشاطهم فى استغلال بيئتهم وتربة أراضيهم ؛ فاستقروا على سفوح الجبال ، وانشأوا على منحدراتها مدرجات منتظمة تحفظ التربة وتمنع الأمطار من أن تجرفها فى انحدارها إلى الأودية ، وغرسوا أشجار البن والفاكهة ونباتات الحبوب المختلفة التى أهمها القمح والشعير والذرة ؛ وارتبطت حياتهم بالأرض ارتباطا قويا ، واستقرت كل قبيلة من قبائلهم فى بقعة من الأرض تفلح تربتها وتستمسك بها وتتخذها موطنا ومستقرا . وبذلك كله

امتازت حياة اليمنيين على مدى العصور بأنها كانت حياة مستوطنة مستقرة متمدنة ، بل كانت حياة قرى وحضر أكثر مما هى حياة رعى وتنقل .

وكان هناك عامل جغرافى آخر ميز الحياة فى بلاد اليمن ؛ ذلك هو موقعها الجغرافى فى ركن من الجزيرة العربية ، تحيط به الصحارى والمناطق الجافة الوعرة فى الشرق ، أى فى اتجاه صحراء الربع الخالى حيث الرمال والكثبان والأرض الملحية الجرداء ؛ وفى الشمال أى فى اتجاه بلاد عسير والحجاز حيث تسود الصخور البلورية القديمة وتقل الأمطار كلما اتجهنا بعيداً عن الركن اليمنى . ولقد ساعد موقع بلاد اليمن واختلافها عما جاورها من أرض الجزيرة على أن تحتفظ تلك البلاد بطابع وكيان خاص . فضلا عن أن وقوعها فى أقصى الجنوب الغربى ، وفى مواجهة بلاد الحبشة وشرق إفريقية قد وجهها توجيهاً خاصا ، فاتصلت حياتها بالبحر الأحمر وتجارته منذ أقدم العصور . وكانت تؤلف جزءاً نسميه بلاد بونت ، وهى البلاد القديمة التى اتصل بها قدماء المصريين والتى يرى الباحثون أنها تشمل إلى جانب بلاد اليمن بلاد الحبشة والصومال . ولقد توثقت الصلات القديمة بين اليمن وشواطئ أرتريا والحبشة . والثابت الآن أن كثيراً من عناصر اليمن القديمة قد هاجرت إلى شرق أفريقية واستقرت هناك ؛ وأن الساميين القدماء إنما هاجروا إلى الحبشة وسكنوها عن طريق بلاد اليمن وباب المندب ؛ وأن بعض ملوك اليمن الأقدمين لاسيما فى العهد الحميرى قد وسعوا ملكهم فى الشواطئ الافريقية المقابلة ؛ كما أن الأحباش بعد ذلك غزوا اليمن واستقروا حيناً قبل أن يظهر الاسلام . ولا تزال صلات التجارة والثقافة والمهاجرة قوية بين الشواطئ اليمنية والافريقية على جانبى البحر الأحمر وخليج عدن .

كذلك تمثلت قيمة الموقع الجغرافى لبلاد اليمن فى أنها كانت تشرف على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وعلى الصلات البحرية التى تربط بين أهل الشمال والبحر الأبيض المتوسط والمناطق المعتدلة من جهة ، وأهل البحر الأحمر وبحر العرب وما يليهما من المحيط الهندى والمناطق الحارة من جهة أخرى . وكان ذلك الموقع مصدر خير لليمن وموانيه القديمة فى الأعصر التى كان اليمن فيها قويا ، فخرج ملاحوه إلى البحار ونقلوا المتاجر بين الشرق والغرب ، وأفاد اليمن من ذلك إلى حد كبير ، كما حدث فى أواخر العهد الاغريقى الرومانى ، وفى

بعض أدوار العهد الاسلامى . ولكن هذا الموقع نفسه كان مصدر بلاء فى أعصر ضعف اليمن ، عند ما طمع العالم الخارجى فيه أو فى بعض سوانيه على الأقل . ولقد حاول الرومان أنفسهم أن يغزوا قلب اليمن ؛ ولكنها كانت غزوة قصيرة محدودة النجاح . كما طمع الغزاة فى بعض الموانى والنقط الساحلية فى الأعصر القديمة والحديثة على حد سواء . وكان آخر الأمثلة استقرار البريطانيين فى عدن؛ لأنها تقع على طريق الهند وتصلح قاعدة للأسطول فى تحكمه وحمايته لطرق التجارة مع الهند من جهة ، ومع شرق إفريقية من جهة أخرى . كذلك طمع البريطانيون واستقروا فى بعض الجزر الهامة التى تواجه سواحل اليمن وأهمها جزيرة بريم . كما طمع الفرنسيون فى نقطة الشيخ سعيد الواقعة فى ركن باب المندب اليمنى بالذات .



إلى هذه العوامل الجغرافيـة المختلفة ، والتى لم يكن الموقع الجغرافى إلا واحداً منها ، نستطيع أن نرجع ما امتازت به بلاد اليمن من بقية الأقطار العربية من أنها لم تكن صحراء ولا منطقة بدو ورعاة ؛ وإنما كانت هضبة عالية ، غزيرة الأمطار الصيفية غنية التربة ، مكسوة بالنباتات الطبيعية ، يعيش أهلها عيشة الاستقرار يفلحون الأرض وينشئون المدنيات العريقة المستقرة ، ويشرفون من هضبتهم وموانيهم على طرق النقل والتجارة ، ويهاجر سلاحوهم بعيداً عن بلادهم ، ينقلون معهم ثقافتهم السامية أول الأمر ، ثم ثقافتهم العربية الاسلامية بعد ذلك ، إلى بلاد نائية بعيدة فى الشرق الآسيوى الأقصى أو فى شرق أفريقية .

على أن هذه العوامل الجغرافية قد ميزت بلاد اليمن من ناحية أخرى ؛ فأعطتها طابعاً خاصا من الحياة ، يختلف عما نراه فى بقية أرض الجزيرة ؛ بل أضفت عليها شخصية إقليمية متميزة ، تمثلت على الخصوص فى ميدان الثقافة . وهى الشخصية التى احتفظ بها اليمن حتى بعد أن دخل إليه الاسلام ، وبعد أن صار للجزيرة العربية كلها دين واحد ولغة واحدة وثقافة موحدة إلى حد كبير . وليس من شك الآن فى أن اليمن قد استطاع بموارده العظيمة وتراثه العريق فى الثقافة أن يؤثر فى بناء الثقافة الاسلامية نفسها قبيل ظهور الاسلام وبعده . ولكن اليمن وقد أعطى بلاد العرب ما أعطى من ألوان الثقافة قبل أن يظهر الاسلام ، أبى فى العهد الاسلامى إلا أن يحتفظ بحياته الخاصة ، وشخصيته التى كانت فى واقع الأمر مشتقة من بيئته الجغرافية المميزة ، ومدنيته التى ارتبطت منذ أقدم العصور بتلك البيئة . ولذلك فان اليمن لم يلبث أن أصبح قاعدة لجماعة الزيديين ومذهبهم الذى اشتق فى الأصل من المذهب الشيعى ، ولكنه سرعان ما اتخذ صبغته الاقليمية الظاهرة ، فأصبح يميز حياة اليمنيين ومذهبهم فى الدين والسياسة حتى يومنا الحاضر .

ولقد نشأ المذهب الزيدى أول ما نشأ فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، أى فى أيام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ فأسس مذهبه الذى ينتسب إليه أتباعه الزيديون حتى الآن . وقد توفى فى عام ١٢٢ الهجرى وخلفه ، مع فترات انقطاع ، عدد متلاحق فى الأئمة من أهل الشيعة والزيود من سلالة على رضى الله عنه . واختار أغلب هؤلاء الأئمة بلاد

اليمن مقاماً لهم حتى تركز المذهب وأتباعه فى بلاد اليمن ، واقتصر عليها بالتدريج ؛ وأصبح الزيود فى الهضبة اليمنية يختارون إمامهم ويبايعونه ، كما تقضى به الشريعة الاسلامية ، وكما جرى عليه العمل فى عهد الخلفاء الراشدين ؛ ويركزون فى يديه السلطتين الروحية والمدنية . ولا يزال العمل جارياً على هذا التقليد فى بلاد اليمن حتى الآن .

وقد انتشر المذهب الزيدى فى بلاد اليمن ، لا سيما المناطق الجبلية العالية منها . ويتبعه الآن أكثر من مليونين ونصف مليون من سكان اليمن الذين يبلغون حوالى ثلاثة ملايين . ويتركز الزيود وتشتد عصبيتهم لمذهبهم فى الجهات الجبلية ، لا سيما فى شمال اليمن وقلبه . ولكن الزيود أقل تركزاً وأقل استمساكاً بمذهبهم كلما اتجهنا نحو الشرق أو الغرب أو الجنوب . ويتبع باقى سكان اليمن ، ويقدرون بنحو نصف مليون أو أقل ، المذاهب السنية ، وأهمها مذهب الامام الشافعى ، الذى ينتشر على الخصوص فى منطقة تهامة المنخفضة ، التى تقع على ساحل البحر الأحمر بما فيه ميناء الحديدة ؛ كما يوجد أيضاً فى بعض أطراف اليمن الجنوبية الشرقية .

على أن الشئ المهم والطريف أن اختلاف الهضبة اليمنية وتميزها من بقية الجزيرة العربية فى الحياة والفكر والثقافة والدين كان فيما يبدو صورة منعكسة من تميزها واختلافها من الناحية الجغرافية الطبيعية ؛ ذلك الاختلاف الذى امتدت آثاره وبرزت نتائجه واضحة جلية فى حياة اليمن فى العهد الحديث . فلقد امتد سلطان الخلافة العثمانية إلى الشرق العربى كله ؛ ولكنه كان فى اليمن ضعيفاً متضائلا ، رغم ما امتازت به تلك البلاد من غنى وثروة وجودة فى الطبيعة والمناخ . ولقد بقيت سلطة الخلافة العثمانية اسمية على اليمن ؛ وكان ذلك بالطبع راجعاً إلى بعد تلك البلاد وصعوبة الوصول إليها عن طريق الحجاز البرى الشاق ، أو عن طريق البحر الأحمر الذى لا تملك تركيا القوة البحرية للاشراف عليه ؛ ولكنه كان راجعاً أيضاً إلى نفور أهل اليمن وهضبته من نظام الخلافة السنى ، واستمساكهم بنظامهم الزيدى بل تعصبهم له . وقد احتفظ أهل اليمن خلال العهد التركى بامامهم الخاص ؛ وإن كان نفوذه لم يتعد الناحية الروحية ، وبعض شؤون الدنيا فى جهات خاصة ومحدودة فى هضبة اليمن . وقصة كفاح الامام الراحل المغفور له يحيى بن حميد الدين هى صورة مصغرة

من كفاح اليمن ليحتفظ بكيانه وشخصيته المميزة ؛ بل ليحتفظ باستقلاله وليسير على طريقته الخاصة مهما اختلف فى ذلك عن بقية أجزاء العالم العربى وأقطاره .
وقد ولد رحمه الله فى صنعاء سنة ١٢٨٦ هجرية أى منذ واحد وثمانين عاماً هجريا ؛ وأخذ فنون العلم والدين بتلك المدينة حتى اضطر أن يهجرها مع والده الامام المنصور بالله محمد بن يحيى فى سنة ١٣٠٧ هجرية . ولما توفى المنصور بالله فى سنة ١٣٢٢ هجرية بايع العلماء الامام يحيى ، واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين الامام المتوكل على الله رب العالمين يحيى بن حميد الدين .

وكانت مبايعة الامام يحيى فى ظرف تحفزه إلى أن يتزعم الحركة الدينية والقومية فى البلاد ضد الأتراك ونظامهم فى الخلافة والحكم . فلم يلبث أن ألب القبائل وجمعها من حوله ، وناصب الأتراك العداء ، واستطاع سريعاً أن يدخل صنعاء بالذات وأن يستقر بها إلى حين ؛ واضطر الأتراك إلى أن ينقلوا مركز قوتهم ومعسكرهم وسلطانهم إلى قلعة مناخة فى الجبال الواقعة إلى الغرب من صنعاء . على أن الأتراك ما لبثوا أن جمعوا قواتهم وأخرجوا الامام من صنعاء ؛ فتراجع نحو الاشمال واتخذ مركزه وقاعدته بين الجبال لا سيما حول صَعْدَة فى شمال اليمن . حتى إذا ما شبت الحرب العالمية الأولى ، وشغل الأتراك بكفاحهم فى الشمال من جهة ، وانقطعت مواصلاتهم فى قلب الجزيرة وفى البحر الأحمر الذى يشرف عليه البريطانيون من جهة أخرى ، نجح الامام وأتباعه من الزيود فى أن يدخلوا صنعاء مرة أخرى فى عام ١٣٣٧ الهجرى أى فى أواخر تلك الحرب . ومنذ ذلك الحين مهدت السبيل لأن يستتب الأمر بالتدريج للامام وقواته فى المناطق الجبلية والداخلية ، حيث يسود المذهب الزيدى ؛ ثم فى المنطقة الساحلية حيث يسود المذهب الشافعى .

ومع ذلك يمكننا أن نقسم جهاد الامام الراحل فى سبيل إقامة دولة اليمن الحديثة إلى مراحل ثلاث : أولاها مرحلة الكفاح ضد الاتراك ؛ وقد بدأت بتولية الامام يحيى فى أوائل القرن الحالى ، واستمرت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى ... وكان ختامها أن طرد الأتراك وحل الامام محلهم على رأس السلطة المدنية المركزية فى صنعاء . ولكن الشئ الطريف أن جهاد اليمن فى هذه المرحلة كان جهاداً قائما بذاته ، ومستقلا إلى حد ظاهر عن جهاد بقية الأقطار العربية ضد سلطان الأتراك ؛ وفى ذلك صورة منعكسة من

شخصية اليمن ومقوماتها الجغرافية التى أشرنا إليها . والمرحلة الثانية فى الجهاد هى التى قضاها الامام ورجاله وسعاونوه فى توحيد البلاد داخليا والقضاء على العناصر النافرة والقبائل التى اعتادت الفوضى والتى أفسدت وحدتها نظم الحكم أيام الأتراك . وقد استمرت هذه المرحلة قرابة خمسة عشر عاما ، جاءت فى أعقابها المرحلة الثالثة التى أراد فيها الامام أن يحدد مملكته ، وان ينظم علاقاته بالعالم الخارجى ، ولكن فى أضيق نطاق ممكن . وكان الامام فى هذه المرحلة ممثلا صادقا لروح اليمن الذى عاش أهله أجيالا متلاحقة خلال العهد التركى بمعزل عن العالم ، بما فى ذلك البلاد الاسلامية العربية نفسها .
وكان طبيعيا مع ذلك أن يحتك الامام الراحل أول ما احتك ببريطانيا التى كانت قد وطدت أقدامها خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على سواحل بلاد العرب الجنوبية ، واتخذت عدن قاعدة لأسطولها وميناء لسفنها التى تجرى بالتجارة بينها وبين الهند وشرق إفريقية ، كما وسعت نفوذها فيما أصبح يعرف بمناطق المحميات ، وهى التى تقع إلى شمال عدن وتمتد إلى أراضى سلطنة لحج وسلطنات حضرموت . ولم يعترف جلالة الامام بنفوذ بريطانيا فى تلك المناطق أول الأمر ؛ واستمر الخلاف قائما حتى وقعت بين اليمن وبريطانيا معاهدة صداقة فى عام ١٩٣٤ ، نصت المادة الأولى منها على اعتراف بريطانيا « باستقلال جلالة ملك اليمن حضرة الامام ومملكته استقلالا كاملا مطلقاً فى جميع الأمور مهما كان نوعها » ، كما نصت المادة الثالثة على أن « يؤجل البت فى مسألة الحدود الجنوبية اليمنية إلى أن تتم مفاوضات تجرى بينهما قبل انتهاء مدة المعاهدة (٤٠ سنة) . وإلى أن تتم تلك المفاوضات يقبل الفريقان المتعاقدان الساميان أن تبقى الحالة الحاضرة فيما يتعلق بالحدود فى تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة » . وبذلك كان اعتراف بريطانيا باستقلال اليمن فى مقابل تسليم اليمن بالحالة الراهنة على الحدود بينه وبين المحميات ، ولو إلى حين . كذلك كان الامام قد عقد معاهدة مع إيطاليا جددها بعد المعاهدة البريطانية بعامين ؛ وكان قصده أن يوازن بين بريطانيا وتلك الدولة المتحفزة ذات المصالح المتكاثرة إذ ذاك فى جنوب البحر الأحمر .
ولقد توثقت الصلات بعض التوثق بين اليمن وايطاليا قبل الحرب ، ونجحت ايطاليا فى أن توفد ثلاثة مندوبين من الأطباء المشتغلين بالسياسة أقاموا فى

صنعاء وتعز إلى أن جاءت الحرب وتغيرت الأمور . كذلك قام خلاف على حدود اليمن الشمالية بين اليمن والمملكة العربية السعودية بسبب إمارة عسير وامتلاك واحة نجران التى تعتبر مركزا من مراكز الاتصال القديم بين اليمن وداخلية البلاد العربية وشرقها . ولقد قامت بالفعل حرب قصيرة لم تلبث لحسن الحظ ، ولما امتاز به العاهلان العربيان العظيمان من حكمة وبصيرة وتقدير صادق ، أن انتهت بمعاهدة سنة ١٩٣٤ ، اعترف فيها اليمن بدخول نجران ضمن الدولة العربية السعودية ، وتم الاتفاق على أن تبدأ الحدود اليمنية بين ميدى وجيزان على الساحل فى جنوب عسير .

هكذا انتهت دولة اليمن من تخطيط حدودها ، ولو بصفة وقتية ، فيما يختص بحدودها الجنوبية . وكان ينبغى أن تتلو هذه المراحل الثلاث من كفاح اليمن وجلالة الامام الراحل مرحلة رابعة هى مرحلة الاصلاح الداخلى ، والخروج باليمن من أعقاب القرون الوسطى ومفاسد حكم الاتراك ، إلى الحياة العاملة والنهضة التى تجارى العصر الذى نعيش فيه . ولكن جهود اليمن جاءت ضعيفة متباطئة فى هذه المرحلة الرابعة ، كما جاءت خطواته متثاقلة مترددة . وكأن الجهود الجبارة التى قام بها جلالة الامام الراحل فى عهد شبابه وعنفوانه ، لم تترك فضلا من قوته وإقدامه ليتجه نحو الاصلاح الداخلى ؛ بل كأن حذره وخوفه الشديد على استقلال البلاد من أن يمسه شئ قد جعله يكتفى من الحياة العالمية بأن يشاهد ما يجرى خارج اليمن من بعيد . ولا شك أن تجاريبه الطويلة القاسية كانت من وراء حرصه وحذره وتخوفه من مجاراة العالم والاندفاع فى التيار الدولى . ولكننا إذ نلتمس المعذرة لليمن فى حذره وتخوفه ينبغى أن نذكر ان الاستقلال لا يؤتى ثماره إلا إذا جاءت فى أعقابه نهضة تجدد الحياة بما يتسق والعصر الذى نعيش فيه . وقد انقضى العهد الذى كانت الأمم الصغيرة تستطيع فيه أن تتابع حياتها الخاصة من وراء ستر أو من خلف حجاب ؛ كما انقضى العهد الذى كانت الأمم التى لم تأخذ بنصيب من الحياة الحديثة تستطيع فيه ان تنطوى على نفسها أو أن تعيش بمعزل عن العالم . وإنما نحن الآن نعيش فى عالم تشابكت أجزاؤه وسعت فيه الأمم بعضها إلى بعض . وخير لليمن وهو مهد المدنية العريقة ، بل وهو الذى جمع فى بيئته الغنية وموقفه الجغرافى الفريد مقومات الحياة الحديثة

الناهضة ... خير له أن يخرج إلى النور ، وأن يسارع الخطى ليعوض ما فات ، وأن يتصل بالعالم فيتعلم عنه ما ينتقل به وبأبنائه إلى الحياة الجديدة العاملة المثمرة ، وما يؤهله لأن يتبوأ مكانه اللائق به بين أخواته أمم الشرق العربي الجديد .

رعى الله اليمن ! ووفق أبناءه فيما هم مقبلون عليه من جهاد لا شك طويل !

سليمان حزين

وراء المنظور

[إزاء صورة تمثل حانة ، والشمس فيها
إلى الزوال . فى الحانة فتاة وأعوانها .] *

صحراءُ بثت الرمالْ
تقذى الأفقْ
شعثاء تنفث الملال
وتختنق
صفراء هاجها الزوال
حتى الحنق
هبَّت تناوش الظلال
تحمى الرمق

ظبىٌ يناديه السرابْ
فيعتنق
شعاعَ رقراق الشباب
فيحترق
تكلؤه جُربُ الذئاب
حُمرَ الحدق
تصبُّ نهمةَ اللعاب
على الحرق

باريس أكتوبر ١٩٣٦ بشر فارس

---

* للشاعر رأى فى الاستحداث فى الأوزان سيعرضه بعد حين .

مراثى الأندلس

للشعر الأندلسى خواصه التى تميزه من بقية تراث الشعر العربى . وليس من الصعب أن ندرك أسباب هذا الامتياز ؛ فوقوع الأندلس فى مشارف أوربا الجنوبية وظروفها الجغرافية والسياسية والاجتماعية ، وامتزاجها بتيارات التفكير والحضارات الأوربية ، وصراعها الطويل مع أسبانيا النصرانية ، هذه العوامل كلها أسبغت على الشعر الأندلسى ألوانه وخواصه التى يمتاز بها .

وكما أن الشعر الأندلسى يبدو فى مواطن الوصف والمديح والغزل فى ألوان زاهية تفيض رقة وطرافة وابتكاراً ، فهو يبدو فى مواطن الألم والتفجع فياض الكآبة والحزن . وتمتاز المراثى الأندلسية السياسية بروعة خاصة ، ويتمثل فيها كل مافى تاريخ الأندلس من المحن . ولم تصل المراثى القومية فى مجتمع اسلامى قدر ماوصلت إليه المراثى الأندلسية من روعة التعبير وشدة اللوعة وعمق التفجع . وإن منها مايزال يحتفظ حتى عصرنا بكثير من روعته ، ويثير فى النفس بالغ الألم والأسى .

وقد بدأت هذه الصبغة المحزنة تغلب على الشعر الأندلسي منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ،أى مذ تبدت مأساة دول الطوائف فى أطوارها المزعجة ، ومذ بدأت أسبانيا النصرانية تنتزع القواعد الأندلسية العظيمة ، وأخذت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت على المنحدر تواجه خطر الانهيار القومى . وكان سقوط طليطلة فى يد الأسبان فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) أول ضربة مؤلمة أصابت الأندلس ، وكان أول محنة قومية حقيقية أثارت لوعة الشعر الأندلسى . ومما قيل يومئذ فى رثائها قصيدة طويلة هذا مطلعها :

لثكلك كيف تبتسم الثغور ... سروراً بعد ما يئست ثغور
أما وأبى مصاب هد منه ... ثبير الدين فاتصل الثبور [1]

---

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٢ — ٥٩٤ .

وينوه الشاعر فى مرثيته بطائفة من المعانى ، غدت فيما بعد من المعانى الشائعة فى المراثى الأندلسية ، تردد فيها بصور مختلفة ، منها البكاء على الوطن ، وما أصاب نور الاسلام من انطفاء ، وتحويل المساجد إلى كنائس ، وعلى تشريد المسلمين عن أوطانهم ، وفقدهم لحرياتهم ، ووقوعهم فى أغلال الذلة والمهانة ، وسبى نسائهم وأولادهم ، وغيرها من المعانى المؤثرة التى تتعلق بقضية الوطن والدين .

وكان من أشهر المراثى الأندلسية فى ذلك العصر الذى اضطربت فيه أحوال الأندلس وظهرت عليها أسبانيا النصرانية ، وغزاها المرابطون بعد أن تظاهروا بانقاذها ، واستولوا على قواعدها وثغورها، وقضوا على دول الطوائف ، وقتلوا وأسروا ملوكها ، قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء دولة بنى الأفطس ملوك بطليوس ، وكانت دولتهم من أزهى دول الطوائف ، وفيها ازدهرت دولة الشعر والأدب ، وكان زعيمها وآخر ملوكها محمد بن الأفطس الملقب بالمتوكل من أكابر العلماء والأدباء . ولما استولى المرابطون على مملكته (سنة ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م) قتلوه وأولاده الثلاثة،ووضع فيهم وزير دولتهم عبدالمجيد ابن عبدون المتوفى سنة ٥٤٩ هـ وهو من أهل يابرة مرثيته الشهيرة التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر … فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة … عن نومة بين ناب الليث والظفر

ومنها :

فلا تغرنك من دنياك نومتها … فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتنا … من الليالى وخانتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة … منا جراح وإن زاغت عن البصر
تسر بالشئ لكن كى تغر به … كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها … لم تبق منها وسل ذكراك من خبر[1]

وتعتبر قصيدة ابن عبدون من غرر المراثى الأندلسية . وقد وضع لها ابن

---

(١) راجع قصيدة ابن عبدون بأكملها فى كتاب المعجب للمراكشى ص ٤٢ ، ٤٦ .

بدرون المتوفى فى نحو سنة ٦١٠ هـ وهو من أهل شلب ، شرحاً قيما طبع غير مرة ، وهى تردد كثيراً من المعانى التى جرت عليها المراثى الأندلسية فى التنويه بعبر الدهر وغدره ؛ غير أنها خلت من النواح على مصير الاسلام ؛ لأن دولة بنى الأفطس لم تسقط فى يد النصارى ولكنها اسقطت فى يد دولة إسلامية أخرى.

ولما أخذت دولة الموحدين التى استولت بعد المرابطين على بلاد الأندلس فى الضعف والانحلال منذ أوائل القرن السابع الهجرى ، وأخذت القواعد الأندلسية الكبرى تسقط تباعاً فى أيدى النصارى ، ذكت دولة الشعر واضطرمت لوعتها ، وكلما سقطت قاعدة أندلسية توالت فى ندبها القصائد المؤثرة . وتجتمع فى هذه الفترة بالذات معظم المراثى الأندلسية الجامعة ، وكلها تبكى محنة الأندلس ومصير قواعدها فى بلاغة رائعة ، وأسلوب يفيض بالآلام والحسرات .

فمن ذلك قصيدة ابن الأبار القضاعى البلنسى وقد نظمها حينما دهم النصارى بلنسية (سنة ٦٣٥ هـ — ١٢٣٧ م) وأوفده أميرها أبو جميل زيان سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى سلطان تونس يستغيث به ويستنصره ، فأنشد ابن الأبار قصيدته بين يدى السلطان ، وفيها يعرض محن الأندلس وصريخها بأسلوب رائع ينفذ إلى سويداء القلوب ، وهذه بدايتها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمساً
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربه أجحال شائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الاشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الايمان مبتئساً
وصيرتها العوادى الغائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا [1]

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها . وفى أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٧ وما بعدها .

وقصيدة ابن الأبار هذه من أشهر القصائد الأندلسية السياسية . وفى مطلعها يتردد المغزى التاريخى الذى لبث أحقاباً يجمع بين الأندلس والمغرب ، ويؤكد مابينهما من وشائج القربى والتضامن ، كما يؤيد حق الأندلس فى طلب العون والغوث من إخوانها فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب ، كلما لاح لها شبح الخطر الداهم على يد عدوتها الخالدة أسبانيا النصرانية . وقد لبث هذا التضامن شعار السياسة الأندلسية مذ شعرت الأندلس بضعف كفتها فى الجزيرة الأسبانية . ولما انهارت دولة الموحدين وقامت مكانها بالمغرب دولة بنى مرين اتجهت مملكة غرناطة الناشئة بأنظارها إلى تلك الدولة المغربية الجديدة ، ولبثت أكثر من قرن تكرر إليها الصريخ كلما اشتدت عليها وطأة العدو ، واستجاب بنو مرين لصريخها فعبروا البحر إلى الأندلس لانجادها مراراً .

ولما سقطت بلنسية فى يد النصارى (صفر ٦٣٦ هـ) عاد صريخ الأندلس يتردد عالياً بطلب الغوث والنجدة من سلطان تونس ابن زكريا الحفصى ،وعاد الشاعر يردد معنى ابن الأبار فى مرثية أخرى يبكى فيها سقوط بلنسية ومصائب الاسلام بالأندلس ، وإليك مطلعها :

نادتك أندلس فلب نداءها — واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها — من عاطفاتك ما يقى حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها — تردد على أعقابها أرزاءها

ومنها :

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا — لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها — واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها — فاستبق للدين الحنيف ذماءها
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد — قصرت عليك نداءها ورجاءها (١)

وكان سقوط بلنسية نذيراً بانهيار قواعد الأندلس الشرقية كلها وسقوطها تباعاً فى يد النصارى ، فسقطت شاطبة ودانية فى سنة ٦٣٨ هـ ، ولقنت وأريولة

(١) راجع هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٩ وما بعدها .

وقرطاجنة فى سنة ٦٤٠ هـ ، ومرسية فى سنة ٦٤١ هـ . وأما فى الولايات الشرقية فقد سقطت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة فى يد النصارى فى سنة ٦٣٣ (١٢٣٠م) وبياسة وأستجة والمدور فى سنة ٦٣٤ هـ ، وجيان فى سنة ٦٤٤ هـ ، وأشبيلية أعظم القواعد الأندلسية فى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٦ م) . وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجرى حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعدها التالدة قد سقطت فى يد أسبانيا النصرانية فى وابل من الهزائم والمحن الفاجعة ، وانكمشت رقعة الوطن الأندلسى التى كانت حتى أوائل القرن السابع تضم نحو نصف الجزيرة الأسبانية ، إلى حيز ضيق يقع فى أواسط جنوبى الأندلس فيما بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهو الحيز الذى استطاعت مملكة غرناطة الصغيرة الفتية أن تستقر فيه وأن تتوطد . وقد شاءت العناية الالهية أن تسبغ بقيام هذه الدولة الإسلامية الصغيرة على الأندلس حياة جديدة استطالت أكثر من قرنين .

وقد لبثت مملكة غرناطة التى نشأت فى كنف المحنة وفى غمر الفوضى قبل أن تتوطد دعائمها ، مدى حين مطمح أنظار أسبانيا النصرانية ، وكان القضاء عليها يلوح أمراً ميسوراً محققاً ، حتى إن زعيمها ومنشئها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر لم ير مناصاً من الخضوع لملك قشتالة والاعتراف بطاعته ، وأداء الجزية له استبقاء لسلطانه ، واحتفاظاً بأراضيه . واضطر ابن الأحمر أن يجرع الكأس المرة إلى الثمالة ، وأن يعاون النصارى وفقاً لتعهداته غير مرة فى الاستيلاء على القواعد والثغور الاسلامية الخارجة عن حوزته ، فعاونهم فى الاستيلاء على أشبيلية وعلى قادس وشذونة وغيرها ، واضطر بعد ذلك فى سنة ٦٦٥ هـ أن يشترى مهادنة ملك قشتالة ومسالمته بالنزول له عن عدد كبير من القواعد والحصون ، منها شريش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع معظمها فى غربى الأندلس . وكان لهذه المواقف والتضحيات المؤلمة أعمق وقع فى الأمة الأندلسية ، وكانت ترى يومئذ نذر السقوط النهائى ماثلة فى الأفق تكاد تنقض عليها فى أية لحظة .

وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها ، أعنى أواسط القرن السابع الهجرى ، لوعة الشعر والأدب . ونظم

شاعر العصر أبو البقاء صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة التى مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لانجاد الأندلس وغوثها . وإليك بعض ما جاء فى هذه المرثية الشهيرة التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شئ إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان

فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاعزاء له هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة حتى المنابر ترثى وهى عيدان

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان (١)

---

(١) راجع هذه المرثية البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ وأزهار الرياض ج ٢ ص ٤٧ - ٥٠ .

وما زالت مرثية أبى البقاء رغم توالى العصور عنواناً لمحنة الأندلس . بيد أن هناك خطأ شائعاً حول العصر الذى عاش فيه صاحبها ، وحول الظروف التى قيلت فيها . والفكرة الذائعة هى أنها قيلت فى سقوط الأندلس النهائى أو على الأقل قبيل نهاية الأندلس بقليل . وقد وقع المقرى صاحب نفح الطيب فى هذا الخطأ ، فوصف ناظمها صالح بن شريف فى كتابه أزهار الرياض بأنه خاتمة أدباء الأندلس [١] وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إلى القصيدة تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرها ، وهى ليست من نظم صاحبها لضعفها بالنسبة لروعة القصيدة ، ولأن أبا البقاء توفى قبل سقوط غرناطة [٢] وهو مما يدل على اعتقاد المقرى بأن أبا البقاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أننا عثرنا فى كتاب « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية » على ما يبدد هذا الخطأ الشائع . وقد وضع كتاب « الذخيرة السنية » مؤلف مغربى مجهول عاش فى عصر السلطان ابن سعيد المرينى (٧١٠ هـ - ٧٣١ هـ) وأورد فيه قصيدة أبى البقاء برمتها وذكر أنه وضعها لمناسبة نزول ابن الأحمر لملك قشتالة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) [٣] . وإذن فقد كانت مرثية أبى البقاء معروفة ذائعة منذ أواخر القرن السابع الهجرى ، وقد عاش أبو البقاء فى هذا العصر أو قريباً منه ، فى أوائل أيام مملكة غرناطة . ويبدو فوق ذلك من سياق القصيدة وذكر القواعد الأندلسية التى تندبها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وأشبيلية ، وهى القواعد التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنتى ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ أنها قيلت فى المحنة الكبرى التى فقدت الأندلس فيها معظم قواعدها القديمة . والظاهر أن المقرى لم يطلع فى عصره على كتاب « الذخيرة السنية » بالرغم من اطلاعه على كثير من المصادر والوثائق الأندلسية الأخرى التى كانت معروفة فى عصره ولم تصل إلينا .

وعاشت مملكة غرناطة بعد ذلك زهاء قرنين تحمل بقية التراث الأندلسى ، بيد أنها عاشت ضعيفة مهيضة يهتز مصيرها فى مهب الريح ، وترقب المصير

---

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ .

(٣) راجع كتاب « الذخيرة السنية » (الخبراء سنة ١٩٢٠) ص ١٢٧ .

المحتوم يلوح لها بين آونة وأخرى . وكان سقوط غرناطة آخر القواعد الأندلسية فى يد النصارى فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) خاتمة احتضار طويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة وقع عميق فى جنبات العالم الاسلامى ولا سيما فى أمم المغرب فى الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر كما أثارته من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية أيام كان للدولة الاسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسى كانت قد انهارت منذ بعيد ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت فى رثاء الأندلس نفثات مؤثرة . ومن أشهر المراثى التى نظمت عقب المحنة بقليل رثاء مؤثر لشاعر أندلسى مجهول يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها إلى نهايتها . وإليك بعض ما جاء فى تلك المرثية المشجية التى رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقا خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
أحقا أخلائى القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فوا حسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى بيت الحرام شطورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا سفرت يسبى العقول سفورها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وبلّش قطت رجلها بيمينها ... وفى سريان الداء بان قطورها
وبالله ان جئت المنكب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
الا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
محل قرار الملك غرناطة التى ... هى الحضرة العليا زهتها زهورها
تردّى الأسى أعلامها وهى خشّع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
وبسطة ذات البسط ماشعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها

وما أنس لا أنس المرية إنها قتيلة أدجال أزيل عذورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه وزعزع من أكنافه مستطيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عزائماً على الله فى ذاك النعيم مهورها (١)

ونلاحظ أن الشاعر استهل مرثيته بذكر المرية وهى أول قاعدة أندلسية سقطت فى حرب غرناطة الأخيرة ، وكان سقوطها فى يد النصارى فى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ثم تلتها باقى القواعد التى ورد ذكرها فى القصيدة تباعاً ، كما نلاحظ أنه يردد كثيراً من المعانى التى وردت فى مرثية أبى البقاء الرندى ، من انطفاء نور الاسلام فى القواعد الذاهبة ، وسبى المحصنات بصور مثيرة ، وأمثالها من المعانى التى لا تكاد تخلو منها أية مرثية أندلسية .

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب فى الضفة الأخرى من البحر طائفة كبيرة من المراثى البليغة فى نعى الأندلس والاشادة بفضائلها ، والبكاء على محنتها وفداحة الخطب الذى نزل بها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير الفاجعة عن إخوانهم فى الأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالمحنة وأكثرهم إفاضة فى ندب ويلاتها (٢)

محمد عبد الله عنان

---

(١) نشر هذه المرثية وهى فى أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان *Une élégie andalouse sur la guerre de Grenade* وذكر الناشر أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيه سنة ١٤٩٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الاسبان قد بدأوا محاولاتهم الأولى لتنصير المسلمين .

(٢) نقل إلينا المقرى فى أزهار الرياض بعض هذه المراثى المغربية ، ومن ذلك قصيدة أحمد بن محمد الصنهاجى المشهور بالدقون (ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها)

مخطوطات فاطمية

كتاب سيرة الأستاذ جوذر

وقع بين يدى أخيراً أربعة كتب خطية من تلك الكتب العديدة التى ألفت فى عصر الدولة الفاطمية فى مصر ، والتى لا يزال الاسماعيلية يحتفظون ببعضها إلى اليوم ، ويحافظون على سريتها ويحرصون أشد الحرص على ألا تقع فى أيدى غير الاسماعيلية . ومن هذه الكتب « كتاب سيرة الأستاذ جوذر » الذى يعد حلقة من حلقات « فن السير » ، ذلك الفن الذى كان له شأن كبير فى الحياة الفكرية فى مصر الاسلامية . فقد وجه كتاب مصر وعلماؤها عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم . وقد وصلنا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن العزيز لعبد الله بن الحكم ، رئيس المدرسة المالكية بمصر فى القرن الثانى من الهجرة ، وسيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبى الجيش للمؤرخ المصرى ابن الداية ، وسيرة الإخشيد ، وسيرة ابنه ، وسيرة كافور ، وسيرة المعز لدين الله ، وسيرة العزيز ، وسيرة سيبويه المصرى لمؤرخ مصر ابن زولاق ، وسيرة جعفر الحاجب لمحمد بن محمد اليمانى ، وسيرة المعز لدين الله للقاضى النعمان ابن محمد بن حيون المغربى ، والسيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين هبة الله بن موسى داعى الدعاة . ويطول بنا الأمر لو أحصينا فى هذا المقال كل ما وصلنا فى فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلف المصريين بهذا الفن . ويخيل إلى أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهذا الفن اهتماما خاصا ، نراه ممثلا فيما تركته مصر الفرعونية من سير ملوكها وأمرائها منقوشاً على جدران معابدهم ومقابرهم ، ونراه فى مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سير من سبقوهم من الآباء والقديسين ، وفى مصر الاسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة فى فن السير . ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحاق الأنوسى صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها سيرته ، وجاء ابن هشام فروى أكثرها عن المصريين على نحو ما نراه من سلسلة رواته . وبلغت عناية المصريين وكلفهم بفن السير أن

المصريين وضعوا للشعب « سيرا » عن أبطال أحبهم المصريون وأخذ الشعب فى ترديد هذه السير فى اجتماعاته ومغانيه مثل سيرة عنترة بن شداد وسيرة الهلالية وسيرة ذات الهمة وسيرة الظاهر بيبرس وغيرها من السير الشعبية التى لا تزال تنشد إلى اليوم بين الشعب المصرى ويقبل المصريون على سماعها ، كل ذلك يدل على كلف المصريين بفن السير .

و« كتاب سيرة الأستاذ جوذر » كتاب صغير الحجم فى نحو مائة وخمسين صفحة من القطع المتوسط ، يتحدث عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين أغفل المؤرخون ذكرهم ، ولكن حفظ التاريخ ذكراهم ، فلا يزال اسم جوذر يطلق إلى الآن على شارع وحارة وعطفة بالقاهرة كلها تنسب إليه هى شارع الجودرية وحارة الجودرية وعطفة الجودرية[1] ، أما جوذر نفسه فلم يتحدث عنه مؤرخ واحد من مؤرخى مصر الاسلامية ، ولو لم نعثر على هذا الكتاب الذى نتحدث عنه اليوم لظلت سيرته مجهولة غامضة .

صنف هذه السيرة أحد كتاب الدولة الفاطمية هو منصور الجوذرى العزيزى . ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عن هذا الكاتب إلا ما ذكره هو عن نفسه فى هذا الكتاب بقوله : « لما استخدمنى مولاى الأستاذ جوذر –رضى الله عنه– كاتباً بعد وفاة كاتبه رشيق ، وكان ذلك فى سنة خمسين وثلثمائة ، وآثرنى بما أنالنيه من جزيل الرتبة وشرف المنزلة عنده ، وجعلنى واسطة بينه وبين الخدام تحت يده ، واستحفظنى على ما يجرى بينه وبين مولانا وسيدنا الامام المعز لدين الله من الأسرار ... » وقوله أيضاً فى آخر الكتاب : « ثم أسعدنى الله بخدمتى له ، وأدركنى من بركاته ما أوجب لى فى قلب وليه مولانا وسيدنا – قدس الله روحه – الرأفة والرحمة فصيرنى مكانه مقدما على أسبابه وجميع أصحابه ... وإلى الله أرغب بخالص الطلبة أن يختم لى بمثل ما ختم له ، وأن يعين على المفترض من طاعة وليه وابن نبيه وخيرته من خلقه وخالصته من عباده عبد الله ووليه نزار أبى المنصور الامام العزيز بالله أمير المؤمنين صاحب العصر والزمان . »

---

(١) هذه الخطة فى قسم الجمالية بالقاهرة وينطقها القاهريون بالدال المهملة ، وورد ذكرها فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٦) بالدال المهملة أيضاً مع أن اسم جوذر فى كتاب سيرة جوذر ورد بالذال المعجمة ، وورد اسم جوذر فى كتاب الذخيرة لابن بسام بالذال المعجمة أيضا .

فمصنف الكتاب إذن دخل خدمة الأستاذ جوذر سنة ٣٥٠ ﻫ وظل فى خدمته إلى أن توفى جوذر سنة ٣٦٢ ﻫ ، فاتصل هو بالمعز لدين الله ثم بابنه العزيز بالله . وعلى نحو ما يتضح من كلام المصنف أن العزيز بالله جعله فى مرتبة رفيعة هى نفس المرتبة التى كان فيها جوذر . ويضيف المقريزى أن أبا على منصور الجوذرى زادت مكانته فى عهد الحاكم بأمر الله فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك[1] . هذا كل ما نعرفه عن مصنف هذا الكتاب أبى على منصور الجوذرى . وقد ذكر المصنف سبب تأليف هذا الكتاب بقوله : « وسنذكر ما سمعته منه (أى من جوذر) فى هذا الكتاب أولا فأولا ، ولما توفى رحمة الله عليه وقد طوقنى من الاحسان وقلدنى من الامتنان ما أعجزنى بما ترادف على منه عن شكر بعضه أيام حياته ، وأوجبت المروءة الوفاء له بعد وفاته ، أن أذكر فى هذا الكتاب جميع مناقبه وما شرفه به مواليه الأئمة الأطهار ، وما جرى له فى عصر كل واحد منهم من مكرمة أناله بها ، ، وفضيلة اختصه بها . وأحكى ذلك وأنقله على حسب ما جرى بتوقيعات ومشافهات فعل من صدق الله ربه وأدى أمانته ولم يغير شيئاً مما سمعه ولا زاد فيه ولا نقص منه ليتأمل ذلك من تأمله . »

أما تاريخ تصنيف هذا الكتاب فنحن نستدل من نصوصه أنه صنف فى عصر العزيز بالله الذى ولى الخلافة الفاطمية سنة ٣٦٥ ﻫ وتوفى سنة ٣٦٨ ، ولكننا لا نستطع أن نحدد السنة التى صنف فيها ، ولا السبب الذى من أجله تأخر المصنف فى وضع كتابه هذا حتى عهد العزيز بالله ، مع أننا نفهم من الكتاب أن جوذر كان فى ركب المعز لدين الله من المغرب إلى مصر ، وأنه توفى بالقرب من مدينة برقة فى مكان يعرف بمياسر ، ونحن نعرف أن المعز دخل الاسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ ﻫ ، ومع ذلك لم يصنف الكتاب إلا فى عهد العزيز بالله .

ذكر المصنف كيف دخل العبد الصقلى جوذر وهو صبى فى خدمة عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب ، وأن المهدى أهدى هذا العبد الصغير إلى ولى العهد أبى القاسم القائم بأمر الله . ولكن المؤلف أغفل السنة التى

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٦ .

اتصل فيها جوذر بمواليه أئمة الفاطميين ، وإن كنا نستنبط من الحوادث التى وردت فى الكتاب أن جوذر اتصل بمواليه فى العام الأول لظهور الدولة الفاطمية بالمغرب أى فى سنة ٢٩٦ ﻫ . وقبل أن يبنى المهدى مدينة المهدية سنة ٢٩٧ ﻫ . التى اتخذها المهدى مقر حكمه وانتقل إليها هو وأسرته ، فالمؤلف يذكر قصة طريفة حدثت لجوذر عقب انتقال المهدى إلى عاصمته الجديدة مما يدل على أن جوذر كان من عبيد الفاطميين فى « رقادة » ، وجرياً على سنة الفاطميين فى تلقيب عبيدهم بالأستاذين فقد لقب العبد جوذر « بالأستاذ » شأنه شأن غيره من العبيد .

اشتدت صلة جوذر بمولاه القائم بأمر الله لما اتصف به جوذر من استقامة وأمانة و إخلاص فى ولائه ، حتى إن القائم بأمر الله — وكان لايزال ولى العهد— عند ما خرج لغزو بلاد المغرب سنة ٣٠٠ ﻫ . استخلف جوذر على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله ، ولما توفى المهدى سنة ٣٢٢ ﻫ . خص القائم عبده جوذر دون سائر أهله ورجال الدعوة بمرتبة الاستيداع للامام المنصور بن القائم ، فظل هذا السر بين القائم وجوذر سبع سنوات حتى أعلن القائم ولاية عهده لابنه المنصور . وفى خلافة القائم بأمر الله أصبح جوذر صاحب بيت المال ووكل بخزائن الكساء ، كما كان سفيراً بين الخليفة وسائر الناس . وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذ قوى فى الدولة الفاطمية فهابه الناس ، ولحبه للخير وعطفه على الشعب أحبه الناس . وهكذا استطاع جوذر بحكمته وعقله أن يكتسب حب وعطف مواليه والشعب معاً ، وبلغت علاقة جوذر بالقائم درجة لم يبلغها أحد من رجال عصره ، حتى إن القائم عند ما أراد أن يوصى ابنه المنصور قال له : ولكننى يا بنى استودع عندك وديعة أحب ألا تضيعهـا بعدى . قال المنصور : قل يا مولاى وأرجو أن ينسئ الله فى أجلك ويهب لنا ولكافة أمة جدك عليه الصلاة والسلام عافيتك . قال القائم : هيهات قدبلغ الكتات أجله ، وديعتى عندك جوذر المسكين ، فاحفظه فلا يذل بعدى . قال المنصور : يا مولاى هل جوذر إلا واحد منا ؟ ومعنى هذا أن مكانة جوذر عند الفاطميين هى مكانة ذوى القربى واللحم ، أو مثل مكانة سلمان الفارسى فى أهل البيت لما يرويه الشيعة عامة أن النبى قال : « سلمان منا أهل البيت » .

وتوفى القائم بأمر الله سنة ٣٣٤ ﻫ فى وقت كانت المغرب فيه مرجلا يغلى

بالثورات على الفاطميين ، وكانت أكبر هذه الثورات وأشدها هى ثورة مخلد ابن كيداد الخارجى ؛ لذلك آثر المنصور بالله بن القائم أن يخفى موت أبيه فلم يعلم أحد بموته إلا جوذر ، وخرج المنصور لحرب الخارجى فاستخلف جوذر على دار الملك وسائر البلاد وسلمه مفاتيح خزائن الأموال وحكمه فى كل شؤون الدولة ، وكان المنصور يرسل خطابات من القيروان وعليها عنوان القائم ليوهم الناس بأن القائم لا يزال على قيد الحياة ؛ فكانت هذه الخطابات تصل إلى جوذر فيتصرف بمقتضى ما فيها . وقد حفظ مصنف سيرة جوذر صور بعض هذه الخطابات فى كتابه هذا ، ومنها نستدل على هذه المكانة الرفيعة التى بلغها جوذر من نفس المنصور ؛ فقد جاء فى أحد هذه الخطابات : « يا جوذر . أحسن الله إليك ، وأتم وأسبغ نعمه عليك ، الذى يتصل بى عنك من الضبط والقيام والكفاية هو أحسن الظن بك والرجاء فيك ، وذكر لى إفراط فى الوحشة والاغتمام لفراقنا فلا يضعف قلبك لبعدنا عنك ، فانك معى ومنى وإلىّ ما قمت بالمفترض عليك وعملت لربك ورغبت فى عهده » .

وبعد أن أخمد المنصور فتنة مخلد الخارجى ، عاد إلى المهدية ونعى أباه القائم ، وأراد أن يكافئ جوذر فأعتقه من رقه ولقبه « بمولى أمير المؤمنين » إمعانا فى تشريفه ، وأمره أن يجعل مكاتباته لمن كبر قدره وصغر من جميع الناس « من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى فلان ... » وألا يكنى فى رسائله أحدا ولا يقدم على اسمه اسما إلا الخليفة وولى عهده المعز لدين الله ، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده ، وأن يثبت اسمه على الحصر والبسط بأن يكتب على ذلك كله « مما عمل على يدى جوذر مولى أمير المؤمنين بالمهدية المرضية » وذلك كله تشريف وتقدير لجوذر لما قام به فى سبيل مواليه حتى بلغ منزلة رفيعة فى نفوسهم حتى قال المنصور : ما أدرى أين أخيُ جوذر من الموت ، ولو أن الشباب يشترى لبذلنا له فيه النفيس مما نملكه .

وتوفى المنصور سنة ٣٤١ هـ وكانت فتنة ابن واسول على أشدها ، فأخفى المعز لدين الله موته إلا على جوذر ، وظل جوذر مع المعز لدين الله كما كان مع أبيه المنصور وجده القائم ، وكان جوذر موضع سر مولاه الذى أسر إليه اسم ولى عهده وهو ابنه عبد الله ، فلم يعلم بأمر ولاية العهد أحد سوى جوذر فى الوقت الذى كان فيه الناس يتحدثون عن ولاية العهد للأمير تميم أكبر أنجال المعز .

ولما تم فتح مصر خلع المعز على جوهر القائد لقب مولى أمير المؤمنين وآخى بينه وبين جوذر ، أى إن جوذر ظل وحده يحمل هذا اللقب إلى إن فتحت مصر فمنح لجوهر أيضاً ، ومن يتتبع تاريخ الفاطميين يجد أن هذا اللقب قد شرف به عدد كبير من الوزراء والدعاة ولا سيا فى عصر المستنصر ومن بعده ، ولا نعرف أحداً من رجال العهد الفاطمى لقب به قبل جوذر .

ولما أراد المعز الانتقال إلى مصر ذهب الناس إلى أن أمر المغرب سيئول إلى جوذر ، ولكن جوذر آثر أن يكون مع مولاه و إمامه المعز لدين الله ولا يفترق عنه ، فسمح له المعز بالسير معه فى ركبه، فتوفى جوذر فى الطريق سنة ٣٦٢ على نحو ما ذكرناه من قبل ، وواصل أتباعه وحاشيته السير إلى مصر مع المعز إلى أن استقروا فى هذه الخطة من خطط القاهرة التى لا تزال تحمل اسم مولاهم جوذر — ويقول المقريزى إنهم كانوا أربعمائة شخص .

لا تقف أهمية كتاب سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى فى هذه الدولة منذ نشأتها ، و إنما هو يوضح لنا بعض نواح تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرا سريعاً ؛ ففى الكتاب حديث عن تلك الثورات العنيفة التى نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية ، تلك الثورات التى كادت تقوض أركان هذه الدولة ، الناشئة ، كما يطلعنا هذا الكتاب على العلاقة التى كانت بين الفاطميين وصقلية ، وعلى ما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة ومن قرصانها ، ويظهر سبب الجفاء الذى كان بين المنصور وبين بنى عمومته من أولاد المهدى وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد فى تأديبهم ورصد حركاتهم . وبهذا الكتاب بعض آراء تخالف آراء المؤرخين القدماء ومن تبعهم من المحدثين . فمثلا ذهب القدماء إلى أن القائد جوهر الصقلى اتصل بالفاطميين فى عهد المعز ، ولكن جاء فى سيرة جوذر أن جوهراً كان كاتباً من كتاب المنصور بالله ، وأنه ظل بين الكتاب فى عهد المعز إلى أن عهد إليه بالفتوحات . وذكر المؤرخون أن العزيز بالله كان أكبر أبناء المعز لدين الله ، وأن الأمير تميم الشاعر المعروف كان ثانى أبنائه ، ولكن مصنف السيرة ذكر ما يدل على أن الأمير تميم كان الأكبر ، وأن العزيز هو الثالث ، وأن المعز صرف ولاية العهد عن تميم لما عرف عن تميم من خلاعة

ومجون ، وأنه جعل ولاية العهد إلى ابنه الثانى عبد الله ؛ فلما توفى هذا بمصر جعلها لابنه الثالث نزار العزيز بالله .

وهنا نقف وقفة قصيرة لنبدى عجبنا من تصرف المعز لدين الله فى هذا الشأن . فعقيدة الاسماعيلية فى تسلسل الامامة تذهب إلى أن الامامة لاتنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين . وإنما تنتقل من والد إلى ابن . وهذه العقيدة أصل من أصول مذهبهم ، وهى دليلهم الوحيد فى خصومتهم مع الشيعة الاثنى عشرية الذين قالوا بامامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق ، فقدذهب الاثنا عشرية إلى أن اسماعيل توفى فى حياة أبيه فانتقلت الامامة إلى أخيه موسى الكاظم على حين قال الاسماعيلية إن النص لا يرجع القهقرى ، ومادام جعفر الصادق قد نص على إمامة اسماعيل فيجب أن ينتقل النص بعد وفاته إلى ابنه محمد بن اسماعيل ولا ينتقل إلى أخيه ، واتخذوا الآية القرآنية الكريمة « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » دليلا لهم على انتقال الامامة . من أب إلى ابن ، وعلى هذا النحو تتسلسل الامامة فهذه العقيدة التى كانت سبباً فى انقسام أتباع جعفر الصادق إلى اسماعيلية وموسوية لم يقم لها المعز لدين الله وزناً ؛ فقد نص على ابنه عبد الله واستودعه الأستاذ جوذر أولا وبعد سبعة أشهر أعلن هذا النص لبعض الدعاة . فحسب عقيدة الاسماعيلية يجب أن ينتقل النص إلى ابن عبد الله ولكن المعز جعلها لابنه نزار مما يدل على أن العقيدة الأولى تطورت ثم نرى الابتعاد عن العقيدة الأولى فى قصة نزار ابن المستنصر وفى تولية عبد المجيد الحافظ ومن بعده من ملوك الفاطميين . وبلغ التهاون بهذه العقيدة إلى أشدها فى عهد العاضد عندما أراد شاور أن يجعل الامامة لدعاة اليمن . وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذا الكتاب بعض حقائق تاريخية وبعض نواحى نظم الحكم عند الفاطميين مما لا نجده فى كتاب آخر .

كذلك نستطيع أن نتخذ « كتاب سيرة جوذر » من الوثائق الأدبية ؛ فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التى خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر ورسائله إليهما ، وقد بلغ عددها فى هذا الكتاب نحو المائة ؛ فالكتاب أشبه بديوان توقيعات للفاطميين . ولا أكاد أعرف كتاباً جمع توقيعات الفاطميين سوى هذا الكتاب وكتاب « المجالس والمسايرات » للقاضى النعمان الذى جمع فيه مؤلفه بعض توقيعات

المعز إليه ، وكتاب السجلات المستنصرية الذى جمع فيه رسائل المستنصر إلى الصليحيين باليمن . وتمتاز ما فى سيرة جوذر من توقيعات أنها تطلعنا على بعض النواحى الاجتماعية والتاريخية . أما فى المجالس والمسايرات فهى فى العقائد وآداب الدعوة ، وكذلك ماجاء فى السجلات المستنصرية ، كما أجد فى سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور بالله وخطبة المنصور فى نعى القائم وخطبة المعز فى نعى المنصور . وهكذا نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية فى العصر الفاطمى ، ولا سيما فى تلك الفترة الغامضة فترة الدولة الفاطمية بالغرب .

وأرجو أن أوفق لتقديم هذا الكتاب قريباً للمطبعة ، ولا سيما بعد أن استطعت الحصول على نسختين منه .

محمد كامل حسين
بكلية الآداب

بين السياسة والأدب

نبذ الفنون ذوو السياسة فانتحى عنهم رجال الفن فى محرابِ

وتمتعوا باسم التخصص بالذى شاءوا يسيرهم نظام الغاب

بخسوا حقوق المخلصين وناوءوا ما هيأ الأحرار من أسباب

حتى إذا ما أسكتوهم عنوة بعثوا بكل مشعوذ ومحاب

فرشوا له بالياسمين طريقه فاختال وهو مطية الآراب

نصب لأغراض الساسة مادرى الغ رض الذى يُبْغَى من الأنصاب

يا طارئين على السياسة ، إنها فنُّ الحياة ، تراض بالآداب

إن الفنون لكالسياسة من حيا ة الناس زاد الناس فى الأحقاب

لم يفصم المستهترون عراهما إلا وآل مصيرُهم لخراب

ابراهيم عوبديا

هجس

من أنا ؟ ما الوجود ؟ ما وطرى فى حياة تموج بالغسقِ ؟
طال شكى وكاد يقذف بى فى مهاوى العذاب والقلق
فكأنى على شفا جرف والدجى مطبق على أفقى
لست أدرى — وقد تربص بى شبحُ الشك — أين منطلقى !
تتوالى علىَّ فى فِكَرِى صفعات الظنون فى حنق
قد تخاذلت فانجرفت فلم أُلفِ لى مهرباً من الغرق
غير أنى وجدت لى أملاً مستسيغاً ما ليس من خُلُقى
هجس الشك بى فضللنى فرأيت الدهاء فى الحمق
كلما قلت : غايتى وضحت ضيعتنى مجاهل الطرق

ابراهيم عوبديا

دانتي أليجييري

حيـــاته وشخصيته

دانتي أليجييري من أعظم رجال التاريخ . وقد عرف قدره أهل الغرب ، فترجموا مؤلفاته إلى لغاتهم ، ووضعوا عنه مادة غنية من الكتب والشروح والتعليقات . ويقبل كثير من أهل الغرب على تعلم اللغة الايطالية لكى يقرءوا دانتي فى لغته الأولى . ولكنا نحن أهل الشرق العربي لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن دانتي خاصة ، ولا عن الثقافة الايطالية عامة ، وهى تعد من أسس الحضارة الحديثة منذ عصر النهضة . وجدير بنا أن نستيقظ من هذا السبات ، وأن نشارك أهل الغرب فى معرفتهم بالثقافة الايطالية ، وألا نقصر دراستنا على الثقافة الفرنسية أو الانجليزية . ونحن فى هذا الدور من حياتنا أحوج ما نكون إلى التنويع فى معارفنا ، والأخذ عن كنوز الحضارة الانسانية . والعلم ملك للناس جميعاً .

يعتبر دانتي خاتم العصور الوسطى وواضع أساس العصر الحديث على السواء . عاش فى مفترق الطرق ، وتمثلت فيه آثار العصور الوسطى مع تراث العصور القديمة وثقافة العصر الذى عاش فيه . ولا تتمثل هذه التيارات جميعاً فى حياة رجل وشخصيته وفى مؤلفاته ، كما تمثلت فى دانتي .

إن معلوماتنا عن حياته قليلة ، وربما جهلنا كثيراً من التفصيلات ، وواجهتنا فجوات ومتناقضات فى حياته الصاخبة العنيفة . وقد خلق حوله بعض الكتاب جوا من الخيال والأساطير ، وتعسفوا فى دراسته ، وجعلوا منه تمثالا ضخماً . ومع هذا فقد وجد من الكتاب من حاولوا فهمه على حقيقته ، ووصلوا بقدر المستطاع إلى معرفة دانتي الحقيقى الحى ، الذى نطق بحقائق مريرة قاسية عن الأحياء والموتى ، وصور المجتمع الانسانى أصدق تصوير .

ولد دانتي من أسرة طيبة فى فلورنسا عام ١٢٦٥ . وعاش فى حى أرستقراطى

نوعاً . وملكت أسرته بعض الأرض فى الريف . وفقد أمه فى سن مبكرة ، ومات أبوه الذى كان يعمل مسجل عقود ، وهو لم يكتمل بعد دور الشباب . وأحب دانتى بياتريتشى فى سن مبكرة ، وتزوجت غيره وماتت فى شرخ الشباب . وقد أحب غيرها من النساء ، إلا أنها ظلت عنده فى الحياة والممات مصدر الوحى والالهام . واختلط دانتى بالمجتمع الراقى ، واتصل ببرونتو لاتينى وجويدو كافالكانتى اللذين أفاداه فى حياة المجتمع وفى الثقافة . وتلقى دانتى التعليم السائد فى عصره ، واختلف إلى جامعتى بولونيا وبادوا ، وعرف تراث اللاتين وألم بآثار اليونان والشرق القديم ، ودرس تراث العصور الوسطى وثقافة العرب ، وعرف الفلسفة والتاريخ والسياسة واللاهوت والطبيعة والجغرافيا والفلك ، والكيمياء . . . كما أدرك آثار الأدب الايطالى الوليد . وكان دانتى يجد لذة كبيرة فى هذه الدراسات المتنوعة ، التى استعان بها على نسيان كثير من المصاعب والمحن التى واجهته . وتزوج دانتى وأنجب بعض أولاد ، وعاش فى أسرته حياة معقولة . ثم أخذ يهتم بمسائل فلورنسا العامة . واشترك فى حرب الجلف أنصار البابا بزعامة فلورنسا ، ضد الجبلين أنصار الامبراطور بزعامة أريتزو فى موقعة كامبالدينو فى ١٢٨٩ . وكان دانتى فى طليعة قوات فلورنسا ، وأبدى شجاعة فى القتال ، وانتصرت فلورنسا .

دخل دانتى فى سلك مهنة الأطباء والمشتغلين بالعقاقير ، وإن لم يمارس هاتين المهنتين . ثم انتظم فى وظائف الحكومة ، وأصبح عضواً فى مجلس السينوريا فى صيف ١٣٠٠ . وأبدى دانتى وطنية واستقلالا فى الرأى فى الوظائف واللجان التى اشترك فيها . كان قد حدث صدام مسلح بين فرعى حزب الجلف من البيض أنصار فلورنسا والسود أنصار البابا ، فاشترك دانتى فى قرار نفى بعض زعماء الجانبين ، ومن بينهم صديقه كافالكانتى ، وغلب دانتى فى ذلك المصلحة العامة على الاعتبارات الشخصية . وحدث أن طلب البابا بونيفاتشو الثامن ، كعادة البابوات من قبل ، أن تقدم حكومة فلورنسا ١٠٠ فارس لخدمة البابا على الحدود التسكانية . فاتجهت حكومة فلورنسا كالعادة إلى إجابة طلب البابا . ولكن دانتى وقف معارضاً الكثرة ، وحاول أن يضم إليه أهل فلورنسا للدفاع عن مصالحهم فى وجه المطامع البابوية . واتسعت شقة الخلاف بين روما وفلورنسا ؛ فأرسلت حكومة فلورنسا وفداً للوصول مع

البابا إلى اتفاق يصون المصالح ، وكان من أعضائه دانتى . واجه دانتى البابا بشجاعة ولم يذعن ولم يسلم بمطالبه . وأخفق الوفد فى أداء مهمته . وكان البابا قد طلب إلى شارل دى فالوا الأمير الفرنسى أن يسير إلى فلورنسا لكى يعيد إليها السلام . ووصل شارل وانضم إليه أعوانه من حزب السود ، وهزم البيض المخلصون لقضية فلورنسا . وشوهد الخوف والجبن والخنوع ، والتحول السريع لارضاء السيد الجديد ، وسيطر السود على الموقف ، وصدرت أحكام للتنكيل بالمعارضين ومن بينهم دانتى . اتهم دانتى فى يناير ١٣٠٢ بالغش والسرقة وباستخدام سلطة وظيفته فى ابتزاز أموال فلورنسا ، وصودرت أمواله ، وعزل من الوظائف ، وفرضت عليه غرامة ، وتقرر نفيه من فلورنسا مدة سنتين ، وطلب إليه أن يحضر أمام الحكومة فى زمن وجيز ، فلم يستجب دانتى ، فصدر عليه بعد قليل حكم يقضى باحراقه حيا إذا ماوقع فى يد حكومة فلورنسا . كان ذنبه الحقيقى أنه عارض البابا بونيفاتشو وحاول الدفاع عن مصالح وطنه ، فلقى جزاء ذلك حكم النفى والقتل ، وحرم عليه أن يرى وطنه إلى الأبد ، الشئ الذى هو بمثابة نصف الحياة لمن له قلب .

اتصل دانتى بالمنفيين من فلورنسا ، الذين حاولوا أن يتجمعوا ويهاجموا فلورنسا . ولكن دانتى وجد أن هؤلاء المنفيين يسودهم الاضطراب وتعوزهم الوحدة اللازمة للنجاح ، فنأى عنهم وجعل من نفسه حزباً هو العضو الوحيد فيه . وبعد سنوات لاحت بارقة أمل أمام دانتى للرجوع إلى وطنه ؛ إذ قدم إلى إيطاليا هنرى السابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وبدا أنه سيحقق السلام العالمى . كتب إليه دانتى وقابله داعياً إياه إلى تخليص إيطاليا من ويلات الصراع الداخلى ، وإلى تحقيق فكرة الامبراطورية العالمية . قام هنرى ببعض المحاولات السياسية والحربية ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء على فلورنسا ، ومات هنرى فى ١٣١٣ ، وأخفقت فكرة الامبراطورية . وبعد قليل كان من المحتمل أن يعود دانتى إلى فلورنسا ، إذ وافقت حكومتها على رجوعه بشرط أن يعود معترفا بالخطأ وتائبا يطلب الصفح والغفران . فرفض دانتى هذا العرض وقال إنه لن يعود إلى فلورنسا أبداً ، وإنه سيرى الشمس والقمر والكواكب خارج جدرانها ! فحكمت عليه فلورنسا بقطع رأسه إذا وقع فى يديها ، فى الوقت الذى كان لا يزال يأمل فيه أن تضع فلورنسا على رأسه إكليل الغار .

قضى دانتى سنوات طويلة فى حياة المنفى ، وعاش بعض الزمن فقيراً مشرداً وجاع وطلب المأوى ، وما كان أشق على نفسه أن يرتقى سلالم الناس طلبا للقوت ! وما كان أشد ما يجد من مرارة فى الآخرين . استيقظ دانتى وقد خدعه السراب الجميل ، ورأى العالم على حقيقته . وأحس نفسه وحيداً مخنقا . وشعر بمرارة الهزيمة ، وفقد الأهل والأصدقاء والمال والوطن . وعومل معاملة اللصوص والمرتشين والشحاذين ، وسخر منه أهل فلورنسا . وكان سفينة بغير شراع تدفعها الريح العاتية من شاطئ لآخر ، ولسعت ألسنة النار أضالعه ، وأصبح روحاً غاضباً داخل هيكل هش . ولم يبق فى يده سوى حفنة من رماد . ولكن هذا الجزاء القاسى الذى لقيه ، وتلك الآلام والمحن التى انصبت عليه ، كانت عنده بوتقة العبقرية . فقد دانتى كل شئ ، ولكنه كشف عن خبيئة نفسه . وبعد أن منى بمرارة الهزيمة ووحشة الحياة ، وبعد أن عاش بين الظلم والأحقاد والمطامع وحقارة النفوس وضعة الأصول ، أحس بحاجته إلى أن يجيب على ذلك كله بالخلق والابداع . وعمل ليل نهار ، وضرب وطرق ، وكتب ثم مزق الورق ، وتصبب منه العرق ، وبكى ، ونفث روحه فيما كتب . وبذلك خلق الكوميديا ، وانتقم لنفسه الأبية العزيزة المتكبرة ، المثخنة بالجراح .

انتقل دانتى فى شمالى إيطاليا ، ولقى أحياناً الترحاب وحسن الوفادة عند الأمراء والنبلاء ، وعمل سكرتيراً ونديما ودبلوماسيا لكى يكسب القوت . ولكنه لم يستطع دائماً أن يمضى فى خدمة الأمراء والأغنياء فكان ينأى عنهم . وعاش بعض الوقت فى فيرونا ومانتوا ، واستقر به المقام أخيراً فى رافنا ، حيث لقى الترحاب عند أميرها جويدو نوفلو . وقام فى آخر حياته بسفارة بين رافنا والبندقية لازالة بعض أسباب الخلاف بينهما . وفى طريق العودة أصيب دانتى بالملاريا ، ولم يتحمل جسمه المرض فمات فى سبتمبر ١٣٢١ ، ودفنته رافنا باحتفال لائق وكرمت ذكراه وأقامت له نصبا .

بعد وقت غير طويل أدركت فلورنسا ما ارتكبته فى حق ابنها العبقرى ، وأرادت أن تكفر عن خطيئتها ، فعهدت إلى بعض الأساتذة ومن بينهم أحد أبناء دانتى ثم بوكاتشو فى إلقاء محاضرات عامة عن دانتى وآثاره ، وطبعت كتبه وتداولها الناس ، وجرت أشعاره على ألسنة الناس ، وتغنوا بها ، وكشفوا فيها عما خالج نفوسهم واضطرم بين جوانحهم . وحاولت فلورنسا أن تنقل

جدث الشاعر لكى تدفنه فى وطنه باحتفال مهيب . ولكن رافنا عارضت أشد المعارضة . وبذلت فلورنسا جهوداً طويلة فى ذلك السبيل . وتوسط البابا وسعى ميكلانجلو فى ذلك ، ولكن بغير دون . وخشى أهل رافنا أن تنجح جهود فلورنسا فى المستقبل للحصول على جدث دانتى ، فأخفاه أحد القسس فى مكان مجهول ، ولم يكشف عنه إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وشيدت فلورنسا قبراً رمزيا لدانتى فى كنيسة الصليب المقدس ، مكون من تابوت فارغ ، يعلوه تمثال جالس لدانتى وقد توج رأسه باكليل الغار ؛ وعلى يمين التابوت تمثال سيدة ترمز إلى إيطاليا ، التى تشير إلى الكلمات المحفورة بأسفل تمثال دانتى قائلة « مجدوا الشاعر الأعظم » ، تلك الكلمات التى قالها دانتى فى فرجيل ، وأرادت فلورنسا أن تقولها الآن فى دانتى . وعلى يسار التابوت تمثال سيدة أخرى ترمز إلى فلورنسا ، وهى منحنية على التابوت تبكى ، وستظل دائماً تبكى ، جزاء ما ارتكبت فى حق ابنها البار من نكران للجميل .

إن شخصية دانتى من الشخصيات النادرة . وإذا ما قلبناها على وجوهها واوليناها بالبحث والدراسة ، وجدنا فى ثناياها ما يبعث على التأمل والتفكير ، وما يثير فى النفس الاعجاب والتقدير ، ولقينا فى تفصيلاتها مرآة الحياة وصورة الانسان العبقرى .

كان دانتى رجلا متعدد الملكات ، وتبدو عليه مظاهر التعارض : كان يختلط بجماعات الشباب المرح ويسخر ويغنى ويعزف الموسيقى ويبكى ويقول الشعر ويرسم ، ويزهد فى الحياة ويتمتع بالملذات ، ويبدو خجولا وديعاً صامتاً ، ومع ذلك فهو جرئ شجاع لا يرهب شيئاً . يبدو أحياناً وثنيا وأحياناً مسيحيا ، وتارة بابويا وأخرى إمبراطوريا . والمرأة عنده نصف إلهة تقوده إلى الفضيلة وإلى الله ، وهى أيضاً صخرة أذلت كبرياءه وقادته إلى الشيطان . ويبدو فى أوقات كثيرة صارم المظهر جدى الملامح ، ويلوح شامخاً متكبراً مشغولا بأفكار عالية ومسائل خطيرة . كان يحارب ويشتغل بالسياسة ويقضى الساعات الطويلة عاكفاً على القراءة والدرس ، فاذا ما تعب خرج إلى أحضان الطبيعة الساحرة ، فنظر إلى السماء الصافية وإلى السحاب المتغير وإلى المرج الأخضر ، وجلس تحت الشجرة العالية وقطف الأزهار الجميلة ، والتهم الفاكهة الناضجة وارتشف النبيذ المعتق ، وعطف على الأطفال والمرضى والمحتاجين ، ونظر فى

الصباح إلى نوافذ الحسناوات وترقب العذارى فى الكنائس . إن ما يبدو عليه من التعارض ما هو إلا مظهر خارجى . والعباقرة فوق التقسيمات والتعارض وتتعاون آراؤهم وثقافتهم وإحساساتهم على خلق عبقريتهم . هذه الاتجاهات المتنوعة موجودة فى الحياة الواقعة ، وهى من خصائص النفوس الغنية الخصبة . فى دانتى عنصر من كل شئ ، وجمع فى ذهنه الماضى والحاضر والمستقبل ، واستطاع أن يجعل من نفسه ومن آثاره رمزاً رائعاً للبشرية كلها .

امتاز دانتى بالكبرياء ومدح النفس . كان معتزا بنفسه إلى درجة تجعله لا يكاد يحقد على الآخرين ، وارتفع إلى المستوى الذى جعله لا يرى فى البشر ما يحسدهم عليه . وكل رجال الفن الذين أهينوا وجرحت نفوسهم ، عملوا لتأكيد ما منع عنهم ، وكسبوا ثقة هائلة بنفوسهم واعتزوا بملكاتهم ، وأعلنوا عنها بالقول والعمل والابداع . وكأن الفنان يقول لمن أساءوا إليه : إنكم لا تريدوننى ولا تقدروننى ، وإنى أبدو أمامكم شخصاً نكرة ، وليس عندى مال ولا سلطان ولست من أسرة بارزة ، ومع ذلك فسيأتى اليوم الذى ترغمون فيه على تقديرى وتسعون إلى سعياً ، وسوف أقوم بخلق ما تعجزون عنه جميعاً ، وتدركون أى رسالة انطوت عليها نفسى . هكذا أحس دانتى عندما عاش فى المنفى وعندما أخفق وجاع وطلب المأوى ، وعندما أخذ يكتب الكوميديا . أحس دانتى بعدم التناسب الهائل بين عبقريته وبين حياته الواقعة . وأخذ يمدح نفسه بنفسه ، وإن كان قد اعترف بأن ذلك لا يرضيه كل الرضا . قال دانتى إنه نابغة ، وإن أسلوبه الجميل يضعه فى مستوى هوميروس وفرجيل ، وإن كلماته ستصبح غذاء للناس ، وإنه صلب لا يعبأ بالمصاعب ، وإنه يتشرف بحياة المنفى ، ونعت الكوميديا بالمقدسة ، وسمى نفسه بالحمل وسط الثعالب ، كما تكلم عن شجاعته فى معركة كامبالدينو . كان دانتى يطمع فى أن تتوجه فلورنسا بتاج الشعراء . وبدا كأنه نبى أعزل وملك بغير عرش . كان يحس أنه أعلى من الملوك والبابوات الذين عجزوا عن أداء واجبهم وأصبحوا لا يصلحون للقيام بالمهام الخطيرة التى ألقيت على كواهلهم المتداعية . تكلم دانتى كامبراطور وبابا ، ولعن البابوات والملوك . وتكلم باسم إيطاليا والعالم . فعل ذلك لايمانه المطلق بأنه شاعر عبقرى ، واعتبر أن مجد الشعراء أعظم من مجد الملوك والبابوات .. واعتنق رأى أرسطو القائل بسيادة من له

التفوق العقلى . وجعل نفسه مساوياً للقديسين . وأراد فى الكوميديا أن ينير السبيل أمام الانسانية ، وأن يضع كتاباً مقدساً جديداً يعلم البشر .

امتاز دانتى بحساسية مرهفة ، جعلته شديد التأثر قادراً على البكاء حتى يفقد الوعى . وعنده غرفة الدموع . ويقول إن البكاء يجعله هشا متهالكا لا يكاد يعرفه أحد ، ومن فرط الحزن يتحرك رأسه كأنه شئ ثقيل لا حياة فيه ، وتتعب عيناه من البكاء حتى تعجزان عن البكاء . بكى عندما أحب بياتريتشى ، وبكى عندما فقدها بسرعة . وعندما تقدم فى السن لم ينقطع عن البكاء ، فكان يبكى فى كهولته كما يبكى الطفل . وبكى عندما أهين شرفه ، وعندما جاع وطلب المأوى ،وعندما عجز عن تحقيق أمانيه . وبكى بكل حواسه عندما كتب الكوميديا . يبكى باولو فى الجحيم ولا يتكلم ، فكان بكاؤه هو الكلام . وبكى دانتى عندما شارك المعذبين فى آلامهم . وبكى عندما عاتبته بياتريتشى فى الأعراف . استخدم دانتى حساسيته المرهفة ودموعه المنهمرة فى خلق الكوميديا . والبكاء ميزة ونعمة . ولا يمكن أن يكون البكاء غير جدير بالعظماء . وما أقسى بكاء الرجل المتكبر !

أما الحب عند دانتى فهو الحياة . وما كان يستطيع أن يعيش بغير الحب . أهم حب عنده هو حب بياتريتشى . أحبها فى سن مبكرة . ولم تبادله الحب . لم تستطع بياتريتشى أن تشاركه فى شعوره لحسن الحظ . ولم تقدر هذا الشاب النحيل المرهف الاحساس المنهمك فى دراساته ، والذى لم يكن من أسرة بارزة ذات جاه أو سلطان ، ولم تتكهن بالمصير العظيم الذى ينتظره ، وسخرت من صدقه وإخلاصه ، وكانت تتقول عليه مع أترابها من بنات الأسر الأرستقراطية . كانت بياتريتشى تعقل الألسنة عندما تحى الناس بإيماءة من رأسها ، ولا تجرؤ الأعين على النظر إليها ، وتبدو كأنها ملك جاء من السماء إلى الأرض لكى يفعل العجائب . قال دانتى فى الحياة الجديدة إنه سيقول عنها ما لم يقله رجل فى امرأة من قبل . وقد بر دانتى بوعده . بعد حياة المنفى والجوع والتشرد لم يجد أمامه سوى ذكرى الشباب السعيد ، وبدت أمامه بياتريتشى كنجمة الصبح فى صحراء الحياة ، فهى تهب لنجدته فى الكوميديا وترسل إليه فرجيل وترجوه أن يسارع لانقاذه من الصعوبات التى اعترضت طريقه . ويذكره فرجيل بها دائماً ، لكى يشجعه

على اجتياز الجحيم والأعراف . وتبدو بياتريتشى لدانتى فى الأعراف امرأة مكتملة ناضجة . وتندد به لأنه كان فى شبابه يمتاز بالصفات النبيلة والعادات الطيبة ، ثم انحرف عن السبيل القويم واتبع الهوى . وتعنفه لأنه خانها وأحب نساء أخريات . يصورها غاضبة ثائرة كما يرسمها ضاحكة مسرورة . يقول إن عينيها الضاحكتين ألقتاه فى أفكار متلاحقة ، وإن ابتسامتها جعلته سعيداً وهو فى النار ، وإن كلماتها ضاحكة وصوتها ساحر يصدح كآلة موسيقية . وهى امرأة ممشوقة القوام فارعة القد تنظر إلى الأفق فيضطرب عند مرآها . وهى تطهر نفسه من أدران الجسد وتلهبه بنيرانها وتقوده فى السموات ، وتجعله قادراً على رؤية الله . وبذلك تحيله إلى عابد متصوف عاشق يقترب من المحب الأول .

ومع هذا فقد أحب دانتى غيرها من النساء . بكى دانتى عندما ماتت بياتريتشى ، ولكنه كان فى حاجة ملحة إلى الحب . التقى عن طريق دموعه بغيرها من النساء . ولا شئ يؤدى إلى الحب كما تؤدى الدموع مع الدموع والزفرات مع الزفرات . يقول عن فيولتا إنها جعلته يتشوق ويتنهد عند مرأى الورود . وأحب المرأة الصخرة وارتمى تحت قدميها ، وظلت باردة أمامه كالصخر الذى يغرقه فى أعماق البحر بعد النوء الشديد . وكان دانتى بذلك يعشق الجمال أينما وجد ، ويستجيب لنداء القلب . وما قلبه إلا جزء من الطبيعة يطير مع الرياح ، ويهتز مع النسيم ، وينساب مع منحدرات المياه ، ويشارك الثلج فى نصاعته فوق قمم الجبال العالية ، ويستيقظ مع الربيع الضاحك المزدهر .

كان دانتى شجاعاً جريئاً لا يرهب شيئاً فى الدفاع عن رأيه ووطنه . عارض سياسة بونيفاتشو الثامن وحاول الدفاع عن مصالح فلورنسا . وضع دانتى نفسه بذلك أمام قوة هائلة ما كان يستطيع إنسان أن يقف فى سبيلها . ولم تكن هناك مقارنة بين قوة الرجلين فى المجتمع . ومع ذلك فقد وقف الرجلان وجهاً لوجه ، ونظر كل منهما للآخر محاولا تغليب فكرته . وقف البابا غاضباً متكبراً ، ووقف دانتى جريئاً شجاعاً . قال البابا : «لماذا أنتم معاندون ؟ اخضعوا لى ، إننى لا غرض لى سوى توطيد السلام فى فلورنسا . » ولكن دانتى كان يعرف أنه يريد توطيد السلام البابوى ، فلم يسلم ولم يذعن . تشابه الرجلان فى الصلابة والقوة والطموح والكبرياء ، ولكنهما اختلفا

فى كثير من التفصيلات . كان بونيفاتشو رجلا قويا بمركزه وسلطانه غنيا بالذهب ، وحوله الأمراء والنبلاء ، فى حين لم يكن لدانتى ثروة ولا مركز ولا سلطان على الأمراء . كانت قوة دانتى لا تزال خافية فى قلبه وعقله وفنه. أراد بونيفاتشو أن يسيطر على الملوك والأمراء ، على حين سيحكم دانتى فى عليائه على الملوك والأباطرة والبابوات . وكان كل منهما خياليا : أراد بونيفاتشو أن يحقق المثالية الدينية التى تنتهى إلى شخصه ويجعل فى يده السلطة الدينية والزمنية على السواء ، على حين كانت مثالية دانتى ترمى إلى جعل الامبراطور صاحب السلطة الزمنية والبابا صاحب السلطة الدينية . وشعر كل منهما أنه ملهم من الله ، بونيفاتشو كبابا ودانتى كشاعر . واحتقر بونيفاتشو رجل الدين والسياسة والمال صفة الشاعر فى دانتى . ولم يعترف دانتى للبابا المرتشى بصفته الدينية . لم يعترف دانتى بغير قوة الروح والفن . واحتفظ كل منهما بصفات موطنه . فامتاز بونيفاتشو بالجفاف والصرامة والغلظة والتعصب السائد فى رومانيا . على عكس دانتى الذى امتاز بصفات الفلورنسى رجل الأدب والثقافة والذوق والفن . وكذلك اختلف الرجلان فى المظهر ؛ فكان بونيفاتشو شيخاً فوق الستين ، ملىء الجسم طويل القامة ، فى حين لم يتجاوز دانتى السادسة والثلاثين ، وكان ذا قامة متوسطة وجسم نحيف . على أن كليهما امتاز بجبهة عريضة وعيون براقة لامعة . واتهم الاثنان بالرشوة والاختلاس ، وإن كان بونيفاتشو وحده هو المتهم . ولم يتصور البابا أن دانتى سيضعه فى الجحيم وسيقول عنه إنه القسيس الأعظم وبأنه مغتصب الكرسى البابوى وبأنه رجل جشع منافق . هكذا وقف دانتى أمام بونيفاتشو بعزم لا يلين وشجاعة لا توصف . ولقى دانتى جزاء ذلك النفى والفاقة والتشريد ، ثم كسب الخلود .

ونجد دانتى ساخطاً أشد السخط على المجتمع الذى عاش فيه . وكثيرا ما بدا له العالم مليئاً بالأخطاء وخلواً من كل فضيلة . واعتبر أعمال أكثر الناس تؤدى إلى انهيار المجتمع . حتى أعمال الملوك ورجال الدين أثارت فى نفسه السخط والاشمئزاز . اعتبر دانتى الرجال متغيرين متقلبين . وهم حيوانات بهيمية وأشبه بالموتى . والمبشرون والوعاظ حيوانات ، والقسس يملأون بطونهم ، والبابا متهم وخارج عن تعاليم الكنيسة . والايطاليون لصوص سفلة وعبيد

أذلاء . والفرنسيون متغطرسون والأسبان بخلاء . . . وبذلك لم يكد شيء يرضيه فى زمانه . والحاضر عنده شر وفوضى ومدعاة للخجل . وكان دانتى يتطلع إلى ملجأ آمن فى زوايا الماضى وثنايا المستقبل . لم يرض عظماء الرجال عن الواقع لأنهم أدركوا باحساسهم المرهف ما لم يدركه الغير ، ورأوا بعيونهم الصافية ما عجز أهل العصر عن رؤيته . وليس من الانصاف أن نعتبر دانتى متشائماً . هو فوق التشاؤم والتفاؤل . وجهلاء أولئك الذين ينقدون الساخطين على المجتمع . إنهم يريدون أن يرضى العظماء بما يقنعون هم به . لم يكن سخط دانتى تشاؤماً ويأساً من الحياة ، ولكنه كان حافزاً للاصلاح والتغيير . وسيحاول دانتى التأثير فى الناس عن طريق الشعر الرائع والفن الرفيع .

والوطنية من صفات دانتى الواضحة . كثيراً ما تكلم عن إيطاليا : عن مدنها وقراها وأنهارها وجبالها وكنائسها وأبراجها وأهلها . وأعطى صورة جغرافية لكثير من أماكنها ، وحدد ارتباط الأشخاص بتلك الأماكن . ولم يحب دانتى مكاناً فى الأرض كما أحب إيطاليا وفلورنسا خاصة . فايطاليا عنده حديقة الامبراطورية ومركز العالم . وفلورنسا هى الوطن النبيل والمدينة العظيمة على نهر الأرنو الجميل . وهى المكان الجميل الذى نام فيه كالحمل . ومع ذلك لم يتكلم دانتى بقساوة وعنف كما تكلم عن فلورنسا وإيطاليا . قال عن فلورنسا إنها غابة حزينة بائسة ، وإنها مليئة بالحسد والكبرياء والبخل ، وحكومتها سيئة مضطربة ، وأهلها لصوص ووحوش ، وقد أحبوا الذهب إلى درجة أن فلورنسا أصبحت جديرة بأن تسمى مدينة الشيطان . ويقول إن نساء فلورنسا الفاجرات يخرجن ولا حياء لهن لاغراء الناس ، بابراز أثديهن التى يجب أن تحفظ لارضاع أبنائهن الأبرياء . وعندما أخفق الامبراطور هنرى السابع أمام أسوارها ازداد غضب دانتى ، ونعتها بذئبة الأرنو وبالأفعى وبالعنزة المريضة . وكذلك لعن دانتى كثيراً من أنحاء إيطاليا . فلا يكاد يوجد بها مكان إلا يثير غضبه ويفتح فى جسمه جرحاً قديماً . أرض إيطاليا ملأى بالأشواك والعواصف والجرائم والآثام . وهى الأرض الخائنة الخبيثة الحسود العاصية . يقول إن لوكّا مليئة بالمزيفين ، وبستويا موطن الوحوش ، وأهل بيزا ذئاب ، وبولونيا ملأى بالبخلاء والوصوليين ، وأهل جنوا خلو من كل كياسة ويستحقون الاذلال .

لم يوجد من لعن شعبه كما فعل دانتى . وإن من يلقى هذه اللعنات لابد أن يكون قد تألم كثيراً فأفرغ ما فى نفسه . والسباب واللعنات فن جميل ولغة عنيفة كان يفهمها الشعب الايطالى صاحب العواطف الحارة والتعبيرات العنيفة . ولا تدل اللعنات دائماً على السفه والبذاءة بقدر ما تدل على الحب والحرص على المصلحة . ولم يكره دانتى فلورنسا وإيطاليا ، بل هو على العكس كان حبه لها أعظم من أن يحمله على الوقوف أمام أخطائهما موقف المتفرج المحايد. أحب بلاده وأساءه ما كانت عليه من الفوضى والانقسام ولم يستطع السكوت على ما كانت تعانيه . استمد دانتى من ويلات إيطاليا ونكباتها وحياً لشعوره الوطنى الصميم ، وصدرت عنه روح وطنية عالية فى سبابه ولعناته . خاطب دانتى إيطاليا بلفظ إيطاليا . وربما كان أول من أدرك قيمة وحدتها السياسية. قال : « يا إيطاليا ! أيتها العبدة الذليلة ، ياسفينة بغير شراع وبغير ملاح وسط العاصفة الهوجاء . أنظرى إلى سواحلك وأطرافك واجمعيها إلى صدرك . أيعرف أى جزء من جسدك معنى السلام والهدوء؟ » وخاطب الله طالباً الصفح والمغفرة ، وسأله هل أدار نظره عن إيطاليا ، وماذا يخبئ لها فى طيات المستقبل من الأحداث؟ بهذا أصبح دانتى نبى إيطاليا ، وأعطى وطنه حلماً سياسيا مستمدا من الواقع ومن غير الواقع ، من الماضى ومن المستقبل ، من الدموع والأسى والزفرات الممتزجة بالأمل والرجاء . وظلت صيحاته تجرى فى دماء الايطاليين ، وأصبحت كلماته بمثابة إنجيل الوطنية الايطالية فى القرن التاسع عشر .

إن دانتى قمة شاهقة مشرفة على البشرية من عليائها خلال القرون . إنه كالمارد بين الأقزام من البشر . إنه نار ونور . إنه حى خالد . إنه أكثر حياة من أولئك الموتى الذين يظنون أنفسهم أحياء وما هم بأحياء .

حسن عثمان

LA STRUCTURE SOCIALE ET L'EXPRESSION ARTISTIQUE

HILDE ZALOSCER

البناء الاجتماعى والتعبير الفنى*

ليست مسألة العلاقات بين البناء الاجتماعى والتعبير الفنى مسألة عسيرة فحسب ، بل هى مسألة متشعبة الأطراف ، ونقط الاتصال بين الاثنين متعددة متنوعة . والسؤال الذى يتسائله رجل العصر الحديث هو : ما موقف الفنان نفسه من السياسة الراهنة ، أو بالأصح من النزاع بين الطبقات ؟ ولا شك أن تلك المشكلة من أدق المشاكل التى عرضت للثقافة الحديثة ، وقد عالجها كتاب كثيرون ، فأضحت مشكلة قائمة لا سبيل إلى إنكارها ، ألا وهى مشكلة الالتزام فى الفن l'art engagé هل للفن أن يشترك فى الصراع الاجتماعى ؟ إن المسألة تدور حول الفنان وما عليه من واجبات نحو المجتمع . ولكنا لانريد أن نتناول هذه المسألة ، بل مدار بحثنا هو : هل يجد الفنان نفسه وأثره ملتزمين من غير أن يكون له فى ذلك الالتزام أى اختيار ؟ أو بمعنى أصح هل هناك قوة جبرية تطغى على إرادة الفنان فتجعل منه ومن أثره أساسين من أسس النظام الاجتماعى ؟ ومن الجلى أن مسألة واجب الفنان حيال المجتمع مسألة رغبة أكثر منها مشكلة ، ولا يمكن أن يعالجها وأن يحكم فيها إلا من اقتنع بحقيقتها كل الاقتناع ، ولا يمكن أن يكون البحث فيها بحثاً موضوعيا بحتاً ، بل لابد أن يكون بحثاً أثارته بل فرضته نزعة قوية ورغبة ملحة . وفى استطاعتنا من ناحية أخرى أن نتناول المسألة من الوجهة التاريخية ، وأن نرى متى بدأ الفنان يشعر بالضرورة الملحة إلى تلك المشكلة ، وأن نبحث الظروف التى لازمت هذه الحركة والتى حملت الفنان على الالتزام ، مفضلا الاشتراك فى الصراع الاجتماعى على الانطواء داخل برجه العاجى . ونحن نميل إلى الظن بأن بحث هذه المسألة ، يكشف عن نوع من التقيد والارتباط

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

فى سلوك الفنان ، غير أننا قد ذكرنا أن الذى يهمنا فى بحثنا هذا ليس هو سلوك الفنان ، أو نفسية الرجل ، بل العلاقة بين الصورة الفنية نفسها والبناء الاجتماعى ، أو بعبارة أخرى كيف يؤثر المجتمع ونظامه الاقتصادى فى التعبير الفنى .

والبحوث التى كتبت فى تلك المسألة كثيرة ، والآراء فيها متباينة عديدة . وقد تجابهت فيها نظريات ومذاهب مختلفة ، مستمدة من عقائد سياسية متنوعة . وكل كاتب حسب عقيدته ينتصر للنزعة المادية أو ينتصر للنزعة الروحية . فالفن فى نظر الماركسيين ليس إلا بناء شيد على الاقتصاد ، وهو ظاهرة متصلة أوثق الاتصال بالاقتصاد ، فى حين يدعو غير الماركسيين إلى حرية الفكر المطلقة .

والعداء الدائم بين الماديين والمثاليين مازال مستحكما ، ومازال النزاع بينهم قائماً على صورة تحكمية يقينية . فأتباع ماركس يعتبرون المادة المقدمة الأولى ، أما الفكر والضمير والشعور ، فليست إلا أشكالا راقية من أشكال المادة . ونحن نلاحظ هنا أن توكيد الأولوية للمادة واعتبار الظروف المادية والاجتماعية من العوامل الخلاقة للصور الفنية ، ليسا كل شئ ، بل هناك حقيقة أخرى ، وهى أن المواد والأدوات التى استخدمت فى إنشاء الأثر الفنى ذات تأثير كبير فى ذلك الأثر . فالمادية المتطرفة تعتبر المواد والأدوات التى يصطنعها الفنان مصدراً للفن إذا أضيفت الضرورة والفائدة إليها . وليست بنا حاجة إلى الوقوف طويلا عند ذلك الرأى ، وإن كان طريفاً حقا ، لأنه إن دلنا على شئ فعلى أن الدفاع عنه لا يمكن أن يقوم إلا على أساس متين من الجهل المطبق للمعلومات الحقة ، والآثار التى تسوق الدليل على نقيض ذلك الرأى ثابتة قوية ، وليست أقل عدداً من الآثار التى يستند الماديون إليها فى مذهبهم .

أما الروحيون فيؤكدون أن كل تغير وتطور فى سير التاريخ البشرى إنما مصدره روحى . وهم يؤمنون بسيادة الفكر لا بسيادة المادة . ويقدمون دليلا على مايذهبون إليه من تفوق الفكرة على المادة عدداً من الآثار يقرب من نصف عدد الآثار القائمة كلها . فالمسألة كما ترى ليست تدور حول معرفة الصلة الحقيقية بين التعبير الفنى والبناء الاجتماعى ، بل حول الاستدلال بالآثار الفنية

لاثبات مذهب من المذاهب . ونحن نحب ألا نوغل فى بحث تلك المسألة التى لا سبيل إلى إيجاد حل لها . فالمسألة مسألة إيمان وعقيدة ، ونحن لا نريد أن نقف منها موقف الحكم . غير أننا ندرك تمام الادراك أن المسائل العلمية لا تحل بنوع الموقف الذى نتخذه إزاءها ، وإلا كانت النتيجة معلومة ، ولم نكن فى حاجة إلى الشروع فى البحث . ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن من حقنا أن نأخذ على هذه الدراسات كلها (١) ، ضعف إحاطتها بالآثار ، هذا إذا لم نأخذ عليها بعدها عن الصدق والايمان . وإذ كنا غير راضين عن أى بحث من تلك البحوث ، نجد أنفسنا مضطرين إلى أن ندرس المسألة بأنفسنا ، غير منحازين إلى أية عقيدة فلسفية ، بل ساعين إلى تحليل الوقائع واستكشاف القوانين التى تنظمها . ولن نستدل بالآثار لاثبات رأينا ، بل سنترك الآثار تجلو الطريق لنا بنفسها . ونحن إذ نتناول المسألة بالبحث إنما نتناولها باعتبارها داخلة فى حدود اختصاصنا .

والنزاع بين المادة والروح قائم أبداً ، وليس من أمل فى فضه . غير أننا إذا حاولنا أن نتناول الموضوع بصفتنا من الاخصائيين فيه ، وأن نعالجه بحرية فكر غير خاضعين لأية سيطرة مذهبية ، ربما استطعنا أن نتبين الوجهة الصحيحة من تلك المشكلة . إننا ننفر من المؤلفات أمثال « السلسلة الذهبية » لأبتون سينكلير ، والترف والرأسمالية لفرنر سمبارت ، حيث تساق الوقائع المادية على اعتبار أنها الأدلة المرغوب فيها . كما أننا ننفر من تلك المؤلفات التى يرتفع بها كتابها عن الأرض محلقين فى عالم خفى صوفى . ونحب أن ندلى هنا برأى لنا وهو أنه لا يجوز أن نعالج تلك المسائل الكبرى وأن نشرع فى البحث عن حل لها ، إلا إذا توافرت لدينا جميع المعلومات الخاصة بها ، كما أنه لا يحق لنا أن نأخذ فى تفسير ظواهرها إلا إذا أحطنا بأولياتها . وإلا فكيف نناقش ظاهرة من الظواهر إذا لم نكن على علم بمختلف وجوهها ؛ فلا نفسر خلود الروح مثلا إلا بعد أن يقول علماء الفيزيولوجيا والسيكولوجيا فيها كلمتهم

---

(١) أبتون سنكلير فى « السلسلة الذهبية » ، وكذلك فرنر سمبارت فى « الترف والرأسمالية » ، يدافعان عن المادية التاريخية بالطريقة المذهبية الضيقة . أما فرانز ليهيل فى تطور الفنون وكذلك كل أتباع المدرسة الشكلية الألمانية ، فيعتبرون الأثر الفنى قيمة لا علاقة لها بالانسان والحياة .

الأخيرة . وإنى أميل إلى الاعتقاد بأن أقل معرفة فى مجال العلوم الوضعية قد تؤدى إلى الايضاح أكثر مما يؤدى إليه الجدل ، بالغاً من الحدة مابلغ . فمثل تلك المسائل الفنية لا يمكن أن يهتدى إلى حلها علماء الاجتماع بل أرباب المهنة أنفسهم ، الذين يبدءون بدراسة الأثر الفنى نفسه على أنه مقدمة مباشرة معرضين فرضاً عن كل فكرة مذهبية .

وفى عام ١٩٢٦ عندما شرعنا لأول مرة فى دراسة تلك المسألة ، كنا متأثرين بالجو السياسى الذى كان يسود النمسا ، وما كان يعتمل فى تلك البلاد من غليان واضطراب ؛ فالأحداث السياسية والثورة الاجتماعية على وجه الخصوص ، قد أرهفت مشاعرنا وساقتنا إلى مراجعة القيم القديمة والعلاقات السابقة مراجعة تامة ، فجعل كل منا يسائل نفسه عن مدى اشتراكه وهو من أهل الفن فى ذلك البناء الاجتماعى . والحق أقول إن رغبتنا المتزايدة فى معرفة وجه الحقيقة فى تلك المسألة ، دفعتنا إلى الوقوف موقف السلب منها .

وكان مثلنا فى ذلك مثل عالم النبات الذى يقبل على الزهرة ليتعرف إلى أسرتها ، فيضمها إليها ، معرضاً عن كل اعتبار من اعتبارات الجمال فيها ، غير مهتم إلا بتحليلها تحليلا علميا منظما . كذلك حاولنا نحن أن نحلل الأثر الفنى . ولم تكن متوافرة لدينا طريقة البحث فى ذلك النوع من المسائل ، مع أننا نعتقد أن معرفة طريقة البحث تعتبر أمراً جوهريا للوصول إلى الحل المنشود .

وقد تبين لنا أن كل أثر فنى يأتلف من نوعين من القيم ، جوهرية فى ذاتها ، ولكنها متفرقة فى مجموع الأثر . فمن ناحية نلاحظ القيم الموضوعية وهى التى لا علاقة لها بارادة الفنان ، وإنما بمقتضيات العصر والتزامات الحياة ، ومن ناحية أخرى نجد القيم الذاتية البحتة ، وهى التى تتصل أوثق الاتصال بالفرد نفسه . وهكذا نرى أن غرض المعمار أو فائدته ، أو موضوع اللوحة الفنية أو الأثر الأدبى ، نرى أن ذلك ليس خاصة من خصائص الفنان الدخيلة بل نتيجة العوامل الخارجية . من تلك العوامل الخارجية نجد فى أول الأمر الحاجة المباشرة التى تمليها الضرورة ، والتى يكون لذوق العصر وميوله دخل فيها . فالقلاع التى شيدت فى الجزء الأول من العصر الوسيط ، تأثرت بأسلوب الحياة فى ذلك الوقت ، كما تأثرت بنظامه الاجتماعى والاقتصادى . فللمجتمع هنا تأثير مباشر . وفائدة الأثر الفنى تتوقف كلها على ما تحتاج وتضطر إليه

الطبقة التى تبدى الرغبة فى إنشائه . ولما تطور المجتمع حوالى القرن الثالث عشر وارتقت المراتب الكهنوتية ، تلاشت القلاع وحلت محلها الكاتدرائية الغوطية بكل ما فيها من روعة . ثم استبدلت بالكاتدرائية فيما بعد مساكن أفراد طبقة جديدة تولت الحكم ، هى طبقة البرجوازية . وهكذا كان كل تغير يطرأ على الطبقة الحاكمة ، يصحبه تغير فى أغراض المعار وفوائده . والموضوعات التى تعالجها الفنون التشكيلية أو الآثار الأدبية ، تكشف عن ذوق المجتمع وميوله وإن كانت لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع . فملاحم البطولة كان يقرؤها سكان القلاع . أما الأساطير الذهبية فكان يسمر بها الرهبان فى صوامعهم . وتصور لنا قصص بترارك عقلية أولئك الأشخاص وقد أصبحت « علمانية » ، لفرط ما كانوا يقبلون على لوحات جيوتو وأتباعه . وهكذا نستطيع أو نؤكد ، ونحن لا نخشى لائمة لائم على تحيز منا أو تحزب ، أن الأثر الفنى لا يتصل اتصالا وثيقاً بالبناء الاجتماعى فحسب بل يكاد يتوقف عليه إلى حد ما . والنظرية هنا بلا شك لا تقبل من الوجهة العكسية ، إى أن روح الكاتدرائية مثلا هو الذى ساعد على خلق مجتمع متدين(١) .

ومع ذلك فلا تعتبر مهمة المعار ، كما لا تعتبر محتويات الأثر الفنى التشكيلى أو الأدبى ، هى كل القيم؛ فالى جانب تلك القيم الموضوعية غير المستقلة ، توجد ناحية الأسلوب فى الأثر . وتلك الناحية — ناحية الشكل — هى التى تميز أثراً عن أثر سواء أكانا متفقين فى العصر أو فى الموضوع ، وهى التى تظهر شخصية الفنان ، فيبدو كل أثر كأنه محاولة فريدة فى نوعها ، وإن كان شأنه شأن غيره من الآثار من حيث اتصاله بعوامل خارجية واحدة . وتلك القيم — غير الموضوعية — تضيف إلى الجانب العملى البحت فى الأثر ، عنصراً من الصعب تعريفه وهو الذى اعتدنا أن نطلق عليه اسم العنصر الفنى . فنحن إذا تركنا ناحية النفع فى كل من المعار واللوحة المرسومة والنغم الموسيقى ، وجدنا أن المعار مجموعة منظمة متناسقة متناسبة ، وأن اللوحة الفنية هى

(١) مع أن فوسيون يقول بأسلوب فكه إنه توجد حالات خاصة قد يؤثر فيها الفن فى المجتمع . حتى إنه يقال إن الشخصيات التى رسمها فان ديك قد حولت أخلاق سكان انجلترا التى كانت بعد على الفطرة . « ويمكننا أن نتساءل : ألم يكن الفنان قد ساعد على خلق بيئة اجتماعية محطما بذلك نظرية كانت شائعة بين الجميع ؟ »

مجموعة متسجمة من الألوان ، وأن النغم هو نوع من الانشاء والائتلاف .

وليس أيسر من إقامة الدليل على أن القيم الموضوعية خاضعة لقوانين ورغبات الطبقة الحاكمة . أما القيم الذاتية — القيم الفنية — فعلاقتها بتلك الطبقة معقدة غير جلية . ولا ريب أن الغرض من بناء ما قد يؤثر فى صيغة وأسلوب ذلك البناء . فمن الصعب مثلا تشييد قلعة غرضها حماية سكانها ، على الصورة الضعيفة التى تشيد عليها الكاتدرائيات الغوطية بفتحات نوافذها الواسعة ، غير أن تلك الاعتبارات لا تعدو أن تكون سطحية . وإلا فهل فى استطاعتنا أن نفسر بالأسباب والدوافع العملية البحتة تلك المحاولات البطيئة المتصلة التى بذلها الفن الرومانى فى سبيل الوصول إلى الفن الستينى ؟ أو أن نفسر التغير الذى طرأ فى نهاية القرن العاشر على الفن الشرقى عندما استبدل بالجامع العربى ذى الأعمدة التى لا حصر لها الجامع التركى ذى القبة الواحدة الوسيطة ؟ ومع ذلك فنحن نعرف أن الغرض من المعار ظل كما هو ، أما الذى تغير فعقلية الناس .

وإذا كان المجتمع الأرستقراطى فى القرن السابع عشر قد استخدم الفن الستينى فى التعبير عما كان يجول فى خاطره من طموح وميل إلى العظمة ، حتى إننا لا نكاد نعرف عصراً خضع الفن فيه للمجتمع كما خضع فى ذلك الوقت ، إلى درجة أن أطلق على الأساليب المتنوعة أسماء الحكام — فنحن نعلم أيضاً أن استكشاف خط البصر الألبرتى la perspective albertienne الذى أحدث ثورة فى فن التصوير فى عصر النهضة ، إنما هو نتيجة بحوث حرة قام بها بعض كبار المفكرين ! واستكشاف خط البصر أو استكشاف التصوير الزيتى شأنهما شأن إبداع الفن الستينى ، يرجع الفضل فيهما إلى الشعور بالحاجة إلى تعبير جديد ، وإلى تقدم العقل تقدماً جديداً .

وتخضع بعض القيم فى الأثر الفنى لقوانين البناء الاجتماعى الضرورية ، ومقتضياته . وبحكم اتصال الأثر ،ذلك الاتصال الوثيق بالمجتمع ، نراه يعبر عن حاجات أفراده وعن ميولهم . ونحن نستطيع أن نجمل ما تقدم فى العبارة الآتية وهى أن بعض النظم الاقتصادية تقابلها قيم فنية . غير أننا لا يمكننا أن ننكر تحرر بعض الآثار من كل عامل خارجى ؛ إذ لا يفسر قوة الاضاءة عند رمبراندت والعنف عند برنينى والعاطفية عند ميكيل أنجلو إلا العامل الذاتى .

ومع ذلك يخيل إلينا أننا لا نلمس الخضوع فى الناحية الشكلية والجمالية من الأثر ، بل الذى نلمسه هو نوع من التوازى فى الفكرة . كما لو كانت الفكرة الاقتصادية والفكرة الجمالية متأثرين بقوة أخرى تملى القوانين نفسها على الناحيتين الاقتصادية والفنية . فنجد آثار العقل الواحد فى طريقة الحياز وفى الأسلوب الفنى ، كما أننا نلحظ التأليف نفسه والنسق ذاته فى كليهما ، مما يجعلنا نفترض وجود قوة عليا خارجة .

إن تحليل كاتدرائية غوطية أو تحليل أثر من آثار ذلك العصر ، ليظهران لنا أسلوباً واحداً ومميزات واحدة ، سواء أكان الأثر بنائيا أو تشكيلياً . إن العناصر المختلفة التى يأتلف منها الأثر ، لا تبرز واضحة فى مجموع الأثر ، ولا وجود لها باعتبارها عناصر مستقلة فردية ، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض بحيث تختفى وراء الأثر فى جملته . إن الآثار المعمارية ليست مكونة من عدة طوابق يعلو بعضها بعضا ، أو من أبراج ونوافذ وأبواب — وهى العناصر التى يتركب منها البناء — وليست الآثار النحتية مكونة من أجسام كل منها مركب من أطراف وجذع ورأس ، على اعتبار أنها عناصر مستقلة بارزة ، وإنما كل تلك العناصر يتصل بعضها ببعض اتصالا قويا بحيث تفقد كل قيمة ذاتية . فالحدود بين تلك العناصر مطموسة غير واضحة ، والخطوط بينها تجمعها وتؤلف بينها بدلا من أن تفصلها ، والظلال تحجب المفاصل ، والأضواء تجمع عنصرين مستقلين . وهكذا لا يبدو الأثر مكوناً من عناصر مضاف بعضها إلى بعض ، بل معجوناً فى مادة موحدة . والخط الفاصل الذى يحيط بكل عنصر ليميزه عن العنصر المجاور له ، قد اختفى وحل محله نقش يجمع بدلا من أن يزرق ويفرق حيث توجد وحدة حقيقية . فالضوء والظلال والخطوط ترسم على الأثر نقوشاً مجردة ، بحيث يقوم نظام مقصود معين بدلا من قانون الأمر الواقع . فنجد الأثر وقد جرت عليه شبكة متصلة من الخطوط ، تنشئ فيه قيما شكلية بعد أن تقضى على القيمة الذاتية المستقلة لكل عنصر . ولم تنقد كل تلك العناصر المكونة وجودها الخاص باختفاء حدودها ، بل خضعت كلها لقاعدة مركزية . فهى كلها مركزة حول محور وسيط يسود الأثر جاعلا من العناصر الأخرى زخارف ثانوية . وهكذا يتميز كل أثر غوطى بمنشأة مركزية ، ولا يستطيع أى عنصر من عناصر البناء أن يضاهى جلال الزخرف المركزى.

فالباب الضخم الذى يعلوه رسم الوردة ، يفرض نفسه فرضاً على الجناحين الجانبيين ، كما أن البرج يسود البناء كله . فالجزء المركزى يحجب باقى العناصر بعد أن تكون قد فقدت كيانها الخاص . وتلاشى العنصر الفردى ينتهى بخضوع ذلك العنصر لفكرة رئيسية . فهذا النوع من التصميم الذى درس أعمق دراسة وروعى بدقة فى الأثر الفنى ، ألا يصور النظام الاجتماعى فى ذلك العصر ؟ ألا نجد فى الفلسفة تلك الفكرة نفسها عن الأثر الفنى؟ وإنكار القيمة الفردية فى الأثر الفنى ألا يقابل تلاشى الفرد فى « مدينة الله » *Civitas Dei* حيث يختفى كيان الفرد داخل نظام الكنيسة الروحى ؟ أولا يعبر عن فكرة إنشاء الأديرة حيث لا توجد ملكية خاصة أو حرية فردية ، وحيث يخضع المجموع لفكرة رئيسية تسيطر عليه ؟ أولا تنعكس صورة النظام الاجتماعى على مرآة النظام الفنى ؟ فقد بلغ أولئك القوم من إنكار الذات مبلغاً جعلهم يخفون شخصية الفنان ، فلا يبقى إلا الأثر الذى شيد تمجيداً لله ، فى حين يظل اسم صاحبه فى عالم المجهول . والروح التى سادت ذلك المجتمع وجعلته يخضع لنظام تنعدم فيه القيمة الفردية ، هى نفسها التى أبدعت تلك الآثار التى يختفى فيها العنصر الفردى وراء البناء المركزى . وتبرز حاجة المجتمع إلى الخضوع لنظام مركزى كما هى الحال فى الأثر الفنى . والمقارنة بين الاثنين طريفة تغرى بالتعقب والبحث . ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم من ظواهر ظاهرة أخرى هى الرغبة فى تجريد المادة من قيمتها الخاصة وإخضاعها لقانون جديد . فالحجر والخشب قد فقدا ثقلهما أو بتعبير آخر تخلصا من مادتهما ، ونفخت فيهما روح جديدة . فنرى الكاتدرائية الغوطية ترتفع معارضة لقوانين الثقل ، وكأنما روح إلهى ينبعث فى الحجر فيحركه وهو أشد المواد البنائية جموداً وثقلا . وكأنما الفكرة والارادة قد تغلبتا على المادة ، شأن البناء فى ذلك شأن الانسان .

وآثار العصر التالى تختلف فى روحها كل الاختلاف . وهذا الاختلاف يساعدنا على تفهم المشكلة التى عرضناها فى الجزء الأول من مقالنا . قلنا إن الأثر الغوطى كان يتميز بالرخاوة والتعقيد فى البناء ، وبقتل العناصر الفردية ، والانطلاق الميتافيزيقى ، فى حين أن الأثر الفنى فى عصر النهضة يبدو واضح المعالم جلى العناصر ، سهل التحليل ، مع القوة والتكتل فى المظهر الخارجى .

فهو يثقل على الأرض ويتكئ عليها ، وفى الوقت ذاته يبرز بجلاء كل العناصر التى يأتلف منها . ونرى طوابق واضحة الأركان والخطوط يعلو بعضها بعضاً ، وفى كل طابق تبرز النافذة بروزاً . ومن السهل إدراك تصميم البناء ، كما أن من السهل فصل العناصر بعضها عن بعض . ولكل عنصر كيان مستقل ، تحده خطوط تميزه من العنصر المجاور له والمتكافئ معه . لا يسود جزء على جزء . كل طابق عولج بنفس المعيار ، وكل نافذة لا تقل قيمة عن النافذة التى تليها ، وتقوم كل العناصر فى مجموع الأثر بالدور نفسه . وتلك القاعدة توجد فى النحت كما توجد فى التصوير . فالكائن البشرى والمنظر الطبيعى يتكونان من أجزاء متباينة ، واضحة المعالم ، منفصلة ، لكل جزء منها كيانه المستقل وحياته الخاصة . فالرأس هو مجموع أجزائه ، كما أن البناء هو مجموع العناصر البنائية ، والمنظر الطبيعى هو مجموع عناصره الخاصة من أشجار وسحب وصخور الخ . ولا يمكننا أن نعتبر أى عنصر من تلك العناصر المكونة ذا قيمة يسود بها على غيره . وفى حين أننا نلمس فى الأثر الغوطى الارتباط والخضوع وانعدام الكيان المستقل لمختلف العناصر ، نلمح هنا الميل إلى الاحتفاظ بالقيمة الذاتية الكاملة لكل عنصر . وتلك الفكرة الفنية التى تحدد كل عنصر وتبرزه وتعترف باستقلال وجوده ، وتأخذ بمبدأ المساواة فى القيم ، يقابلها نظام اجتماعى جديد . فاشتراكية العصور الوسيطة قد حلت محلها فردية العصر الحديث . وقد قال برخاردت Burchardt (١) : « إن أعظم استكشاف تم فى عصر النهضة ، والذى يعتبر بحق فاتحة العصر الحديث ، هو استكشاف الفرد . ففى ذلك العصر ثاب الفرد إلى نفسه . فهل هو ضرب من المصادفة أن يرجع تاريخ أول رسم شخصى portrait إلى ذلك العصر ؟ وأن يستشعر الانسان حاجة إلى الاحتفاظ بمعالم وجهه وتخليد شخصه ؟ وللمرة الأولى يكشف عصر النهضة عن حقيقة أسماء فنانيه ، فنرى رجل العصر الحديث يختم أثره مزهواً بتوقيع اسمه فى نهايته(٢) .

وقد حدث كذلك انقلاب تام داخل النظام الاجتماعى فى ذلك العصر .

---

(١) جاكوب بورخاردت : الثقافة فى عصر النهضة .

(٢) ظهر أول توقيع لفنان فى القرن الخامس عشر وهو توقيع ريتشى على البليروفون Belerophon

فاستبدل بالنظام الكنسى المنقسم إلى مراتب وطبقات نظاماً قريبا إلى الديمقراطية ، وأصبح لكل فئة من الصناع نقابة لها قوانينها وامتيازاتها التى ترعى حقوقها وتحميها ، وقد انتشرت الحاجة إلى الانفراد بصفة من الصفات ، وقد حلت محل مملكة الله سلطة البشر وسلطان المدن التى كان لكل منها رئيسها وفنها وأسلوبها . وقد امحى نظام الطبقات ،وأصبح السيد إنساناً كسائر الناس . وتتميز تلك البرجوازية الناشئة بروح ديمقراطية مشبعة بالحرية والفردية. فأسرة ميديسى وأسرة سفورزا وأسرة بيكولوميني ، نجد أفرادها من رجال المال الذين أثروا ، أو من الطبقة البرجوازية المتمتعة بميزات الأشراف . والعصر الذى عاشوا فيه والنظام الاقتصادى الذى ساروا عليه يحملان كما يحمل الفن فى أيامهم طابع ذوقهم وميولهم . ونلمس فى الأثر الصورة نفسها للقيم والعناصر التى نجدها فى المجتمع . فالعصر الذى ينشئ مجتمعاً من المجتمعات يحدد أيضاً نوع الأثر الفنى . وفى استطاعتنا أن نستطرد ببحثنا خلال مختلف العصور ، فنجد فى إنشاء الأثر من الفن الشاذ عودة إلى الأثر فى العصر الغوطى ، كما نلاحظ أن النزعة الفردية والنزعة الانسانية اللتين تميز بهما عصر النهضة قد أهملتا إيذاناً بالرجوع إلى المجتمع الدينى وانعدم استقلال الفرد وحريته لتسود دكتاتورية أصحاب النظام اليسوعى ، وتنتشر محاكم التفتيش ، وتنشب الحرب الثلاثينية .

أما فى الشرق فالفكرة البنائية فى الجامع العربى تعبر أحسن تعبير عن النظام الاجتماعى لشعب مازال على حالة البداوة ، وما برح محتفظاً بروح البداوة . وفكرة العربى فى الزمن والفضاء والحياة ، تتصل اتصالا بعيداً بحياة الحرية التى لا يحدها حد ، وبذلك الفضاء الشاسع المترامى الأطراف . هل حياة القبيلة أثر من آثار البداوة ؟ وهل البداوة نفسها تتأثر بالفضاء والزمن اللذين لا حدود لها ؟ وعلى أية حال يمثل الجامع العربى أصدق التمثيل روح القبيلة ، فنجد عدداً من الأعمدة لا نهاية لها تمتد فى مختلف الجهات متساوية الأبعاد ، ليس لها مركز ظاهر ، اللهم إلا القبلة التى تعين مكان الامام فى الصلاة ، ولا يوجد أى عنصر يفسد اتساق تلك الأعمدة المتساوية المتشابهة ، التى تنم على قيمة الفرد فى القبيلة . وقد طرأ تغير ظاهر مفاجئ على الجامع العربى بدأ أثره فى الجامع التركى ، وذلك عندما توقف الغزو الروحى وبدأ التفكير فى إنشاء الدول العظمى .

والجامع التركى مكون من مكعبات صلبة ضخمة تبدو كأنها جمعت تحت قبة رئيسية ، هى المركز البارز الواضح فى منظمة تمتد إلى الحد الأقصى . ألسنا نرى فى ذلك المبدأ نفسه الذى قامت عليه الملكية التركية سواء أكان ذلك أثناء حكم المغول أو السلاجقة أو العثمانيين . وكأن تلك الدول العظيمة التى يديرها رجل واحد أوتى من القوة ما هو فوق طاقة البشر ، قد جسمت فى تلك الأبنية حيث تبدو الأشكال الهندسية كتلا صلبة خاضعة لقبة مركزية . وكما أن تلك الدول تتعارض مع نظام اقتصادى قائم وتثبت أمامه بفضل قوة رجل واحد ، كذلك فى المعمار ، يكاد نظام فوق طاقة البشر يحفظ التوازن بين مختلف العناصر .

وهكذا تأخذ مسألة العلاقة بين البناء الاجتماعى والتعبير الفنى مظهراً جديداً . فالآثار الفنية ، والنظرات المختلفة للصورة الفنية ، ليست نتيجة مباشرة للبيئة الاقتصادية ، كما أنها ليست صادرة عن قوة خارجة عن نطاق الحياة الانسانية ، وعن نطاق حياة الفنانين المبدعين لها على وجه الخصوص . ولكنها متصلة بالحياة التى منها خرجت ؛ إذ أن البيئة الاجتماعية والاقتصادية لا تنتج أنواعاً مختلفة من النظم الاجتماعية فحسب ، بل هى تنتج كذلك رجالا ذوى حساسية متباينة ، وتنتج لغة فنية خاصة ، وحالة شعورية فريدة .

لا شك أن الدولة الكابيتية والكنيسة كان لهما معاً تأثير حاسم فى نمو وشيوع الكاتدرائية الغوطية . ولكن النظام الاجتماعى وحده لا يمكننا أن نعتبره عاملا حاسماً فى حد ذاته . إن له أثره بلا شك ولكن بطريقة خفية ، وقد يكون تأثيره أحياناً عكسيا ؛ لأن الجنس والبيئة والنظام الاقتصادى أمور لا تلائم دائماً أى نوع من أنواع الفكر والعقل . ويقول فوسيون فى ذلك(١) : « إن اللحظة الروحية فى حياتنا لا يشترط أن تتفق والضرورة التاريخية ، بل قد تتعارض معها » .

فمن الجائز إذن أن نقول إن تاريخ الذوق يصور أصدق التصوير آراء اجتماعية . والفنان بأسلوب تعبيره الخاص يعتبر بحق من العصر الذى يعيش فيه ، منسجما فى جوه ، معبراً تمام التعبير عن آماله ونزعاته وحالاته النفسية .

---

(١) هـ. فوسيون : حياة الأشكال ، باريس ١٩٣٦ .

غير أن هناك ظاهرة عكسية ، يقاطع الفنان فيها عصره ليلتجئ بالماضى أو ليعيش فى مستقبل وهمى . وهكذا نجد مسألة تضارب المادة مع الروح مسألة لا حل لها فيما يتعلق بالفن ، وليس فى الامكان أن نقطع بحل حاسم . ولكن الشئ الذى نستطيع أن نؤكده هو أن هناك صلات بين المادة والروح ، غير أن تلك الصلات تظهر بطرق متنوعة . كما نستطيع أن نؤكد أن قوة جبرية يخضع لها الشكل والأسلوب ، وفى الوقت نفسه نسلم بوجود الحرية التامة . على أننا لم نكن نسعى إلى حل تلك المشكلة الخالدة . وكل ما قصدنا إليه هو إلقاء بعض الضوء على مسألة تتعارض فيها المذاهب بحدة وجفاء . ونحن نجد فى ذلك الصراع حالتين من حالات الشعور عند الانسان تصطدمان وكل واحدة منهما تناضل فى سبيل مثل أعلى ، وتحاول أن تعثر فى الماضى على دليل لذلك المثل الأعلى . والتعبير الفنى تتنازعه اتجاهات متعارضة عند الانسان ، وأحلام متباينة تتراءى للفرد فى وسط المجتمع . فالأمر ينحصر فى حالتين : إما فرار من الواقع إلى فضاء الخيال والفوضى ، و إما استسلام للحقيقة الواقعة . وهكذا ترتسم مظاهر الانسان المتنوعة ومظاهر إنتاجه العقلى . ونجد الفن أحياناً خلال بعض العصور متفقاً كل الاتفاق مع روح العصر فنلمس حينئذ انسجاماً باهراً بين البناء الاجتماعى و إنشاء الأثر ، ويصبح الفنان سجلا دقيقاً لأحداث عصره وروحه . وقد يقف الفنان أحياناً من بيئته موقف المعارض المنكر لها ، فيتجه الأسلوب والتعبير الفنى اتجاهاً مناقضاً لاتجاهات العصر ، ويبدع الفنان آثاراً مقطوعة الصلة بالمجتمع . إنه لموقف شاذ ، ولكننا نرى أمثالا كثيرة له فى ثنايا التاريخ . والمسألة معقدة أكثر مما يظن أصحاب اليقين . إن الروابط التى تصل عالم الأساليب والأشكال بعالم الحياة ليست بسيطة يسيرة الفهم ، بل لا تكاد تكون دائماً هى نفسها . ونحن نميل إلى أن تستبدل بكلمة « الخضوع » dépendance كلمة التداخل interdépendance .

لا شك أن الأثر الفنى ليس شيئاً مستقلا ، كما يعتقد بعض الجاهلين ، ذوى التفكير الراق . إن الصلات بين الفن والحياة عديدة متنوعة وترتبط بمختلف طبقات الحياة . وكثيراً ما تكون صلة الأثر الفنى بالحياة الجماعية صلة قوية إلى حد أنها تصور قوانين ذلك الوسط أصدق تصوير . ويكون للأثر عندئذ دور فى الحياة ، فهو واقعى وتأثره بالحياة واضح أكيد . ومن

ناحية أخرى يتنزه الفن عن كل مذهب سياسى واقتصادى مدفوعاً بروح تصوفية هى روح الانطلاق والحرية . وهو لا يعتبر مستقلا عن الأوضاع الاجتماعية بل هو ينكرها تمام الانكار ، ويحمل دائماً عليها : يعارض كل قانون ، ويمارس كل حرية مأخوذاً بها إلى حد يبتعد به عن كل تعلق مادى بالمظهر . .

وهذا التباين فى الانسان يسبب تعدد الظواهر وتنوعها ، ويمنع أن تطبق على الانسان قوانين حاسمة ذات صيغة مجردة .

ونحب أن نختتم بحثنا بكلمة أخرى لفوسيون ، قال : « فى عالم الأشكال الفنية الخيالى ، حيث يكون الفنان هو فى الوقت نفسه المهندس والميكانيكى ، وعالم الطبيعة والكيميائى ، والعالم النفسى والمؤرخ ، يسير الشكل دائماً ، تحت تأثير التحولات ، من الضرورة إلى الحرية . »

هيلديه زالوشر

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

رحلة !

سرتُ لا أدري أسارٍ أنا حقًّا أم مُقيمْ
ما الذى أبحث عنه ما لنفسى فى وجوم
لستُ أدرى غيرَ أنى كنتُ إنسانًا يهيم

قلتُ مشدوهًا أقلبى عاده الداءُ القديمْ
صَحوةٌ من صحواتِ الشعر ما زالتْ تُقيمْ
ما الذى أيقظها اليومَ وكانت لا تريمْ

أترى أرجو نعيمًا أينَ لى هذا النعيمْ
أترى أطلبُ نَبعًا فاضَ من قلبٍ كريمْ
أترى أبحثُ عن معنىً لدى فَهْمٍ سقيم

أى شيءٍ قد دعانى فتولانى حنينْ ؟
وهفا قلبى لشئٍ أهو خمرى والعيون
أىُّ ظلٍّ قد تولّى أىُّ عيشٍ لن يكون

قلتُ : ألقـــاها ولكن قلتُ : وَيْحى مَن تكون
قلتُ : أحسـوها ولكن قلتُ : ما فيها ظنـون
قلتُ : أشعـــارى ولكن قلتُ : لم تَبْقَ شجون

عدتُ من سيرى حزينًا فى وجـــومٍ وسكون
قلت للنفس كفى يا نفس ما هـذا الجنـون
أسرَى من غير قصْدٍ وأسَـــانٍ لا تبين

محمد عبده عزام

الحفائر الملكية بحلوان

عندما تحقق حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم حفظه الله أهمية المنطقة الواقعة بجرى عزبة الوالدة — شمال حلوان الحمامات الغربى— من الوجهة الأثرية ، بادر فأصدر أمره الكريم لمصلحة الآثار المصرية للبدء فوراً فى إجراء حفريات علمية منظمة على نفقة جلالته الخاصة . وسيبقى علم الآثار المصرية مدينا إلى الأبد لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول لتفضله بتمويل هذه الحفائر .

وكان ندبى لادارة هذه الحفائر شرفاً لا مزيد عليه . ولا يقتصر تشجيع جلالة الملك على تمويل الحفائر فحسب ، ولكن جلالته يتفضل من وقت لآخر بزيارة المنطقة وإبداء النصح وسديد التوجيه .

وبالرغم مما قد أصاب هذه المنطقة من التخريب والتدمير الذى يشاهد فى جميع المناطق الأثرية ، كانت النتائج التى وصلنا إليها بعد العمل فيها فى المواسم الخمسة السابقة باهرة من كل الوجوه ، سربها من زار الحفائر من رجال الآثار وغيرهم من مصريين وأجانب .

والجزء الذى كشفناه حتى الآن يعد يسيراً بالقياس إلى المنطقة كلها ، وقد تم كشف ما يقرب من خمسة آلاف مقبرة بين كبيرة وصغيرة ، عثرنا فيها على مجموعة قيمة من الآثار ، بعضها جديد علينا لم ير أحد من علماء الآثار نظيرا له من قبل ، كما وفقنا لمعالم جديدة فى فن المعمار خالفت ما كان معروفاً ومسلماً به من قبل فى النظريات الأثرية .

ويرجع تاريخ هذه المنطقة إلى الأسرتين الأولى والثانية ، بدليل أسماء ملوك الأسرة الأولى وبعض ملوك الأسرة الثانية التى عثرنا عليها مكتوبة

على سدادات الأوانى الفخارية ، وكذلك على بعض الأوانى الفخارية والحجرية من مختلف الأنواع كالاردواز والالباستر . كما عثرنا على قطع صغيرة من الفيانس حفر عليها اسم الملك وطعمت بمادة غريبة . وعثرنا على أسماء بعض كبار الموظفين الذين كانوا فى خدمة ملوك هذا العصر .

الموسم الأول

بدئ القيام باجراء هذه الحفائر فى ٨ يوليه سنة ١٩٤٢ فى المنطقة الواقعة على بعد كيلو مترين شمال عزبة الوالدة بالقرب من حلوان ، وانتهى منها فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وقد تمكنا من الكشف عن ٧٣٥ مقبرة من بينها عدة مقابر كبيرة الحجم ، وجد معظمها منهوباً ، ولم ينج من النهب والسلب سوى ١٤١ مقبرة . ولكن أمكننا بوساطة الحفر المنظم أن نعثر على مجموعة من أوان وجرار من المرمر والشست (الاردواز) والحجر الجيرى الأصفر والبريشيا والدبرويت والدولميت والفخار ؛ وهى من الطراز الذى يعثر عليه عادة فى مقابر الأسرة الأولى ، يستثنى من ذلك بعض نماذج جديدة لم يعثر عليها من قبل .

وعثر فى المقابر السليمة على كثير من عقود الخرز فى رقاب الهياكل البشرية للموتى ، كما وجدت أساور من الخرز فى معاصمها . وعثرنا فى بعض المقابر على أساور من العاج والصوان والاردواز وبعض آثار من العاج كقطع اللعب ورموز الآلهة ودبابيس الشعر ، وقطع من العاج تمثل رءوس حيوانات لها أجسام طويلة ربما كانت نماذج لمناجل أو مما يستعمل فى الطقوس الدينية . كما عثرنا على مجموعة كبيرة من السكاكين والنصال المصنوعة من (الظران) الصوان وبعض الأبر والآلات المصنوعة من النحاس .

وإذا سرنا على هدى أشكال المقابر وما عثرنا عليه فيها فاننا لا نتردد فى العودة بتاريخ هذه الجبانة إلى الأسرة الأولى . على أننا قد وجدنا اسم الملك سمرخت (سابع ملوك هذه الأسرة) منقوشاً على إناءين من الفخار .

الموسم الثانى

بدأ هذا الموسم فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، وانتهى فى ٣١ مايو سنة ١٩٤٤ . وبدأنا العمل فى الجزء الأول من الموسم فى المساحة الواقعة غربى المنطقة التى حفرت فى الموسم الأول عام ١٩٤٢ . وكان العمل فى الجزء الثانى من الموسم يجرى فى المنطقة الواقعة شمالى عزبة الوالدة ، كما قمنا بعمل مجسات غربى مدينة حلوان الحمامات وفى بعض أمكنة فى الصحراء الواقعة شمال حلوان الغربى .

أما المنطقة التى دار فيها العمل فى الجزء الأول من الموسم الذى امتد من أول نوفمبر إلى ١٥ فبراير ، فقد عثر فيها على ١٢٦٦ مقبرة ، عثرنا فيها على بعض مظاهر جديدة لم تكن مألوفة لدينا فى أمثال مقابر هذا العصر — عصر الأسرة الأولى — إذ وجدنا أشياء كثيرة من أشكال متنوعة كالأوانى والأوعية المصنوعة من المرمر والشست (الاردواز) والجرانيت وحجر البريشيا وحجر السربنتين والبازلت والبرونز والعاج ، وبعض عقود مصنوعة من حبات القاشانى الأخضر والأصداف والعاج والأحجار نصف الكريمة مثل العقيق الأحمر والأبيض واللازورد وحجر الدم ، وبعض أساور من العاج وأصداف اللؤلؤ والشست والصوان والخرز المختلف الأنواع والألوان ، وبعض سكاكين من الصوان بينها أكبر سكين من هذا الصنف عثر عليها حتى الآن إذ بلغ طولها ٤٨ سنتيمترا .

أما المنطقة التى دارت فيها الحفائر فى الجزء الثانى من الموسم الذى امتد من ١٦ فبراير سنة ١٩٤٤ إلى ٣١ مايو — وقد حظيت المنطقة بشرف اختيار جلالة الملك الشخصى لها خلال تشرفها بزيارة جلالته — فقد كشفنا فيها ٣٦٦ مقبرة بعضها كبير الحجم . وتبين لنا أن إحدى هذه المقابر كانت لأحد كبار الموظفين فى عصر الملك عدج إيب سادس ملوك الاسرة الأولى . وفى مقبرة أخرى عثرنا على جزء من سدادة فخار عليها اسم الملك دن ، خامس ملوك الاسرة الأولى . وفى مقبرتين أخريين عثرنا على إناءين من الفخار عليهما اسم الملك كا ، الذى يظن أنه حكم مصر قبل عصر الأسرة الأولى .

وتدل جميع هذه القرائن بوضوح على أن تاريخ هذه المنطقة يرجع إلى الأسرة الأولى (٣٢٠٠ ق . م .) وبذلك يزول كل شك خالج العلماء الذين كانوا يشكون فى هذا التاريخ . والآثار التى عثر عليها فى هذه المقابر تشبه تلك التى عثر عليها فى المنطقة الأولى إذا استثنينا الآثار الفخارية ؛ فقد كانت هذه الآثار تتكون من أوان من الفخار كبيرة الحجم ذات أشكال ، وهى وإن كانت لا تخرج عن الأشكال المعروفة من قبل فانها تفوق من حيث عظم الحجم والضخامة كل ما وجد من قبل . وفى بعض المقابر الكبيرة وجدت صوامع حقيقية كبيرة للحبوب من الفخار ، وهذه هى المرة الأولى التى عثر فيها على مثل هذه الصوامع الفخارية . وقد اتضح أن بعض هذه الصوامع كان يحتوى على حبوب أمكن تمييز القمح من بينها .

أما المجسات التى أجريت إلى الغرب من مدينة حلوان الحمامات فقد كشفت عن بعض مبان من العصر الرومانى ، بعضها شاهق الارتفاع ، وربما كانت قد بنيت على أنقاض مساكن أقدم منها عهداً . وإنه لمن المهم إجراء حفائر فى هذه المنطقة ؛ إذ يحتمل أن تكشف فيها آثار المدينة التى كان يعيش فيها أهالى الأسرة الأولى ، وهم الذين دفنوا فى الجبانة الكبيرة المجاورة التى يسير الحفر فيها . وفى إحدى الجهات التى أجريت فيها المجسات إلى الشمال الغربى من حلوان فى قلب الصحراء وجدت مقابر من عصر الأسرة الأولى أعيد استعمالها فى العصر الرومانى . وفى جهة أخرى كشف عن مقبرة من عصر الدولة الوسطى وجدنا فيها قطعاً من الفخار ورقائق من الذهب .

الموسم الثالث

بدىء العمل فى هذا الموسم فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ وانتهى فى اليوم الحادى والثلاثين من مايو سنة ١٩٤٥ . وتبين من الحفر أن المقابر من عصر الأسرتين الأولى والثانية ، ما عدا القليل جدا منها ، مما يرجع عهده إما إلى عصر ما قبل الأسرات أو إلى عصور متأخرة . وكشف فى هذا الموسم عن ٨٤٧ مقبرة كان من بينها ١٤٩ مقبرة سليمة لم تمس .

والآثار التى عثر عليها فى هذه المقابر على جانب كبير من الأهمية ، بل بعضها قذ فى نوعه تماماً .

وفيما يلى أهم النتائج التى أمكن الوصول إليها :

أولا : إن العثور على مقابر كبيرة ذات غرف للدفن مبنية من الحجر الجيرى الأبيض هى ودرجها — السلالم — لهو شئ جديد تماماً فى الأسرة الأولى . فجدران غرف الدفن فى هذه المقابر بنيت كلها بكتل كبيرة من الحجر الأبيض وصفت الواحدة منها إلى جانب الأخرى دون التقيد بترتيبها فى صفوف أو مداميك ، كما غطيت أرضية الغرف بالأحجار أيضاً . أما قبل هذا الكشف فان كل ما كنا نعرفه كان مقصورا على أن استعمال الأحجار يبدأ فى منتصف الأسرة الأولى فى تغطية أرض حجرة الدفن بمقبرة الملك دن ، وكذلك فى آخر الأسرة الثانية حيث بنيت حجرة الدفن بمقبرة الملك خاسخموى من الحجر الجيرى .

ثانياً : إن الفتحتين اللتين توجدان فى أعلى السدود الحجرية كان المعروف عنهما أنهما يمكنان روح الميت من رؤية الأقارب والكهنة أثناء تأديتهم الطقوس الدينية . كما أنه قيل إن الفتحتين ربما استعملتا لينفذ منهما شذى البخور المحروق فتستنشقه روح الميت . ولكن وجود هذه الفتحات فى الجزء الأسفل واختلاف عددها — فهى فى بعض الأحيان فتحة واحدة وفى البعض الآخر فتحتان ، وفى مثل آخر أربع فتحات — كل ذلك يدل على تفسير أكثر احتمالا ، وهو أنها كانت تستعمل لتساعد على تثبيت الحبال حول هذه السدود الحجرية كى يستطاع تدليتها إلى حيث تسد باب المقبرة سدا محكما . وقد وجدت هذه الفتحات أيضاً فى الأجزاء العلوية من كتل أحجار استعملت فى بناء الجدران الأربعة لحجرة دفن إحدى هذه المقابر .

ثالثاً : فى إحدى مقابر عصر متأخر ، ربما كان عصر الأسرة الحادية عشرة ، وجد تابوت مبنى من حجارة مهندمة ، وكتب على جدرانه الداخلية نص يميط اللثام عن مسألة كان يجرى البحث عنها منذ بدأت الحفائر فى سنة ١٩٤٢ ألا وهى اسم المدينة التى كانت هذه المنطقة جبانة لها . فهذه المدينة هى هليوبوليس (أون القديمة) ، وكانت على الأرجح مدينة ازدهرت قبل أن تنشأ مدينة منفيس على الجانب الآخر من النيل . ولكن هذه المدينة اختفت

فى طيات الماضى البعيد إلى أن أعيد بناؤها بعد ذلك فى المكان الذى تقوم فيه مسلة « عين شمس » المطرية حتى الآن .

رابعاً : إن المعروف أن مكان اللوح الجنازى فى المقبرة يقع فى الحائط الغربى مواجها الشرق . ولكن هذه الحفائر كشفت عن مقبرة يرجع عهدها إلى الأسرة الثانية لها درج منحوت فى الصخر يفضى إلى حجرة منحوتة تحت الأرض . ووجد فى سقف هذه المقبرة من الجهة الغربية فتحة مستطيلة وضع فيها لوح جنازى تتجه نقوشه إلى أسفل مواجهة الميت، كما وجدت مقبرة أخرى بها لوح موضوع بالشكل نفسه . وهذه الفتحة التى توضع فيها اللوحة الجنازية تحفر رأسيا ابتداء من سطح الأرض ويوضع فى نهايتها اللوح الجنازى فوق مكان الميت . ووجدت فتحات مشابهة فى أربع مقابر أخرى . هذا الكشف يلقى ضوءاً جديداً على الديانة فى هذا العصر ؛ إذ أنه يشير إلى أن روح صاحب المقبرة تصعد إلى السماء من هذه الفتحة . غير أن هذا التفسير سوف يكون دون شك مجالا للنقاش ومثاراً للبحث بين علماء الآثار .

وقد تشرفت منطقة الحفائر بزيارة مولانا الملك المعظم فى اليوم الرابع من شهر يونيه ، وأبدى جلالته فيضاً من سابغ عطفه وتشجيعه .

الموسم الرابع

أما الموسم الرابع بمنطقة حفائر صاحب الجلالة الملك بحلوان فقد بدئ فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٤٥ حيث كشف عن ٧٠٦ مقبرة وجد منها ١٨٠ سليمة لم تعبث بها أيدى اللصوص ، وتقع جميعها فى الجهة الشرقية من منطقة الموسم الثالث . وقد انتهى العمل فى ٣١ مايو سنة ١٩٤٦ .

وقد كشف إلى الشرق من الجهة المذكورة عن مبنى كبير من اللبن طوله من الشرق إلى الغرب نحو ٥٠ متراً ومن الجنوب إلى الشمال ٣٠ متراً ، وهو مقسم إلى حجرات تتوسطها صالة كبيرة ، وبها حفرة على شكل دائرة . ومدخل هذا المبنى فى الجهة الغربية ، وهو عبارة عن باب متسع ، وقد اشتهر هذا المكان عند أهالى المنطقة باسم « دير الملك شهران » . ولما كان قد ورد فى بعض النصوص التاريخية ذكر لهذا الدير ، فمن المرجح أن يكون

هذا المبنى هو دير شهران الذى ذكره بعض مؤرخى العرب مثل أبى صالح والشابشتى .

وقد كشف عن مقبرة كان الجزء العلوى منها مبنيا بالحجر الأبيض إلا أن أغلبه أزيل ولم يبق منه إلا القليل . ويبلغ طول هذا البناء من الشمال إلى الجنوب ٥٧ متراً ومن الشرق إلى الغرب ٣٠ متراً . وعثرنا فى الوسط على بئر مبنية من الجهات البحرية والشرقية والغربية بأحجار صغيرة على نمط البناء باللبن (الطوب الأخضر) . أما الجهة القبلية — الجنوبية — فقد بنيت بكل دقة بكتل كبيرة من الحجر يبلغ طول الواحدة منها أربعة أمتار ونصف متر وارتفاعها نحو المتر وسمكها ٣٠ سم تقريبا . وبنيت هذه الكتل على هذا النمط لتكون سقفاً لحجرة الدفن التى وجدت مبنية بالحجر نفسه ، وعلى جانبى المدخل مخزنان سقفهما من كتل الحجر على شكل جذوع النخيل . وقسمت حجرة الدفن إلى قسمين : قسم خارجى يقع على جانبه الشرقى والغربى المخزنان المذكوران ، وقسم داخلى كان مخصصا لدفن صاحب المقبرة ، وينتهى سقف هذا الجزء بحجر مستدير يمثل الستر الذى يمكن إسداله ورفعه .

ومن طريقة بناء هذه المقبرة ومن الآثار القليلة التى وجدت بها يمكننا أن نجزم بأن تاريخها يرجع إلى العصر العتيق . وتعتبر هذه المقبرة أكبر ما كشف عنه فى هذا العصر حتى الآن ، ولا يمكن أن يكون صاحبها إلا شخصا ذا خطر كبير ، فاما أن يكون ملكا أو عظيماً من عظماء هذا العصر .

وتعد المقابر التى كشفت فى هذا الموسم فى غاية الأهمية ، وبعضها جديد علينا لم يعثر على شبيه له من قبل . مثال ذلك مقبرة من عصر الأسرة الأولى بنيت جدران حجرة الدفن فيها بكتل من الحجر يبلغ طول الواحدة منها أربعة أمتار وارتفاعها مترين وسمكها ٤٠ سنتيمترا . ووجد بالجهة البحرية من حجرة الدفن الممر الموصل إلى المدفن ، وعلى جانبيه أربعة مخازن عثرنا فى واحد منها على بقايا جثتين لثورين ومعهما ثلاثة سكاكين من الصوان لم يسبق أن عثر على مثيل لها من حيث دقة الصنع والحجم ؛ إذ تبلغ أطوالها بالتتالى ٤٤,٥ و ٤١,٥ و ٣٥ سنتيمتراً

كما عثرنا على مقبرة صغيرة من عصر الأسرة الأولى بنيت حجرة الدفن فيها باللبن ،وإلى الجنوب والشمال منها مخزنان للأوانى الجنازية ، ووجد صاحب

المقبرة وما حوله من الأدوات سليما ، ومن بينها نموذج لعمود من سن الفيل رأسه مكون من ثمانى زهرات لوتس ، سبع منها تكون رأس العمود ، والثامنة فى الوسط . ولكل زهرة من زهرات اللوتس ساق من سن الفيل صنعت جميعها وكأنها مربوطة بثلاثة حبال تحت الزهرات مباشرة . وترينا هذه القطعة دقة الصناعة فى الأسرة الأولى ، ومنها يمكن الوقوف على أصل الأعمدة المستعملة فى المعابد فى الأسرات التالية .

وعثرنا على كثير من الأوانى المصنوعة من المرمر والاردواز والبللور الصخرى ، وكذا عقود من العقيق الأحمر والاماشيست والفيانس الأخضر وأساور من الصوان والاردواز والعاج .

ووجد فى مقبرة صغيرة لطفل من الأسرة الأولى صندوق مطعم بسن الفيل بطريقة لم تعرف من قبل . ومما يثير الدهش أننا عثرنا على عدة هياكل لأصحاب بعض المقابر لازال الشعر على جماجمها . وقد عنينا بحفظ عينات من هذا الشعر ، وألوانها أصفر ذهبى وكستنائى وأسود ، كما أن بعض هذا الشعر قد وخطه الشيب .

الموسم الخامس

بدأ الموسم الخامس فى التاسع من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٦ وانتهى فى الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٤٧ . وقد كشفنا عن ٨٢٥ مقبرة منها ٢٤٢ سليمة لم تعبث بها أيدى اللصوص ، عثرنا فيها على قطع أثرية كثير منها طريف لم يعرف له نظير من قبل ، كما أن من بينها تحفاً آية فى فن النحت ودقة الصنع .

وكثير من المقابر كبير الحجم بنى من طبقتين أو ثلاث طبقات ، مما يثبت أن أصحابها كانوا ذوى مكانة ملحوظة أيام حياتهم ولم يكونوا من غمار الناس

وقد عثرنا على ثلاث مراكب لثلاث مقابر ، اثنتان منها فى الجهة البحرية للمقبرة والثالثة فى الجهة الشرقية . وهذه المراكب كانت تعد للحياة الأخرى حيث يسير بها المتوفى فى موكب الاله رع . ولعل وجود المقابر ذات المراكب مما يعزز علو شأن الجبانة التى تقوم بالحفر فيها والتى سبق فى الموسم الثالث أن عرفنا أنها جبانة عين شمس القديمة .

ومن الآثار الهامة فى هذا الموسم تمثال صغير من سن الفيل يمثل رجلا أحدب الظهر والصدر وقد ركع فى خشوع ممسكا آنية من سن الفيل بين ذراعيه ، وكأنه يقدم ما قد حوته لسيد يجب احترامه والخشوع فى حضرته . ويعتبر هذا التمثال من ناحية الصناعة الدقيقة وقوة التعبير من أروع ماعثرنا عليه حتى الآن . ويكفى أن يدقق الناظر إليه قليلا حتى يرى قسمات الوجه البينة وطريقة تصفيف الشعر بذوق جميل وهو على نمط الوزير ؟ (ثت) المرسوم خلف الملك نارمر على لوحته المشهورة بالمتحف المصرى .

وعثرنا كذلك على مجموعة كاملة للعبة مكونة من نوعين ، كل نوع من سبعة قطع من المرمر ، ومع هذه اللعبة نوع من العملة التى كانوا يتداولونها فى أثناء اللعب ، وهى عبارة عن ستين حبة مختلفة فى الحجم والشكل واللون ، وهذا ، إلى حد ما ، يشبه ما يتعامل به اللاهون فى ألعاب التسلية الآن وما يعرف بالفيش ؛ إذ لكل منها قيمة نقدية تعرف بين اللاعبين .

وعثرنا على مقبرة صغيرة وضع مع صاحبها تمثال صغير من سن الفيل لشخص يجلس القرفصاء وقد وضعت كف يده اليسرى على ركبته اليسرى ومنكب يده اليمنى على ركبته اليمنى والأصبع السبابة فى فمه . ولما كان هذا التمثال عاريا فالمرجح انه لطفل . وبالرغم من دقة الصنع فان الأذنين متناهيتان فى الكبر وهذا من مميزات عصر الأسرة الأولى .

ومن القطع الفريدة دائرة تشبه العجلة صنعت من الفيانس الأخضر وداخلها سبع شعب تبتدئ من وسط الدائرة وتنتهى باطارها الخارجى ، وثمة فرع ثامن يختلف عن الشعب السبع . ومن المرجح أن هذه الشعب السبع هى جريد نخل ، والشعبة الثامنة جذع نخلة صنعت جميعها على شكل حلية .

وعثرنا على كثير من الأوانى المختلفة الأنواع والأشكال ، وكذلك على كمية من الأساور والعقود والأمشاط وأدوات الزينة المختلفة ، كما وفقنا للعثور على نماذج من شون الغلال تعد فريدة فى نوعها .

زكى يوسف سعد

من الادب الامريكى

WILLIAM FAULKNER

OWEN É. HOLLOWAY

وليم فولكنر*

يعتبر وليم فولكنر ، وهو مولود فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧ بنيو ألبانى ، فى طليعة كتاب القصة اليوم وهاك بيانا لأشهر قصصه :

Sound & Fury, 1929. — *As I lay dying*, 1930. *These Thirteen*, 1930. — *Pylon*, 1935. — *Absalom ! Absalom*, 1936. — *Unvanquished*, 1938. — *Wild Palms*, 1939. — *The Hamlet*, 1940.

لم يبق للمأساة مجال فى أوربا بعد انقضاء عصر المسرحيات القائمة على العادات إلا فى القصص الروائية . هذا كان رأى ستندال منذ قرن مضى ، وهذا رأى قادة الفكر من بعده فى أوربا . فليوباردى ثم نيتشه مثلا يميلان إلى القول بأن الشعور بالمأساة قد تعدل فلم يعد له وجود ؛ وانعدم بتأثير «الفيلسوف الطبيعى الذى نجد مثاله قديماً فى سقراط ، ولكنه الآن مسلح بأقوى أدوات المعرفة وهو يعمل فى خدمة العلم» . وقد نكون أقرب إلى الصواب حين نقول إنه فى النوع الفنى الأساسى فى القرن التاسع عشر ، ظل الشعور بالمأساة تتردد ذكراه كما تتردد الذكرى فى الضمير المعذب ، وإنه بين الانجلوسكسون فى عزلتهم وابتعادهم ، نرى هذا الشعور مصاحباً للفن الحقيقى عند كتّاب مثل بو مع حبه للمظهر شيئاً ما ، ثم فى قصتى مرتفعات وذرنج وموبى دك . وفى خارج محيط هؤلاء ، لا نجد هذا الشعور مصاحباً للفن القصصى الحقيقى فى غير دستويفسكى . أما المؤلفات القصصية الأخرى الباقية على الزمن من القرن التاسع عشر كمؤلفات بلزاك وتولستوى ، فليست إلا وثائق تدل على النبوغ ،

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

ولكنها وثائق فحسب . ولقد قال فلوبير إن النثر القصصي لم يولد إلا أمس ، وهو يولد كلما وزعت القصة بين غمام من الشهود بالرسائل وبالمخطوطات المستكشفة وبالطريقة الدقيقة التي يؤدي كل قسم منها إلى القسم الآخر . ولكن كثيراً ماتقضي على النثر بوصفه فنا ، القوى ذاتها التي قضت على الشعر بوصفه فنا ، في القرن التاسع عشر : أعني الاهتمام بقول أو وصف شيء بما لم يقله الناس من قبل .

والآن نرى مرة أخرى من أمريكا ومن ذلك « الجنوب السحيق الذي مات منذ سنة ١٨٦٥ ، وتسكنه أشباح ثرثارة مهانة عاجزة » يظهر ذلك الشعور الكبير بالمأساة . وليس ذلك فحسب ، بل ربما يظهر أول مؤلف فذ كبير في ذلك الفن الذي ظل قرنين ونصف قرن يحاول الخلاص من تلك العبودية التي تقضي عليه بتمثيل البيئة فقط .

وليس معنى ذلك أن وليم فولكنر لم يتخذ عالماً صغيراً في ولاية مسيسبي ، بل هو قد فعل كما فعل هاردي بولاية وسكس ، وفي قسم كبير خلق جغرافية هذا العالم الصغير ، ويمكن معرفة ذلك من المجموعة الأخيرة التي ظهرت من منتخباته . ولكن ما يجعل من هذا الرجل فناناً في الرواية ، كما كان دستويفسكي فنانا ، هو إحساسه بمصدر الرواية ، وهو الكلمة التي يتناقلها الفم . وليس مجرد مصادفة أن أهدى فولكنر كتابه الأخير لمرضعه العجوز . فان أبسط الروايات لا تنشئ جديداً ، وإنما تقدم الحوادث بطريقتها . ولاريب في أن فولكنر ليس أول كاتب حديث من مبدئه أن أهمية القصة تتوقف على طريقة روايتها ؛ فان هنري جيمس يقرر في فخر أن كونراد كان أستاذاً في رواية القصة بأكثر الطرق تأثيراً . وإذا قصر هنري جيمس وكونراد في قصصهما فان قصورهما يكون في الوجوه الأخرى للقصة . وكل ما يقال في التفضيل بين هذين الكاتبين هو أن جيمس كان أبرع الاثنين في إخفاء متاعبه ، على أن كلا منهما يتخذ من فنه سبيلا لتغطية ما به من نقص . ومما لا شك فيه أن فولكنر يفعل مثلهما ؛ فقصة « بيلون » ***Pylon*** هي وصف لحياة بعض الطيارين الذين يرحبون بالأخطار كما يسجلها صحفي من الذين يكتبون بطريقة تأثيرية . وفي قصة قصيرة أخرى (قصة مسترال ***Mistral*** في المجلد المسمى هذه الثلاث عشرة ***These Thirteen***) قد تكون أمثولة في فن

رواية القصة ، نرى عذاب القس الذى عشق فتاة جميلة تحت وصايته ؛ كما يصفه غلامان أمريكيان ، فى ثرثرتهما وسخريتهما ، وهما يقومان برحلة أصيل يوم ، فيدخلان القرية الجبلية المظلمة ، وهى موضع القصة ، على عجلتهما ثم يخرجان منها . ولكن بالرغم من كل هذه الوسائل ، وبالرغم من الحديث الداخلى لأشخاص القصة ، فى قصة بينما أنا راقد فى الموت *As I lay dying* فان فولكنر لم يكن من البساطة بحيث يعتقد كما اعتقدت فرجينيا وولف Virginia Woolf بعد تجربة جيمس جويس James Joyce التى لم توفق كل التوفيق ، فى قصته عوليس *Ulysses* ، بأن على القصاص فقط « أن يرسم خطوط المنظر الخارجى للقصة مهما كان متقطعاً وغير واضح فى مظهره كما يرتسم كل منظر أو حادث على شعوره » . فالقول بأن الفكرة أو الارادة ، والعمل هما سواء ، إنما هو عذر يلتمسه المؤلف الذى لا يعرف غير الكتب حين يتردى فى عالم من أفكاره . أما الفن لدى كاتب عظيم مثل فولكنر فيظهر فى تدرج صوره من الأفكار المفصح عنها ، إلى الأفكار الدفينة فى نفسه والتى لم تبرز لميدان العمل . وهو فى أنواع التعبير المختلفة ينشئ سلما متدرجاً من أبسطها وأقربها للعامية إلى أعقدها وأصقلها . فلغة الرواية نفسها تدعو إلى آراء مختلفة أو مناظر ، ثم تعتنق هذه الآراء . فالقصة يعمل حساب تأثيرها فى قرائها بطريقة أوضح من تأثير المسرحية فى المشاهدين ؛ إذ أنها مقيدة بالشعور المتعمل بطريقة الرواية ، فضلا عن ذكر الوقائع ، لكى تستبين العلاقة التى تقفها من هذه الوقائع ومن القراء . وهذه إحدى صعوبات القصة . ولكن هذه الصعوبة تزول حين يتم التوافق بين الوقائع ورواية الوقائع ويسيران متناسقين .

ويستبين ذلك حتى فى أول قصة عظيمة لفولكنر ، وهى قصة «الضجة والغضب» *The Sound and the fury* وهى قصة العاطفة التى لا تحتمل : لأخ يحاول أن يفهم السر فى أن أختاً حبيبة فرطت فى نفسها لآخرين فى سهولة . ونحن نعلم فى مبدأ الكتاب بانتحاره منذ زمن مديد ، ولكن هذه الكارثة تتكرر فى الأسرة . فان طفلة الأخت التى أطلق عليها اسم الأخ المنتحر ، تسلك مسلك أمها . وقد اختير لتسجيل المناظر الماثلة فى الحديقة الماثلة التى تتكرر مع أوغاد متتابعين ، شاب أبله يعيش على الأصداء ، فى

زمن غير محدود . وهذه وسيلة لوضع الأنواع الآلية للزمان والمكان فى سير آخر للوقائع ، كما يحدث عادة عندما تتدخل فى أفكار المرء السارية ، أماكن وأزمنة مختلفة . وإذا كانت الأمور فى هذه الحالة يمكن أن تحذر ، فذلك لأنه فى الندم والتأنيب ، وهما الخبز اليومى لأسرة كومبسون ، تأبى الحقيقة إلا أن تبرز على السطح الظاهر . فان اسم الفتاة الخاطئة وهو كادى يسمع كل لحظة فى ساحة لعبة الجولف المجاورة للدار ، حين ينادى اللاعبون الغلام الذى يلتقط الكرة بقولهم : « كادى ! » ، مع أن هذا الاسم لا يذكر مطلقاً فى الأسرة . وإن العاطفة التى تدور عليها القصة هى عاطفة مكتومة فى طيات الحياة اليومية العادية لهذه الأسرة مدة ثمانى عشرة سنة .

على أننا نرى هذه العاطفة سافرة فى القسم الثانى من القصة حين يتكلم البطل الحساس إلى نفسه فى يوم انتحاره ، عندما اضطرت أخته إلى الزواج ، كى يكون للجنين الذى فى أحشائها أب . فعبارته التى تتكرر فى مرثيته تشبه العبارة التى صاح بها القاتل الشاكل فى مسرحية « ماكبث » حين واجه ذلك الذى قضى على حلمه فلم يجد غير السؤال « هل كانت لك أنت أخت ؟ » فهو كالرجل الغريق يضع أمامه عالماً بأكمله فى لحظة واحدة من لحظات الزمن . على أن الحاضر التعس بعد ثمانى عشرة سنة من ذلك الحادث الأليم ينطبق مرة أخرى فوق رأسه . وشبح هذا الحادث فى القسم الثالث تعلوه مرارة لاذعة ، وإن جاء من وجهة نظر أخرى ، هى وجهة ساخرة للمماثل له ، وهو أخ وعم غاضب لأنه لم يوفق فى الحصول على عمل كان يرغب فيه فى مصرف من المصارف . ونرى هذا السيد فى القسم الرابع والأخير وقد حصر فى ركن ضيق من جماعة الأسرة ، وانتقلنا لرؤية الحادث من وجهة نظر عامة ، هى وجهة نظر الزنوج البسطاء الذين يعيشون بين أسرة كومبسون ، وليست قصة هذه الأسرة لديهم إلا خيبة الرغبات الانسانية أو على قول ماكبث قصة « يرويها أبله مليئة بالضجة والغضب وليس لها معنى » وإنما هى إرادة الله كما تنفذ فى البشر ، ويغطى الوعظ المؤثر بكنيسة الزنوج فى النهاية على رواية الابنة للمغامرات الأخيرة لأمها مع أول طارق[١].

وكانت هذه الطريقة غير المباشرة أكثر عمداً وأكثر سبكاً فى قصة فولكنر العظيمة التالية وهى المسماة رؤية النور فى أغسطس *Light in August*

وهى قصة عذاب الطفل الأمريكى الذى يظل تائهاً بين عالمين لما اختلط بدمائه من دم أسود . وحيرة شهيد آخر كان فى وقت من الأوقات ضحية التقاليد وهو قس بلا رداء القس . وهى قصة وضعت فى إطار قصة مختلفة كل الاختلاف عن أم فى أحشائها طفل تقطع الطرقات بحثاً عن عشيقها الهارب . وعندما نصل إلى خاتمة المطاف ، بالقضاء على هذا الطفل ذى الدم الملون كما قضى على أمه ، ويكون الملك المنتقم فى هذه الحالة هو الجد ، نراه يعود إلى السلام وإلى عشرة الخليلة البيضاء التى قطع عليها حياة العانس ، وتنتهى أحلام القس فى حديث الفراش معها ، عن الطفل الذى تنتظره الخليلة من هذا الأب الذى عشقته .

ونجد فى كتابات فولكنر مهارة لا تبارى فى العبارات المفردة . فبينما نرى القصاصين الآخرين يخصون كل متكلم بملاحظة واحدة ، نجد فولكنر لا يخصص له أقل من ثلاث ملاحظات ، كل منها فى مستوى خاص من آرائه . ففى البداية التى لا تنسى لهذه القصة ، وسير الزمن البطىء ، نجد المرأة والعربة والسائق يغيرون من موقفهم النسبى ، من بعد ظهر ذلك اليوم الحار من شهر أغسطس ، كما تفعل عبارات الموسيقى . فالشكل الذى تتخذه القصة فى أوسع معانيه ، ليس إلا نتيجة لنسج المناظر كما تبدو للعين ، شأنها فى ذلك شأن المنظر الواحد . ففى التصوير مثلا نجد المنظور ذا الابعاد الثلاثة ، إذا كان عنيفاً ، يحدث ما يصير فى الرؤية بمثابة الخرق فى الصورة . والعقبة التى يجب التغلب عليها فى القصة هى الاستقامة الخطية الناشئة عن عامل الزمن ، والامتداد الطولى البطىء للواقعة . وعبثاً يبحث المرء عن فن الرواية إذا لم يجد الوسيلة لكى يظهر أن الحاضر من أعمال شخصياته هو فى الوقت نفسه ماضى القصاص كما فى المرثية . ولا علاقة لهذا بالابتداء من النهاية أو الانتهاء عند البداية . وإن كان وجود الجثة فى القصة البوليسية درس لنا بأنه من الضرورى التفكير دائماً فى الخاتمة . فالزمن وهو ماضى القصة يتطلب منا أن نركز ما فيها من ماض ومستقبل ، فنبين أنه قد انتهى أمره على أن يكون له شأنه فى سير الحوادث فى زمن الرواية . ولقد كتب دستويفسكى عن بطله فى قصة الجريمة والعقاب يقول : « عندما فكر فيما بعد فيما مر به من زمن وما حدث له فيه من حوادث أثناء تلك الأيام دقيقة فدقيقة ، ومسأله فمسألة ، تأثر بأمر واحد

تأثراً يشبه الاعتقاد بالخرافة : إنه لقدر مكتوب! » فهنا نجد تمركز القصة الذى لاحظه جيد على أنه صفة من صفات دستويفسكى ، وفيه كل أنواع العلاقات المختلفة التى تربط بين حوادثها المنطقية وهى التى تنشأ عن ربط المناظر الزمنية .

ونجد هذه الظاهرة على أكمل صورة فى قصة « أبسالوم ! أبسالوم ! » وهى أعظم قصة له . وهذا الكتاب يصف فيه الولايات الجنوبية فى بلاد الولايات المتحدة كما كانت قديماً قبل أن تتغير معالمها . وهى قصة رجل اسمه توماس ساتبن انقلب شيطاناً بسبب الرغبة الملحة ، وهو ابن فقراء من المستعمرين ، فى أن يغلب الأسر ذات الأملاك الواسعة فى مضمار حياتها . فكانت محاولته الأولى مخفقة إذ أصاب ثروة ، ولكنه تركها مع الزوجة والطفل اللذين كان لهما ارتباط بهذه الثروة . وفى المحاولة الثانية احتل مكاناً فى الهيئة الاجتماعية بولاية مسيسبى وبنى له داراً وامتلك أملاكاً واسعة ، وصارت له زوجة ثانية وطفلان . ولكن حب الانتقام يتقد فى صدر الزوجة الأولى فتقوم هى ومحاميها على تربية ولدها شارل من ساتبن بحيث يكون أداة لدمار أبيه . وقد ربطت عقدة المأساة بوساطة الأبناء أنفسهم فى جهلهم بالأمور . فالأخ والأخت من الزواج الثانى هما أشبه « بزميلين فى فرقة جيش متآلفة » ؛ فليست الأخت وحدها هى التى انجذبت إلى أخيها من أبيها ، قبل أن تراه ودون أن تعرف صلته بها ، بل إن خيال هنرى ساتبن هو الذى جعله يضفى على شارل بون بطبيعة الحال ثوب الخطيب لأخته ؛ لأن الفكرة نشأت عن عبادة صفات البطولة التى زعمها فى الرجل الأكبر منه سناً ، حين نعته بأنه أخ أكبر ، وأنه مثال للأناقة . وفضلا عن ذلك ألم يكن يشعر بأنه هو الذى سيتزوج من أخته وقد تحوّل إلى شخصية زوج الأخت ؟ أو لم يكن شارل يجيبه على إحساسه تماماً حين اعتبر هذه الأخت شبحاً وآنية يفرغ فيها حبه لهنرى الذى هو موضوع هذا الحب ؟

ولكن يأتى اليوم الذى يفهم فيه ساتبن ابنه هنرى بأنهم جميعاً أبناء رجل واحد ، وحينئذ يقرر هنرى فى ألمه أنه سيقبل الخطيئة واللعنة . وإذا كان أبوه على قوله سيذهب إلى النار فلا يضيرهم وهم الجيل الأصغر أن يذهبوا إليها أيضاً ؛ لأنهم الثلاثة لم يكونوا إلا مجرد أشباح أوجدتها الارادة النارية . ولكن هذه الآلام البشرية قدر لها أن تتحطم فى آلام الحرب الأهلية

عندما يخذل النصر جيوش الولايات الجنوبية المتآلفة ، ويصير مركز هؤلاء الفتيان الثلاثة وهو مركز سيئ بما فيه الكفاية مستحيلا بضربة أخيرة من ساتبن نفسه ، وهو قائد لشارل وهنرى فى الميدان ، إذ يعترف بأن فى الأول مزيجا من الدم الأسود عن طريق أمه . فاذا عاد الاخوان من الحرب وهما يمتطيان جوادين وصارا على حدود أملاك ساتبن ، يعمل هنرى المهماز فى جواده ليتقدم زميله ، ثم يلوى عنان الجواد ليصير فى مواجهته ، ويطلق عليه الرصاص فيقتله . وحينئذ لا يكون انقراض أسرة ساتبن بعيداً ؛ فان ساتبن يندفع فى الجرأة اندفاعاً يؤدى به إلى الخاتمة العنيفة ، فهو يعمل للاحتفاظ بالأسرة فيعتدى على ابنة أحد أتباعه ، وهى فتاة فى السادسة عشرة من عمرها فتلد له طفلا . ولكن الأم والطفل والجد وهنرى يموتون فى يوم واحد ، ولا يبقى من نسل هذه الأسرة ذات المطامع إلا غلام أسود معتوه منحدر من نسل امرأة ملونة اتخذها الابن الأكبر خليلة .

إن الوقائع وحدها فى هذه القصة لمثيرة . ولكن ما يجعل منها على الغالب المثل الأعلى إلى الآن فى فن القصة ، هو ذلك التنسيق الايقاعى فى إعادة بناء الحوادث المتتابعة بما لايشبه — مع التفاوت — غير القصة البوليسية . وليس مجرد مصادفة أن فولكنر ودستويفسكى من كتاب القصص البوليسية ؛ فتاريخ أسرة ساتبن يروى والأدوار التى مرت بها ترسم بعد خمسين أو ستين أو سبعين سنة من حدوثها ، إذ ترويها زوجة الأخ أو ساتبن الكهل لأصدقاء الأسرة وأحد أبناء هؤلاء الأصدقاء لزميله فى غرفته بجامعة هارفرد ، وهى تصوَّر هنالك فى شمال الولايات المتحدة ، وتزيد خصباً بالتعليقات والتصورات للرواة والمستمعين . فالتصريح والابراز وتجمع خيوط القصة ، وفترات السكون وتغير الطريقة بتغير الراوى ، وتغير السرعة ، كل ذلك إن هو إلا الموسيقى ، على أنه نوع جديد من الموسيقى . والطريقة التى يعرف بها القارئ كيف مات الأخ الأكبر على يدى أخيه الأصغر هى أول موسيقى حقة ، بعد شودلرو دلاكلو وبعد دستويفسكى فى فن القصة .

قد يعمد الناقد الذى يرى كثرة حوادث القتل والفسق والسيرة السيئة إلى وضع فولكنر بين العدد الكبير من الكتاب الأمريكيين البارزين الذين يكتبون للجماهير ويدلون على قوة احتمال الأمريكيين لكل شئ . ولا ينكر

أحد أن فى صفحاته ما يسميه هو نفسه « رائحة الأرض المتوحشة الخصبة » . وقد نجد أشخاص قصصه فى يأسهم من الاتصال بالعالم وفظاعاته يقتصرون فى حياتهم على نزعاتهم وشهواتهم . ولكن هذا لا يجعله مثلا فى صف السيد همنجواى الضئيل العنيف . كما أن اختياره للفسق لكى يزيد من قوة ماوصفه فى أحوال أخرى بأنه « التبخر السريع للمقابلة الجسدية » لا يشد وثاقه مع كفكا ، ذلك الكاتب الذى يمثل روح أوربا الوسطى ويمثل سنة ١٩٢٠ بمخلوقاته المشوهة ، فأفراد أسرتى كومسون وساتبن الذين صورهم ليسوا أشخاصاً حقيقيين قادرين على ارتكاب الفسق بأكثر من أشخاص قصة « العلاقات الخطرة » ، لشادرلو دلاكلو أو قصص دستويفسكى . والفرق بين الكتاب الأمريكيين الأشداء وبين فولكنر هو ما قاله وايلد فى الفرق بين زرلا وبلزاك : أحدهما الحقيقة بلا خيال ، والآخر الحقيقة الخيالية .

وأن لغته وحدها لتبرهن على ذلك . لا تقول مجرد سرعة العبارة كما فى قصته أكبر فيضان حدث على أكبر نهر منذ الطوفان ، وهى قصة «الرجل القديم » فى مجموعة « التخيلات البرية » ولو أنه لم يبلغ أحد قبله فى النثر مبلغ شكسبير فى الشعر ، وإنما تقول فى ثوب القصة وصياغتها فقد يقال إن الأبله فى قصة «الضجة والغضب» ، والأبله الذى يتعشق بقره فى قصة «القرية» يشجعان على القول بأنه يحب أن يسجل مناظر غريبة . ولكنه اختار الأبله لكى يسوّغ الموقف الذى يقفه فى رواية الحوادث ،وهو موقف الأطفال الذين لا يفهمون الأمور التى يأتيها الكبار من حولهم . ثم إن فولكنر فى أنضج كتبه لا يأتى بالمعوج لمجرد الرغبة فيه فلغته سواء أكانت غريبة أو عظيمة . جزء متمم للصورة كالمناظر المعوجة التى يصورها الجريكو . فنجد مثل هذه المبالغة فىقصة «أبسالوم» بأكملها؛لأن فيها العجب الضمنى لسامعى قصة ساتبن . ولولا أن المبالغة صارت صفة ثابتة لما استطاع فولكنر أن يصف بل أن يتصور دراسة الحب المطلق فى القصة الأولى من مجموعة التخيلات البرية أو صيد التمساح فىقصة «الرجل القديم» أو أنيصف أولا فارنر Eula Varner مثال الكسل والأخلاق النسوية ، فى قصة«القرية»، وهى التى « كانت تعلم أنها لا ترغب فى الذهاب إلى مكان معين . . . فكل مكان يشبه الآخر » ولا ذلك الطالب القنوع الذى كان يحبها فى الحلم وهو يحسن لعب كرة

القدم بحيث يستطيع أن يسد رمته عن طريق تلك اللعبة . ولا نهاية للعبارات التى تسترعى النظر لديه وكلها مظاهر لقوته البدائية . فليس فولكنر كالكتاب الخجولين فى أزماننا ، ينحو نحو القديم ويقتطع من كتب الآخرين ، ويتعمد الصعوبة لمجرد الرغبة فيها مثل ملرميه وفالرى وأليوت وأضرابهم ، ولكنه كالكتاب الرومانتكيين يجدد الأدب بالاتصال بالحياة . فقد نشأ كل كتاب من كتبه عن ضرورة ، وتدل كل عبارة من عباراته على فن من النوع الذى تولد على قول الشاعر عن « اجتياز المخاطر وعن الخوض فى تجربة من التجارب ، حيث لايستطيع المرء أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك» . ولقد قال فولكنر مرة : إن بين الحيـاة والكتب بونا شاسعا « فالقـادرون يعملون ، والذين لا يقدرون ويتألمون لأنهم لا يقدرون ، يكتبون ! » وهذا شرف للكاتب . ومن حسن الحظ أن أكبر فنان أدبى فى زمننا ، وفيما قد يليه من أزمان ، يضع الموقف فى نهاية الأمر بهذه البساطة .

ارين ا· هولواى

نقلها إلى العربية ز . ى . ع .

خاتمة المطاف

رجعة المسافر

نورَ العيون وفلذة الاكبادِ ما زلتِ بَعْدُ رهينَ ذاك الوادى

ما زلتِ مُذْ غودرتِ ثَمَّ ضجيعةً يصحو الرُّقودُ وأنتِ حِلْف رقاد

طوّفتُ فى الآفاق بعدك هائماً فى البحر ، فى الأوهاد ، فى الأنجاد

وسعيتُ للفن الجميل بأرضه للنقش ، للتصوير ، للانشاد

ما انطاع لى السلوان عنك هنيهةً كلا ، ولا خلّى هواك مقادى

وعرفتُ أصناف الخرائد لاهياً ما حركت أنثى صميمَ فؤادى

يا ليت بُعْدى فى البلاد مُطوِّفاً ومزيدَ تجريبى ومُبْدل عادى

وطويلَ تحنانى وحرَّ تشوّقى لمزار قبرك بعد طول بِعاد

سلّتْ من الحزن المبرّح بَرْحَه وهدتْ ضلالى فى الأسى وعنادى

فأرى بكاءً فوق قبركِ شافياً وأرى عزاءً أن حوتْكِ بلادى

عبد الرحمن صدقى

حلم بالموت

الشاعر ينعى نفسه

يانفسُ لا ترجفى ، يانفسُ لا تَهِنى
آن الترحلُ فاستَعْلى على البَدَنِ

آن الترحل عن دنيا أنستِ بها
على أذاها — ودقت ساعة الظعن

قرّى على عتب المجهول ذا رَهَبٍ
وإن يكن جنّةً موعودةَ الفِتَن

شُدّى يقينكِ لا غيرُ اليقين هنا
قد أذهل النزعُ عقل الباحث الفطن

شُدّى يقينكِ قد رثّت مرائره
من فرط ما عرِكت فى عالم المحن

شُدّى يقينكِ ، هذا الليلُ أجمعه
تهون أهواله للمؤمن اليَقِن

يا نفس لا ترجفى ، يا نفس لا تهنى
ما الموت — يانفسُ — إلا غفوة الوسن

أغفى بهذا الثرى تستيقظى أبداً
بالخُلدِ فى نجوةٍ من سطوة الزمن

أما كفاك الذى تشكين من سقم
أما كفاك الذى تصْلَيْن من حزَن

عدّى إلى عالم الأرواح آمنةً
فما سواه على أمنٍ بمؤتمَن

يا نفس لن ترجفى ، يا نفس لن تهنى
إن تذكرى ساكناً فى ذلك السكن

شقيقةً لك يا نفسى وقد سَبقت
إلى هنالك تصبو لى وتذكرنى

فصَعّدى نحوها يا نفس معْجلةً
فما تزال على الأعراف تَنْظُرنى

إن يجمع الموتُ بعد الصدع ألْفَتَنا
فقد أبرَّ وأعطى منّة المِنَن

عبد الرحمن صدقى

المهذب بن الزبير

هو شاعر من شعراء مصر فى العصر الفاطمى ، نشأ فى أسوان من بيت علم وأدب وفضل ، ورحل إلى القاهرة ، فاتصل بالوزير المشهور الصالح طلائع ابن رزيك (٥٤٩-٥٥٦ هـ .) واختص به . وكان هذا الوزير أديباً شاعراً ، وكان يتخذ له مجلساً يحضره الأدباء والشعراء ، وكان يسمعهم بعض مايقرض من الشعر ، وكان الناس يهرعون إلى نقل شعره ، وقد اتهمه معاصروه بأنه لم يكن يحسن الشعر وأن أكثر شعره صنعه له المهذب بن الزبير ، وقالوا إن المهذب حصل من الصالح بسبب ذلك على مال جم ، حتى إنه كان يلبس الثياب المذهبة .

ويبالغ ياقوت فى علم المهذب بالأنساب ، ويقول إنه ألف فيها كتابا كبيراً يقع فى نحو عشرين مجلداً ، كل مجلد عشرون كراساً ، وقد رأى بعضه ياقوت فوجده مع تحققه هذا العلم غاية فى معناه لا مزيد عليه ، وعلل لاحسان المهذب فيه بأنه مضى إلى بلاد اليمن فى رسالة من بعض ملوك مصر ، واجتهد هناك فى تحصيل كتب النسب وجمع منها ما لم تجتمع عند أحد حتى صح له تأليف هذا الكتاب .

ولا ترجع أهمية المهذب فى عصره إلى علمه بالأنساب ، وإنما ترجع إلى شعره ؛ فقد كان خير شعراء مصر فى عهد ابن رزيك . وإذا عرفنا أن هذا العهد امتاز بنشاط واسع فى الشعر وأن شعراء كثيرين كانوا موجودين فيه وعلى رأسهم الرشيد أخو المهذب وابن الصياد وابن قادوس ، أمكننا أن نعرف إلى أى حد حقق المهذب لنفسه مقدرة فى عمل الشعر وصنعه . وقد ترجم له العماد الأصبهانى فى خريدته ترجمة ضافية استهلها بقوله : « المهذب أبو محمد الحسن ابن على بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، وهو أشعر من أخيه الرشيد ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه ، توفى قبل أخيه بسنة ، لم يكن فى زمانه

أشعر منه أحد وله شعر كثير ، ومحل فى الفضل أثير . » ويروى له العماد بعد هذه المقدمة قطعة كبيرة من شعره ، نستطيع أن نطلع منها على جميع خصائصه .

ولعل أول ما يلاحظ على هذا الشاعر الممتاز أنه لم يكن شاعر نفسه ، بل كان شاعر الصالح بن رزيك ؛ فهو من الشعراء الذين يتغنون بمناقب الأمراء والوزراء على نحو ما نعرف عند شعراء المشرق الذين اتخذوا المديح مرفقاً لهم ومكتسباً . ومن يدرس الشعر العربى يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ؛ فهى تقوى حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجلها الشعراء ويتغنونها ، وهى تضعف حين تعبر عن زلفى وما يتصل بالزلفى من رياء ونفاق .

للمديح عندنا إذن قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع ، وقصيدة ليس لها موضوع . ومن الضرب الأول مدائح أبى تمام فى قواد الدولة العباسية وحروبهم فى خراسان وكذلك مديحه فى المعتصم وفتحه لعمورية ، ومنه أيضاً مدائح المتنبى فى سيف الدولة وحروبه مع الروم . ومن الضرب الثانى مدائح مهيار وغيره من الشعراء للوزراء فى المناسبات المختلفة من أعياد وتقلد للوزارة ونحو ذلك .

وفرق بعيد بين الضربين ؛ ففى الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم فى صورة رائعة من الغناء والشعر . أما فى الثانى فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم ولا ما يشبه تاريخهم ، إنما نقرأ ويقرءون ملقاً ونفاقاً .

وإذا رجعنا نتساءل من أى الضربين كانت مدائح المهذب وأشعاره فى الصالح بن رزيك ، وجدنا الخريدة تجيبنا بأنها كانت من الضرب الأول ؛ فقد ملأ ابن رزيك أيامه ببطولة مجيدة فى حرب الصليبيين وردهم عن حصون الشام . وإن فى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور — من بعض الوجوه — مدى هذه البطولة . ومن يرجع إلى عقد الجمان للعينى يجد كثيراً من الألوان التى ترسم صورتها رسماً دقيقاً ؛ فقد كانت الجيوش المصرية ترسل فوجاً من بعد فوج إلى ثغور الشام ، وكانت أعلامها ما تنى تطل على العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم ، فهو يفزع صوراً وعكا ، وهو يقطع على سفن الصليبيين طريقها إلى الموانى الشامية . وكان

الصالح بن رزيك يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، وكم سجل لمصر من فتوح وانتصارات فى عسقلان وغير عسقلان ، وكم أرسل من جيوش يتبعها جيوش ، وفى ذلك يقول أو يقول المهذب بن الزبير :

غزوناهم فى العام ستين غزوة بأسد سرت نحو البلاد بعقبان
فكم بين حصنى عسقلان وغزة مساحب نسوان ومصرع فرسان
وفى بيت لحم لحم قتلى كثيرة تجررها فوق الثرى أسد خفان

لم تكن حياة الصالح بن رزيك حياة فارغة ، بل كانت حياة مليئة بالحوادث والخطوب ، حوادث هذه الغارات وخطوب هذه الانتصارات .

ومثل هذا الوزير لا تكون قصيدة المديح فيه قربى وزلفى ورياء ونفاقاً ، وإنما تكون ثناء على صفحات مشرقة فى تاريخه وتاريخ قومه . ولعل مما يذكر لشعراء العربية بالاطراء أنهم لم يتركوا شخصاً من هذا النوع العظيم دون أن يسجلوا أعماله وفتوحه فى شعرهم . ولعلنا نستطيع الآن أن نفهم لماذا يجل المؤرخون من مصريين وغير مصريين الصالح بن رزيك وعهده ؛ فقد كانت وزارته للخلفاء الفاطميين عوناً للاسلام والمسلمين ضد الصليبيين ، وكانت القاهرة فى أيامه معرضاً لمواكب الأسرى من الفرنج ، وكان المصريون يخرجون للفرجة على هذه المواكب كأنها « كرنفالات » عظيمة .

وجد الوزير الممتاز الذى يتوج هام قومه بالفتح والنصر ، فكان لابد أن يوجد الشاعر الممتاز الذى يتغنى باسم هذا الوزير وبما قلم من أظفار أعدائه ، وكان المهذب بن الزبير هو هذا الشاعر الذى تغنى بالوزير المصرى وبجيوشه وأسطوله ، وبما أثخنوا جميعاً الأعداء وشدوا الوثاق منهم . ومن أطرف ما روى له العماد فى تصوير ذلك قصيدة نونية يبدؤها على هذا النحو :

أعلمت حين تجاور الحيان أن القلوب مواقد النيران
لما أبوا ما فى الجفان قريتهم بصوارم سُلت من الأجفان
وثللت فى يوم العريش عروشهم بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى منه ومن دمهم معاً بحران
مدح الورى بالبأس إذ خضبوا الظبا فى يوم حربهم من الأقران

ولأنت تخضب كل بحـر زاخـر ممن تحارب بالنجيع القـانى
حتى ترى دمهم وخضرة مائه كشقائق نثرت على الريحـان
وكأن بحر الروم خُلّق وجهه وطفت عليـه منابت المرجـان
ولقـد أتى الأسطـول حين غزا بما لم يأت فى حين من الأحيـان

وواضح فى نغمة هذا الشعر أن الشاعر فرح مبتهج بما أفاء الله على الصالح من نصر فى العريش ؛ فقد دق أعناق الأعداء هناك ، ونكصوا ، أو قل نكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة فتلقاها الأسطول يقتل فيها ويسبى ؛ ولاريب أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر بأنه خضاب ، أو هو شقائق نثرت على الريحان ، أو هو خلوق بل هو منابت مرجان ، لا ريب أن هذا التصوير كله وفق فيه . وقد استطرد من ذلك يصف سفن الأسطول :

شبهن بالغربان فى ألوانهـا وفعلن فعـل كواسر العقبان
أوقرتها عـدد القتـال وقد غدت فيها القنـا عوضاً عن الأشطان
فأتتـك موقـرة بسبى بينـه أسراهمُ مغـلولة الأذقـان

أليس لابن رزيك الحق فى أن يعجب بهذا الشاعر الذى يستطيع أن يصور مجده الحربى على هذا النحو البديع ؟ فهو يصف حروبه فى البر وحروب أسطوله فى البحر ، وكيف كان يأتى بالأسرى وقدغُـلّـت أعناقهم وبلغت الأغلال أذقانهم فلا يستطيعون أن يعطفوا رءوسهم فضلا عن أن يطأطئوها . ونستمر مع المهذب فاذا هو يصف قتل الصالح لأمير من أمراء الفرنج ، يقول :

قتل البرنس ومن عسـاه أعانه لما عسا فى البغى والعـدوان
وأرى البرية حين عاد برأسـه مرّ الجنى يبدو على المران
وتعجبـوا من زرقة فى طرفـه فكأن فوق الرمح نصلا ثانى
فليهنـه أن فاز منك بسيـد أوفى برتبتـه على كيـوان

وبيّن أن المهذب يشبه عين البرنس على الرمح بنصل ، فكأن النصل ركّب نصلا آخر . وهذه صورة دقيقة . وقد تصادف أثناء هذه الحرب أو قـل هـذه الحروب أن وقعت زلازل شديدة فى الشـام دكت كثيراً

من حصون الصليبيين ، فذكر ذلك ابن الزبير ملتمساً له تعليلا طريفاً :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما	بقلوب أهليها من الخفقان
وأرى بأن حصونهم سجدت لما	أوتيت من ملك ومن سلطان
والناس أجدر بالسجود إذا غدا	لعلاك يسجد شامخ البنيان
قلدت أعناق البرية كلها	مننا تحمَّل ثقلها الثقلان

وهنا نلاحظ شيئاً من المبالغة عند المهذب إذ يطاب إلى الناس أن يسجدوا للصالح ، ولكن لعله يريد المجاز ؛ فسجود الحصون نفسها سجود مجازى . ونحن لا نجد فى شعر المهذب مبالغة أو قل تطرفاً فى المبالغة . ولعل من مظاهر ذلك أن الصالح كان غالياً فى تشيعه ، ومع ذلك لا نجد فى شعر المهذب ما يشير إلى هذا التشيع . وأكبر الظن أنه لم يكن مثل سيده غالباً فى تشيعه . وربما كان مما يدل على ذلك أيضاً ما يروى عنه وعن أخيه الرشيد من أنهما جميعاً انحازا إلى صف أسد الدين شيركوه حين جاء إلى مصر مع ابن أخيه صلاح الدين ضد شاور الوزير الفاطمى المعروف .

على كل حال ليس فى شعر المهذب ما يدل على تشيع ولا غلو فى التشيع ، ومن هنا لم تظهر المبالغة فى مديحه لشخص الصالح على طريقة مايعرف عن المتشيعة فى أئمتهم . وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا صوت المهذب الآن ؛ فهو صوت قوى فيه طرب ، هو طرب المصرى إذ يرى بلاده تنتصر نصراً بعد نصر . واستمع إلى هذه القطعة من قصيدة أخرى له فى الصالح :

تخال سيوفه لما انتضاها	جداول والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن	يرحن مع الظلام ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت	سناً يغشى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الاصباح عدواً	أثارت للعجاج به دجوناً
كأن الشمس حين تثير نقعاً	تحاذر من سطاه أن تبينا
تخال البحر مد به خليج	إذا ما مد بالقضب اليمينا
وما تندق يوم الروع حتى	يدق بها الكواهل والمتونا

وهذه قطعة — كما يرى القارئ — وافرة بالحياة والحركة التى تنم عن

كل ما فى قلب الشاعر من بهجة أثناء مدحه لهذا الوزير الشجاع ، أو قل هذا الوزير البطل الذى أتاح لمصر فى عهده حياة كريمة .

وليس كل ما رواه العماد للمهذب ينساق فى مديح ابن رزيك وتمجيد حروبه وانتصاراته ؛ ففيه شعر كثير خاص بالمهذب وبعواطفه التى غنّاها ، وخاصة عاطفة الحب ، فله قطع رائعة تعبر عنها أجمل تعبير وأفصحه . واقرأ هذه الأبيات :

هم نصْب عينى أنجدوا أو غاروا ومنى فؤادى أنصفوا أو جاروا
وهم مكان السر من قلبى وإن بعدتْ نوًى بهم وشط مزار
فارقتهم وكأنهم فى ناظرى مما تمثلهم لى الأفكار
تركوا المنازل والديار فما لهم إلا القلوب منازلٌ وديار
واستوطنوا البيد القفار فأصبحت منهم ديار الأنس وهى قفار
فلئن غدت مصر فلاة بعدهم فلهم بأجواز الفلا أمصار
أو جاوروا نجدا فلى من بعدهم جاران : فيضُ الدمع والتذكار
أمنازل الأحباب غيّرك البلى فلنا اعتبار فيك واستعبار
سقيا لدهر كان منك تشابهت أوقاته فجميعه أسحار
قصرت لى الأعوام فيه فمذ نأوا طالت بى الأيام وهى قصار
يا دهر لا يغررك ضعف تجلدى إنى على غير الهوى صبار

وهذه أبيات تعبر عن عاطفة الحب فى أنبل صورها ؛ فالمهذب يعلن لأحبائه أنه لن ينساهم أنجدوا أو غاروا وأنصفوا أو جاروا . ولقد أنجدوا ولكن أطيافهم ماثلة فى ناظريه ، ولقد تركوا المنازل والديار ولكنهم حلوا فى قلبه وشغاف فؤاده . وإنه ليذكرهم وحولهم جيرانهم كما يذكر نفسه ولا جار له إلا الدمع والتذكار . وإنه ليقف أمام منازلهم فترتسم فى نفسه الأوقات التى قضاها معهم ، وتبدو فى مخيلته جميعاً كأنها أسحار بكل ما فى الأسحار من حسن وجمال . أما الأعوام التى مرت به فى قربهم فقد كانت قصيرة ، أو هى تبدو الآن قصيرة ، حتى لكأن العام يوم من الأيام التى يقضيها الآن فى بعدهم .

واستمع إلى هذه الأبيات التى رواها العماد أيضاً :

ليت شعرى كيف أنتم بعدنا أترى عندكم ما عندنا

بنتمُ والشوق عنا لم يبن وظعنتم والأسى ما ظعنا
لم يُهن قط علينا بُعْدكم مثلما هان عليكم بُعدنا
ولقد كنا نعزى النفس لو كنتم قبل التنائى مثلنا
لم تبالوا إذ رحلتم غدوة أى شئ صنع الدهر بنا
سهرتْ أجفاننا بعدكم فكأنا ما عرفنا الوسنا
فاخدعوا العين بطيف مثلما يخدع القلبَ أحاديثُ المنى

وهذه أبيات سهلة عذبة تعبر عن كل ما يجرى فى النفس من أفكار وعواطف فى سهولة ويسر . والسهولة وما يتصل بها من خفة هى طابع المصريين فى كل عصورهم . وكأن الشعر المصرى وليد بيئته ، فهو يجرى فى ترفق ولين كما يجرى النيل . وربما كان ابن الزبير بحكم أنه من شعراء المديح أكثر شعراء عصره تقليدا لنماذج المشرق ، ومع ذلك فشعره حتى فى مدائحه خفيف سهل . وقد كان يستخدم التضمين، ومع ذلك فهو لا يؤذى الشعر عنده كما يؤذيه عند غيره . وخير مثال لذلك هذه الأبيات :

أقصرْ فديتك عن لومى وعن عذلى أولا فخذلى أماناً من ظُبا المقل
من كل طرف مريض الجفن ينشدنى « يا رب رام بنجد من بنى ثعل »
إن كان فيه لنا وهو السقيم شفًا « فربما صحت الأجسام بالعلل »

فقد ضمن البيت الثانى شطراً من شعر لامرئ القيس بعد تحوير خفيف فيه ، وكذلك ضمن البيت الثالث شطراً من شعر للمتنبى ، ومع ذلك فلا نحس ثقلا فى الأبيات . لكن من غير شك حينما يعدل المهذب عن مثل هذا التضمين وما يطوى فيه من تكلف يقترب من نفوسنا ويدنو من قلوبنا بما يطرفنا من شعر خفيف على نحو ما نجد فى قوله :

لا تبعثوا لى فى النسيم تحية إنى أغار من النسيم عليكمُ

وهذا بيت يعبر عن رقة ورهافة حس بالغة . ولعل فى هذا كله ما يصور شاعرية المهذب من بعض الوجوه ، وأنه كان شاعراً ممتازاً فرض نفسه على شعراء عصره .

شوقى ضيف

من هنا وهناك

ملك الله

المصباح

إذا طوعت لأحد نفسه أن يحدث الناشئين بإيمانه فما يطمع أن يصلى أكثر الناس بصلاته ؛ فان الناس ذاهبون أشتاتا فى سبل شتى وما يدرون ماذا يكسبون. ويرى شعراء قد زينوا مطيتهم بكل زينة وزودوا عزيمتهم بكل رجاء ثم جاءوا سبلا موحشة ، فكلت مطيتهم وتبددت زينتها وجاءتها الذئاب من كل مكان ، فلم يستغيثوا إلا بما خرجوا له من رجاء :

فان كنت مأكولا فكن أنت آكلى
وإلا فأدركنى ولما أمزق

وحسب كل مؤمن أن يمشى فى ثنايا الحى بمصباح ضئيل كالذى يستضىء به شيخ مؤمن ، فينادى عند فجر الاصباح « الصلاة الصلاة الصلاة خير من النوم » ، ثم يتخافت نداؤه فيلبيه مستيقظ ويتصام عن ندائه نائم ، ولا يحفل بذاته أحد فى الحى فهو صدى فى طيات السكون .

والرسل التى تسرى بين الانسان وبين مصيره هى سر الحياة المعجز الذى مد فى ملك الله وبسط فى نصيب الحياة إلى كل أمد تبلغه النفس فى الآمال والحلم .

ولم نختر سبلنا اختياراً بضياء العقل وحده ؛ فقد يخبو ضياء العقل غير مرة كل نهار حتى تضل بصيرة المبصرين فى أيسر الأمر . ولكن النفس ترسل رسلها إيحاء إلى مهبط الآمال والأحلام ... فهى خلية ينطلق نحلها خماصا فيغشى زهوراً لم تمسسها يد ، ثم يؤوب بما أصاب إلى خليته . وما تدركه رسل كل نفس فى أرجاء الجمال المكنونة العزيزة المنال يهيج فى النفس أعذب ما طربت به النفس .

ومن الناس من يؤمن أن رسل النفس التى تنفذ فى حجب الغيب ثم ترتد محملة بصور البشرى إنما توحى إلى النفس أقدار الله وتوحى إليهم أنهم يملكون ماسلكوا وما قد يسلكون من سبل البشرى . وهم يزنون أقدار حياتهم بأقدار الله التى تهبط فى أرجائها نفوسهم فى اليقظة والنوم ، وفى ذلك الايمان سلام الحياة الذى يخرج اليسر من العسر والعزة من الهوان ، ويوقد فى أفئدة الذين آمنوا قبساً من ضياء الله .

ويتجمل الأمل ببيان معجز ، وتدنى يد الله صور المجد والعزة والعلم من كائن ضئيل قليل لايكاد يملك من أمره شيئا . ويكرم الله من تهوى إليهم أفئدتنا بصور من السمو ، ويجمل أعمالنا يوم تبرز لآمالنا بأجمل ما تشتهى من صور الجمال . وإلا فما كان لنفس أن تهيم بأمر ، وما كان لقافلة أن تسير ، وما كان لشاد أن يشدو .

وإذا جاء كل نفس وحيها استجابت لصمت واعتزلت جانب الناس شيئا حتى لايقطع حديثها قطع ، وحتى تعى ما يدبر الأمل فى أمر ، ثم تهيم بما تجد منقادة وتجعل له ما تملك من بذل وعزم .

والتى تظاهر بإيمانها أملا إنما يزينها الله فوق أنوثتها بسمو كسمو الله ، والتى تقول لصاحبها ان ارتجف فؤاده : كلا والله مايخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعينه على نوائب الحق .

والتى تتجرد من بعض زينتها فتلقيه زاداً فى رحلة البشرى ، والتى تجهز متاع السفينة وتنظر مستبشرة وتوصى من تحب أن يكون زينة الناس حيث يكون ، والتى تؤازره بقلبها وصلاتها - أولئك ينهضن بالحياة نهضة الأمل ويفتحن بأيديهن أبوابا فى ملك الله .

ولم تثمر بذور تمراً أجمل من الايمان بملك الله فى كل نفس . ومن آمن به فقد آمن بالبشرى . ومن آمن بالبشرى كملته البشرى بالسمو واستيقن أن الحياة خلود ، وأنها كانت نعيما معجزاً من خلق الله ، ولا يبرح الأرض حتى تتزين بذكره الأرض وحتى يؤتيه الله عقلا يثمر الرشد والصواب أبداً ويبصر بالحكمة ويدين بالخير .

والذى بيده مفاتيح هذا الملك لايسلمها لكاذب ولو ملك بكذبه ما فى الأرض جميعا . ولا يرد هذا الملك جاف ولا ذو قلب غليظ « حتى يلج الجمل فى سم الخياط » ، ويسلم مفاتح هذا الملك لكل نفس زاكية لم تتلبد بفاحشة ولم يطمس على قلبها ما قدمت وما أخرت من فساد فى الأرض .

والحكمة التى تقبلت الانسان لترده حكيما أرضعته بلبانها بين يدى أمه . فاذا انفردت به قلبته على الجمر ؛ لأن النفس لاتزكو حتى يصهر معدنها ، وألفيت دون معرفتها الآلام والصبر ...

ولا يرتد العلم حكمة حتى تهتك النفس كل حجاب دون الاحساس بالانسانية ... ولا ينفعهـــا أن تعى من دون ذلك ما حملت الكتب كالذى يقوله الحكيم :

« قد سمعت أنه كان فى مدينة نقوانيس فى مصر إله من آلهتهم القديمة كانوا يرمزون له بأبيس . وكان اسم ذلك المعبود توت . وقيل إنه كان أول من وجد علم الحساب والنجوم والفلك ووجد فيما وجد علم الكتابة وكان على المصريين ملك يملك مصر جميعاً يدعى طاموس وكان يحكم فى عاصمة كبيرة فى مصر العليا يسميها المصريون طيبة وكان إلهها أمون . فقدم توت على الملك ليريه ما وجد من الفنون وقال له إنه ينبغى أن يتعلمها المصريون جميعاً .

« فسأله الملك عما عسى أن يكون من نفع فى كل فن من هذه الفنون . وكان الملك يقر ما يرى من نفع ويرفض ما لا يرى . وقيل إن تاموس بين لتوت ماله وما عليه فى كل فن وذلك حديث يطول . فلما كان فى شأن الكتابة .

« قال له توت :

« إن ذلك أيها الملك علم سيرد المصريين أكبر حكمة وأكثر ذكراً ؛ فان الكتابة قد وجدت دواء للحكمة والذاكرة .

« فقال له الملك :

« ياتوت إنك أعلم العلماء . وشتان ما بين رجلين : أحدهما يستطيع أن يخترع فنا ، والآخر يستطيع أن يرى ما فى كل فن من ضرر أو نفع للذين يأخذون به . والآن إنما مثلك فى اختراع الكتابة كمثل الأب من ابنه ، فلا تراها إلا معجباً رحيما وتقول فيها غير ما تستطيع . وأرى أن هذا الفن سيحمل النسيان فى نفوس تلاميذك لأنهم سيغفلون الذاكرة ؛ لأنهم يضعون ثقتهم فى حروف خارجة عن أرواحهم ولا يستذكرون بالرجوع مباشرة إلى أرواحهم . وإنك لم تجد دواء

للذاكرة وإنما وجدت دواء للرواية . ولست تحمل لتلاميذك الحكمة الحقة وإنما تحمل لهم ظاهراً من الحكمة. فان أطالوا اتباعك دون أن يتهذبوا بدا لهم أنهم على علم بكثير من الأمور وهم فى حقيقة الأمر لايبلغون بادراكهم شيئا وينقلبون عسيرى المعاشرة ويخالهم الناس حكماء وما هم بحكماء . »

وكذلك لايبلغ شباب أمة ما أودع الله الانسانية كيانها من جمال حتى يؤمن برسل البشر فى حياته ، ولا يكذب بما توحى إليه من كمال ولا يعصيها ويطيع التهاون والعافية ، وحتى يقدم لها ما ملكت أيمانه من جهاد ، ولا يعتز بالنصر اعتزازه بالهزيمة التى تحفزه إلى نصر أكبر حتى يبلغ كيان الانسانية فى قلبه ، وهى التى تلد الجود والاقدام والعدل ، وهى التى تخلق الأحرار والسادة فى الأرض ؛ لأن المجد فتوح فى ملك الله .

على حافظ

دوافع السير فى المجتمع

هذا مقال لخصت فيه مذهب الدكتور جوستاف لوبون فيلسوف الاجتماع فى القرن العشرين . وقد شرح مذهبه بكتب عدة ترجم أكثرها إلى اللغة العربية فبقيت فى زوايا الخمول لايعيرها أحد من الخاصة أى اعتناء يذكر ، على أنها أبحاث خطيرة صرف الدكتور لوبون أكثر عمره فى شرح مبادئها وأصولها .

ولعل أحد الأسباب التى منعت انتشار هذه الأبحاث وتداولها جفاف أسلوبها وصعوبته واصطدامه بالقارى لأول وهلة ، فحرم منها كثير من الخاصة وبقيت حيث هى . على أنى لا أقصد بالأسلوب : أسلوبها اللفظى فى الأصل ولا فى الترجمات المختلفة التى خرجت على أيدى كتاب أفاضل ، بل أعنى أسلوب تلك الأفكار الغريبة التى أتى بها جوستاف مع شىء من الأرستقراطية فى التعبير مما لاتطول معه روح القارىء .

وقد جاءت أبحاثه حقا آية من آيات البحث العلمى ، وإن كان أحياناً تفوته الأمثلة المسلمة لبعض ما عنده من المذاهب . وهى جديرة بأن تفتح على الرجل المثقف أبواباً جديدة من المعرفة لاتزال مجهولة عند كثير من المتعلمين بهذا الشكل العلمى المنظم .

ومن يقرأ هذا الشرح يهون عليه فهم روح الدكتور جوستاف واستكناه أى شاء من كتبه بدون مشقة ولا جهد . وسوف يجد لذة كبيرة فى تتبع بحوثه لما تبعثه فى النفس من روعة المعرفة وجلال العلم .

فليس شىء أحرى بالقراءة والبحث من الوسائل التى تعين الانسان على التغلغل إلى أعماق الحوادث النفسية والاجتماعية الغامضة واستكناه سرها من وراء مجموعة مضطربة من الظواهر التى تخفى عادة ما خلفها من الأسرار .

وجوستاف خير من كتب فى هذا الموضوع ؛ فقد أتى هذا الفيلسوف الكبير بمذاهب أقامت ثورة بين الأوساط الثقافية فى فرنسا ، خاصة منها ما كان يؤيد الثورة الفرنسية ،وما أكثرها فى فرنسا. فقد شرح فيها جملة آرائه فى العوامل المسيرة للفرد والجماعة ، وكيف تنشأ المعتقدات وأى نوع

من العوامل يسيطر على المعتقد ويوجده ، وكيف تتكون الآراء اليومية للفرد العادى والأسباب المتمكنة من عنان الفرد حين يغدو ويروح .

وقد جاءت كتبه أبحاثاً خطيرة ليس لها نظير فى تاريخ الثقافة الانسانية . فكثيراً ما بحث البشر عن العلوم العقلية التى توضح الأساليب المنطقية لصور القياس الصحيح ؛ ولكنهم قلما بحثوا فى العلل العاطفية التى تكون المعتقد . لذا جاءت أبحاث الدكتور جوستاف اكتشافاً جديداً فى ميدان العلوم الاجتماعية . فقد رجع فيها العلل المسيطرة على سلوك الفرد والجماعة إلى خمسة أنواع من المحرضات الاجتماعية التى تسير الحياة العامة . وهذه الأنواع الخمسة من المنطق هى :

١ — المنطق العقلى ، وهو الملكة التى يتوسل بها الانسان إلى الأحكام المنطقية بالشكل الذى يفصله علم المنطق ؛ وهو ترتيب المقدمات واستنتاج المجهولات من المعلومات بشكل عقلى قياسى صحيح . وهذا النوع من المنطق هو الذى يدير عجلة العلوم والمعارف والاكتشافات والقياسات الرياضية الصحيحة ؛ إلى غير ذلك مما يشترط فيه صحة المقدمة وسلامة القياس .

وتنقاد هذه الملكة على الدوام لمشاعر الفرد . فالعقل هو آلة مطيعة لأوامر العاطفة التى قد تشاء أو لا تشاء الحكم العقلى فى موضوع من المواضيع . فعمل العقل هو أن يبحث عن علل موزونة تسوغ سير عاطفته بخلاف ما لو كان العقل مجرداً من هذا التحكم ؛ فانه كما هو غنى عن البيان يحاول أن يرتب قياساته بالشكل الذى ينتج إنتاجاً صحيحاً أو قريباً من الصحة على أقل تقدير . فليس من عمل العقل — من حيث هو — أن يفترض حكماً ثم يبحث عن مسوغات ذلك الحكم من الأدلة والبراهين . وكون الأمر على عكس ذلك يشعر بأن العقل غير مطلق من سلطة ثانية تسيره حسب أهوائها . لذا أتيح لجوستاف أن يستنتج من ذلك انقياد العقل أو المنطق العقلى لأنواع أخرى من المنطق سيأتى ذكرها أثناء البحث .

وأرجو ألا يلتبس على القارئ معنى كلمة « منطق » حسب اصطلاحها الخاص هنا . فهذه الكلمة ، كما يريدها الدكتور جوستاف تعنى « جهازاً » أو « أداة » مهما كان نوعها . لذا فانها لاتشير — حسب هذا الاصطلاح — إلى المعقولات أو القياسات المنسقة كما يلتفت إلى ذلك عادة حسب اصطلاحها العام . فالمنطق العقلى والمنطق العاطفى والمنطق الدينى ومنطق الجموع ومنطق الحياة — كل أولئك أجهزة أو أدوات متصفة بتلك الصفات . وهذا تعبير حسن عن ذلك المعنى الذى يدل على أداة مسيطرة على ناحية من نواحى النفس الانسانية .

ونود أن نشير إلى أن الأمثلة عنصر هام فى التدليل على نظرية جديدة ، تلك التى لا نستطيع أن نوفيها حقها فى مجال ضيق مثل هذا . فبدل أن نتوسل بكثرة الأمثلة نكتفى لاثبات هذا النوع من المنطق عند الانسان ، بأن نشير إلى أعماله الخارجية التى تشعر بوجود مثل هذه الملكة عنده ؛ ففراساته الصادقة وقياساته اليومية المتعددة التى غالبا ما تصيب لب الواقع ، هى دليلنا الوحيد على وجود مثل هذا الجهاز بمثل هذا العمل المعين . فلو لم يكن ذلك الجهاز — أو ذلك النوع من المنطق — لما أدت تفكرات الانسان إلى نتائج مقررة فى غالب الأحيان .

ومن المهم أن نذكر أن المنطق العقلى لما

يتعد بعد حدوداً معينة مقصورة على مجال ضيق فى حياة البشر . فمع أن الانسان استطاع أن يرق بمنطقه العقلى فيسخره فى التجارب العملية التى نشأت منها حضارة العصر الحاضر ، فانه لم يزل محدود الأثر فى معتقداتنا وميولنا فى هذا العصر ؛ مما يدل على أن نشوء المنطق العقلى جاء متأخراً عن وجود سائر أنواع المنطق فى الانسان . وعلى أن هذا دليل نظرى على تأخر نشوء العقل ، فان هناك دليلا استقرائيا لا ينكر ؛ ذلك هو خلو العجماوات والحيوانات الدنيا من هذا المنطق أو هذا الجهاز . لذا فهو صفة « ناشئة » فى (الحيوان الناطق) ما دمنا نسلم بأن الحيوانات جميعاً نشأت من أصل واحد .

ولما كان المنطق العقلى هو ميزة الانسان الكبرى ، فما أكثر ما تنسب إليه الآراء والمعتقدات عند تسويغها . ولو علم الناس أن العقل براء من كل معتقد على وجه التقريب لتبين حينذاك مدى قصور المنطق العقلى عن تسيير دفة الانسانية وتوجيهها الوجهة التى يرتضيها . فلو كانت هذه الدعوى صادقة لما تناقض الناس هذا التناقض العجيب فى الآراء والمعتقدات ، ولكانت هذه أقرب إلى الالتئام منها إلى التعاكس بهذا الشكل الفظيع .

وعلى أن هذا لا يمنع من أن بعض النتائج المنطقية لا ترضى من الوجهة العملية ، بقدر ما تجدى المشاعر والآراء العاطفية . فكم صيغت الأحكام العقلية التى لا تنفذ بشكلها المنطقى الرزين — بصيغ عاطفية لاقرارها فى دائرة المعتقد ... فلو وقف أفلاطون خطيباً فى هايد بارك لما استطاع أن يجمع حوله من الجمهور بقدر ما يلتف حول أحد هؤلاء الابقين الذين يهزون مشاعر الناس بروعة صيغهم العاطفية فى طراز القياس .

وتملى الناس للأحكام العقلية مباشرة يستلزم درجة من الرقى فى المنطق العقلى مع درجة مماثلة فى حريته أو انطلاقه ، بحيث تتوازن فى الانسان أنواع المنطق كافة ؛ أى عند التقاء العقل الصاعد بأنواع المنطق الأخرى ، الهابطة ببطء لا يكاد يظهر .

وستمضى عصور طويلة قبل أن يتم ذلك على هذا النحو المذكور ، وقبل أن يختص الطريق فيحل المنطق العقلى محل سائر أنواع المنطق فيصبح شيئاً له وزنه فى ادارة دفة الانسان .

وكم أخطأ الساسة عند ما حاولوا أن يحلوا بالمنطق العقلى مشاكل لا تجدى معها غير أساليب معينة من اللعب بأحلام الرجال ، مما قد يمهر فيه صعلوك من صعاليك البيان . لذا وصف السياسة أحد الأعلام بأنه استغلال لأباطيل المجتمع وأن العلم كفاح مع هذه الأباطيل . وقد كان وصفاً رائعاً بحق .

والجملة : أن المنطق العقلى لا يزال محدود الأثر منزويا فى مجاهيل لا يصلها إلا الأفضلون من الناس ممن وهبوا — على غير علم من الطبيعة — تلك الرزانة والتوازن فى الملكات والقوى النفسانية الذى كفت به العناصر العاطفية إلى حد معقول فأتيح لهم النفوذ إلى حقائق الأشياء .

٢ — المنطق العاطفى ، وهو ثانى الأنواع الخمسة من المنطق التى تسيطر على سلوك الفرد والجماعة . ولما كان البحث فى أحد هذه الأنواع يستلزم البحث فى الآخر لما بينها من ارتباط وثيق يدعو إلى المقارنة دائماً ، نرانا غير مضطرين إلى بيان مفصل فى التعريف بهذا النوع وبالأنواع الباقية من المنطق .

فالمنطق العاطفى هو تلك الملكة التى تنشأ عنها مشاعر معينة فى الرغبة والارادة، بدون أن يكون للعقل أى تحكم أو سلطان على تقلبات هذه المشاعر . فالجندى الذى يلقى بنفسه فى أتون الحرب لأجل مثل معينة ، هو مظهر صادق لتأثير ذلك النوع من المنطق فى الانسان . ولو كان للعقل أثر فى هذه التضحية لرجع الفرد إلى نفسه مسائلا عما قد يجنيه هو نفسه من كل ما يعمل وهو أمام خطر الموت . ولكن بعد المنطق العاطفى عن تأثير العقل جعل الأول حرا فى التعرف بارادة الانسان وزجه إياه فى مظان لا يؤيدها العقل غالباً . أما عمل العقل فأن يبحث ، طائعاً لأمر العاطفة، عن تصاميم ينقض بها ذلك الجندى على أعدائه .

وجميع المشاعرالقومية والوطنية التى تبعث على الشعور بـ « النوعية » هى من هذا القبيل ، داخلة فى حدود المنطق العاطفى الذى لا يعرف للعقل حكماً أو سلطانا . ومن هنا يتناقض العقل الفردى بكثير من أصول الأخلاق المتبعة فى الوقت الحاضر ، فتظهر للفرد كأنها زائفة وإن كانت فى مصلحة المجموع دائماً . ويمكن أن نفترض فى تعليل ذلك أن الطبيعة جهزت « النوع » بعقل خاص كما جهزت الفرد بمثله وإن كانا متناقضين أحياناً .

فالمنطق العاطفى إذاً مجموعة من المشاعر قد توجدها حاجة مادية أو طراز نفسانى معين يبعث تلك المشاعر ويمكنها من قياد الانسان .

٣ — المنطق الدينى ، وهو ذلك الاستعداد الخاص للايمان بالغيبيات ، واعتبارها حقائق مسلمة لا تقبل الجدل . وقد تكون بعض عناصر التدين — ككل نوع آخر من أنواع المنطق — داخلة فى حدود المنطق العقلى . لكنها لاتؤخذ بذلك الشكل الخاص الذى يأخذ به المؤمنون عقائدهم الدينية . فكثيراً ما اعترف جوستاف بأن هناك قوى مجهولة عاقلة تدير عن كثب دفة النظام فى الطبيعة ؛ فتلك مادة أساسية فى المنطق الدينى وإن كانت مما لا ينكره العقل .

فالمؤمنون — سواء كانوا من الملاحدة أو من غيرهم — قوم تلتهب نفوسهم حماسة ويقيناً بكل نص من نصوص مذاهبهم . وأقل اعتراض على نبذة من معتقدهم كاف لاسخاطهم بشكل لا تجدى معه كل المثل العقلية فى النقاش والمناظرة . وأبرز صفة يتصف بها هؤلاء المؤمنون هى أنهم ينكرون المبادئ جملة ، أو يعتنقونها جملة ؛ أما التبعيض واختيار أقرب ما فى مبدأين متضادين إلى الحق ، فتلك ميزة المنطق العقلى الذى لا يهمه إلا ما كان له دليل منطقى يسنده .

وملكة التدين أو المنطق الدينى لا حد معها ، عند المؤمنين ، لكثرة التصديق والايمان بالمعجزات والخوارق التى يأنف المنطق العقلى أن يبحث فيها . فما دام هناك من يقدر على عمل كل شئ فلا مانع من تصديق كل شئ . لأن استثناء شئ من هذه الفرضية أمر يتنافى مع تلك الروح المتأصلة فى النوع الانسانى منذ نطق وأصبحت له ميزة الانسان ؛ ألا وهى روح التدين التى لا تقبل الأشياء إلا جملة ولا ترفضها إلا جملة .

وقد أضل المنطق الدينى أعلاماً فضلاء جرهم إلى سخافات لا تقترن عادة إلا بالدهماء والعامة من الناس . فلقد سلم هؤلاء ، بايمان وحرارة ، بكثير مما جاء فى النصوص الدينية مما يتجنبه المنطق العقلى

السليم ، ناسين أن الذى أملى عليهم ما أملاه ليس العقل وإنما روح التدين التى لا يقف فى وجهها أسطع البراهين وأوضحها والتى لايخلو منها أكثر الناس حذراً ودقة. فهى التى زعزعت أركان التاريخ مراراً ، وهى التى أقامت حضارات وأسقطت حضارات .

وقد أفاد وجود هذا النوع من المنطق فوائد عملية أحياناً . فلقد استطاع رجل أن يبيع رفات قسيس مقدس على أنه يشفى المرضى من كل داء . فداخل الايمان بعضهم بحرمة هذا الرفات وسرعان ما شفوا مما يشكون من أمراض نفسية مزمنة . وليس ببعيد عنا ما صنعه « آفاك » الراهب الأرضى عند ما جال فى ربوع الشرق الأدنى . فلقد استطاع هذا القسيس ذو الوجه النورانى الساطع أن يلقى فى نفوس بعض المؤمنين من الايحاء ما شفوا معه من بعض ما يشكون . وأمثال ذلك كثير بين قبائل الجنوب فى العراق الذين يأتون بمرضاهم ، وقد شل ما بهم من أعصاب ، إلى بعض الأماكن المقدسة فينال بعضهم الشفاء بهذه الطريقة البسيطة .

وخلاصة ما مر أن روح التدين صفة متأصلة فى النفس الانسانية ، منشؤها روح الأمل والرغبة خاصة بين أولئك الذين أرهقتهم الحياة بأعبائها ، فاضطروا إلى نوع من الخيال أشبه بأحلام اليقظة يسرون به عن نفوسهم الأذى والهم فيعدونها بفوز ويسر كبير . واستناداً إلى وجود هذه الروح كان نشوء الأديان شيئاً ملائماً لمزاج الأنسان أشد تلاؤم ، وقد ملئ به فراغ لم يكن لينفع تركه شاغراً غير مشغول . إذ جعلت الأديان من حياة المؤمنين حلماً فيه كثير من المتعة واللذة هما السبب فى سعادتهم واطمئنانهم إلى المستقبل .

— ٤ منطق الجموع ، وهو رابع هذه الأنواع الخمسة من المنطق التى افترض وجودها الدكتور جوستاف ليعلل بها مجاميع من الظواهر الاجتماعية والنفسانية المتباينة والتى تشعر بنزوعها جميعاً إلى خمسة أصول ، هى أنواع المنطق الخمسة. وعلى أننا لانذهب بعيداً مع الدكتور جوستاف فنقر هذا النوع الأخير قسما أساسيا لتلك الأنواع الأخرى ؛ لكننا نعتقد مع ذلك أن مظاهره واضحة خاصة فى مجتمعاتنا الحاضرة . فقد كان من الممكن أن نلحق هذا النوع بالنوعين الأخيرين لتفرعه عنهما فى الواقع . لكن ظهوره وبروزه وكثرة أمثلته وشدة فاعليته يستحب معها جميعاً أن نقرر له بحثاً مستقلا نجمل القول فيه .

فمنطق الجموع هو ميزة الجماعات التى تنتشر بينها الآراء والمعتقدات بالعدوى والتلقين . فقد تحركها كلمة صغيرة فتحملها على ثورة عاصفة تخشى خطرها أقوى الدول وأشدها منعة وأكثرها بأساً . وكم لقنت الجماهير آراء قلبت بها حكومات وأقرت أخرى بعد هيجان وضوضاء تم بها تنفيذ رغباتها بقوة وبأس . وكم عصف بالجماعات خطيب مصقع فأقلق بها الامن وزعزع بها السلطان . كل هذه حوادث عادية منشؤها تلك الروح المتأصلة فى الجماهير والتى تسندها شدة العدوى والتلقين فتسرى بهما الآراء والمعتقدات بين الدهماء والغوغاء فتوجد منهم قوة لاتقاوم .

وأول مبادئ السياسة فى الوقت الحاضر النزول على رغبات هذه الجماعات المتقلبة التى تعصف بها الميول المتذبذبة ، وتحاشيها على أى حال . والسياسى الناجح فى البلاد التى تبيح حرية الرأى والكلام هو الذى يعرف كيف يخضع لهذه القوى الهائلة وكيف يرضيها ؛ لا الذى يخلص أو يحاول السير

بموجب ما تمليه المصلحة وما يحتمه العقل. وهذه نتيجة مسلمة ما دام الحق كل الحق للجماعات أن تشاء أو لاتشاء أمراً بعينه مع قطع النظر عن نتائج أخرى قد يتحتم وجودها عن علل غير مقصودة .

وما الثورة الفرنسية إلا مثل صادق لهذا المنطق الذى استطاع أن يلعب دوراً مهما فى العصور الأخيرة ، بتطورات الحضارة والأحوال السياسية العامة . فلقد أدى قيام عدة أشخاص أفذاذ جردوا ألسنتهم وأقلامهم اللبقة فأثاروا شعباً دوخوا به العالم فيما بعد .

والخلاصة أن منطق الجموع هو الملكة التى تنشأ عنها الاندفاعات الجماعية بتأثير عدة عوامل من التحريض والترغيب والوعد والوعيد وتلقين الجماعات مبادئ أو آراء معينة لغرض من الأغراض .

وليس العقل هو الذى يملى على الجماهير الشيوعية فى بعض أنحاء العالم اليوم ثورة دامية مثل هذه ، لكنه المنطق العاطفى ومنطق الجموع الذى يمهد للخطباء والزعماء وذربى اللسان أن يحرضوا على انقلابات خطيرة يذهب ضحيتها ملايين من الناس .

٥ — أما المنطق الخامس فهو منطق الحياة وهذا هو أقدم أنواع المنطق فى الحيوان والانسان على السواء . وهو القوة الدافعة لارادة الحياة وحب الذات وحفظ الأنواع . فهو الذى يملى على الحيوان ـ ناطقاً كان أو أعجم ـ بفعل اللذة والألم ، أن يسعى من أجل حياته سعياً حثيثاً متواصلا لا هوادة فيه . وهو الذى يملى على الحشرة من الحيوانات الدنيا أن تأتى بأعمال لو كان منشؤها المنطق العقلى لتم تأليف علم من أوسع العلوم وأشدها خطراً . لذلك فهو ناحية غامضة تحيط بها الأسرار وتكتنفها الألغاز .

وهو أقدم أنواع المنطق لأنه يوجد فى الحيوانات كافة دنياها وعلياها على السواء . فكما أنه يبعث جماعات النحل على اتباع نظام جد معقد ودقيق للمحافظة على كيانها فهو الذى يبعث الأنسان ـ وهو أرقى الحيوانات ـ على اتباع مثل ذلك النظام للغرض نفسه . ولولاه لما كان للأحياء ميزة على الجماعات ، ولما كان للحياة قيمة ولا أثر على الاطلاق ؛ لأنه الدافع الأول لأرادة الحياة والمحرض على حب البقاء .

نظرة عامة

ثم استمر الدكتور جوستاف على هذه الوتيرة من البحث . فالمعتقد عنده راسخ لا تناهضه أقوى العوامل المنطقية وأشدها . والانسان لا يمكن أن يلبث بدون معتقد . فلو هرم عنده إحد المعتقدات وزال فسرعان ما يحل محله معتقد جديد بنفس الخصائص والصفات . والأمة عنده لاتستطيع أن تتخلص من ماضيها مهما طرأ على حياتها من التغير والتبدل . وهى مكبلة بما لها من العادات والطقوس التى يستدعى إلغاء أحدها ثورة جامحة بعد أن تدعوها مثلها العليا لمناهضة الخارجين على تلك النظم الأدبية الراسخة .

وروح الفرد قد تزلزل ببعض عوامل التربية والمحيط ، لكن روح الأمة ثابت لايتغير .

وكثيراً ما شجب سياسة فرنسا إزاء العرب فى أفريقيا الشمالية لأنها قد أخذت على

عاتقها تمدين هذه الأقطار ولو كلفها ذلك أبهظ الأثمان ، ناعياً على ساستها جهلهم بروح الأمة ورسوخها إلى حد لاتجدى معه أقسى السياسات وأعنفها .

أما الثورة الفرنسية فيرى أنها حركة أهدرت فيها الدماء ومثل أصحابها أشنع مايعرفه الانسان من البربرية والوحشية . فما أقسى روح الجماهير إذا ماسنحت لها فرصة الشغب والانتقام . وروح الأمة لا ترحم إذا ما استبدت بها الثورة والخروج على النظم . ويكاد يقرر بطلان النظم الديموقراطية التى تكهن أنها ستخرب فرنسا وستضعها فى أسفل درجة وأحط مكانة بين الأمم لما للجماهير فيها من الحرية التى تسوغ لها شن ضروب المعارضة والتهديد ؛ فأثار عليه بذلك ثائرة الكتاب فى فرنسا كلها . فكان مثله معهم كمثل الجراح ممسكاً بمبضعه يشرح به عقول ناقديه ضارباً بهم المثل على رسوخ المعتقد ونزوعه إلى العاطفة فى دائرة اللاشعور .

أما الفرد المتمدن عنده فهو الذى انفصلت روحه عن روح جماعته . وهذه هى ميزة المدنية الحاضرة التى نجحت إلى حد لا بأس به فى فصل روح الفرد عن روح الجماعة . فأول ميزات الجماعات البدائية أن روح الفرد فيها غير منفصل عن روح جماعته . لذا يعد أحد أفراد القبيلة المتوحشة مسئولا عن كل ما تقترفه جماعته إزاء قبيلة أخرى ، من هذا الطراز .

أما التربية عنده فلا أثر لها سوى صقل المواهب والاستعدادات الخاصة لازالتها أو تبديلها . فهى لاتفعل شيئاً سوى حفز العناصر النفسانية لاتغييرها .

وأما الينبوع الأول الذى يسيطر سيطرة تامة على نشأة الفرد ، فهو مزاج الجماعة الذى يشتق منه مزاج الفرد العادى . ومبادىء التربية عنده ضعيفة لاتلبث أن تتحطم على صخرة المعتقد والبيئة والمحيط .

[النجف] حسين محمد الطيب

شهرية السياسة الدولية

انقسام العالم

قضى الأمر ، وتجلى خلال الشهر المنقضى سعى العالم سعياً حثيثاً فى سبيل الانقسام . فقد تداعت الحوادث سراعاً نحو دعم التكتل فيما اصطلح فى اللسان الدبلوماتى على التعبير عنه بالشرق وبالغرب . والشرق يعنى فى هذا اللسان روسيا السوفيتية وما يتاخمها من أقطار متلاصقة فى البلقان وفى أوربا الوسطى إلى الخط الممتد من بحر الشمال إلى البحر الأدرياتى ما عدا اليونان والنمسا وبانضمام المنطقة الروسية من مناطق ألمانيا المحتلة . والغرب يعنى فى اللسان ذاته إنجلترا وفرنسا وبلاد بينيلوكس ومن ورائها الولايات المتحدة الأمريكية . وما بقى ، بعد الكتلتين من أمم العالم ، محل مشادة بينهما تريد كل واحدة منهما أن تظفر به كإيطاليا ودول الشمال أسوج ونروج ودانمارك ، أو تريد إحداهما أن تطمئن إليه الاطمئنان كله كاسبانيا ، أو تدخله فى حوزتها ادخالا محكماً كبلاد الشرق الأوسط على حد ما يسمون .

أزمة تشيكوسلوفاكيا

وقد تكون الأزمة التى حلت بتشيكوسلوفاكيا هى التى آذنت ببروز ذلك الانقسام التى كانت الجهود تبذل فى سبيله ، ولكن فى شىء من التستر والايهام . فقد كانت تشيكوسلوفاكيا ، وهى التى تكتنفها روسيا وبولونيا والمجر ويوغوسلافيا من ناحية والنمسا وألمانيا من ناحية ثانية ، واقعة بين الشرق والغرب ، راغبة فى الاحتفاظ بعلاقات حسن الجوار مع الطرفين ، وإن كانت فاقهة فى وعى مستند إلى ملابسات الحرب العالمية الثانية أن الاعتداء عليها قد جاءها من ناحية ألمانيا أول الأمر ، وأن إنقاذها قد أفاء به عليها الجيش الروسى آخر الأمر ، وأن حلفاء الغرب لم يحترموا ما كانوا قد تعاهدوا معها عليه فمكنوا منها قوات هتلر مرتين : حين ضم إلى جرمانيا الكبرى مناطق السوديت أولا ، ثم حين غزا سائر مناطقها ثانيا .

ولذلك فقد كتب عليها الميل إلى الاتحاد السوفيتى والحذر من دول الغرب ، وإن كانت تؤثر أن تستبقى علاقاتها الاقتصادية مع الجانبين . على أن الميل كان أقوى من سائر الاعتبارات إثر التحرر والعرفان للروس من أجله بالفضل ، فسرت فيها التعاليم الشيوعية ، وإن طبقت فى نطاق أضيق من النطاق السوفيتى . فقد ظل فيها الأخذ بمبدأ تعدد الأحزاب ، وظل فيها الأخذ بمبدأ الملكية الفردية ، وإن كان الحزب الشيوعى

أكبر الأحزاب نسبة — وهى قد بلغت الاثنين والأربعين فى المائة — وكان مبدأ التأميم قد نفذ فى المرافق العامة والمصارف والمناجم والملكيات الكبيرة التى انتزعت من ملاكها الألمان والسوديت الأقدمين ، والصناعات الكبيرة التى يزيد عدد العمال فى معاملها على خمسمائة .

وكانت الانتخابات قد جرت فيها لتأليف جمعية وطنية عهد إليها أمر إعداد الدستور الجديد على أن تجرى فيها انتخابات جديدة ينبعث منها البرلمان المستند إلى الدستور الجديد فى اليوم الثامن من شهر مايو المقبل . فأصبحت عاصمتها وأصبحت سلوفاكيا بخاصة مسرحاً لتنافس التيارين الشرقى والغربى قصد التأثير فى الجملة الانتخابية المقبلة كى تنتج كثرة تتجه إلى اليمين أو تتجه إلى اليسار ، ولا سيما بعد ما حدث لمناسبة عرض المساهمة فى مشروع مارشال التى قبلت أول الأمر ثم رفضت إثر زيارة قام بها رئيس الوزارة ووزير الخارجية إلى موسكو .

وبينما الأمور تجرى على هذا التنافس إذا بانقلاب أبيض يقع ؛ إذ يستقيل من الوزارة عدد من الوزراء اليمينيين ، وإذ يستبدل بهم عدد آخر من المؤتلفين اليساريين ، وإذ يمضى الشيوعيون ، وقد قبضوا على أزمة الحكم أكثر مما كانوا قابضين ، قدما فى طريق التنظيف قصد الاستعداد للحملة الانتخابية المقبلة التى يودون أن يضمنوا فيها الكثرة المتفوقة .

حينئذ أسقط فى يد الغربيين وراحوا يتهمون الاتحاد السوفيتى بأنه هو المدبر للانقلاب والدافع إلى تنفيذه ، وراحوا يتلمسون طرق المقاومة وسد الطريق فى وجه التسرب إلى ما قد يتجاوز الحد الفاصل بين الكتلتين .

إتحاد غرب أوربا

وكانت الولايات المتحدة تتوق إلى قيام نوع من التكتل السياسى فى أوربا يسير إلى جانب التكتل الاقتصادى الذى تعمل له عن طريق مشروع مارشال ، فدعا وزيرا الخارجية البريطانية والفرنسية إلى تأليف اتحاد غرب أوربا الذى كان قد نادى به من قبل مستر تشرشل فى حين من الأحيان . وكانت بلجيكا وهولندا ولوكسمبرج قد عقدت بينها حلفا يقرب اقتصاديات بعضها لاقتصاديات بعضها الآخر ويخلق منها جميعاً وحدة جمركية ، فاتجهت الدعوة إلى هذا الحلف القائم بالفعل ، وانتهت المساعى والمباحثات إلى عقد معاهدة بين فرنسا وإنجلترا وتلك الدول الثلاث الصغيرة بين دول أوربا الغربية تدخل فى عداد المعاهدات الاقتصادية وتتجاوزها إلى معاهدات المعاونات العسكرية مع الاحتياط فى جعلها داخلة فى نطاق أحكام ميثاق الأمم المتحدة . فذكر فيها بصريح العبارة أن التحالف العسكرى إنما يقصد به دفع محاولة الاعتداء من جانب ألمانيا ، كما ذكر أن إجراءات هذا التحالف إنما يرجع فى اتخاذها وفى تطبيقها إلى مجلس الأمن وفق نصوص المواد المتصلة به فى ذلك الميثاق . لكن ذكر فى المعاهدة من ناحية ثانية نص على الاستمساك بمبادئ الحرية الديمقراطية وعلى التضامن فى سبيل الدفاع عن هذه المبادئ إذا قام فى وجهها خطر أو قام فى وجه الأساليب الاقتصادية التقليدية . ومعنى هذا أن الحلف الجديد متساند فى

مواجهة الآراء الشيوعية والمحاولات التى قد تجىء عن طريق روسيا للنيل من الأنظمة الاقتصادية المعمول بها فى بلاد الحلف ، وهى الأنظمة الحرة والأنظمة الرأسمالية .

مباركة الولايات المتحدة

وما إن أعلن التوقيع على تلك المعاهدة الخاصة بالحلف الأوربى الغربى حتى قام الرئيس ترومان رئيس جمهورية الولايات المتحدة يبارك الكتلة الجديدة ويعدها بالتأييد كل التأييد فى خطاب رسمى وجهه للبرلمان الأميريكى ، وفى تصريحات ذكرت فيها روسيا السوفيتية ذكراً غير طيب ، ودعيت فيها سائر بلاد أوربا إلى الانضمام إلى الحلف الجديد ، بل قيل فيها بصريح العبارة إن المعاونة المالية التى يتضمنها مشروع مارشال قد تحرم منها البلاد التى تطغى فيها الشيوعية .

إيتاليا وإسبانيا وألمانيا

والمفهوم أن هذا التهديد إنما يقصد توجيهه إلى إيتاليا . فاليوم الثامن عشر من شهر ابريل هو اليوم المحدد لاجراء الانتخابات العامة تنفيذاً للدستور الجديد وتحقيقاً للبرلمان الجديد الذى ستنبعث منه الحكومة الايتالية الجديدة . والمراقبون للتطورات الايتالية يخشون أن تكون الكثرة فى هذه الانتخابات إلى جانب اليساريين من شيوعيين واشتراكيين مؤتلفين . والولايات المتحدة تنفر نفوراً من انسياب المبادئ الشيوعية إلى ما وراء « السور الحديدى » القائم الآن إلى الشرق من تريستا والى الشرق من إيتاليا ، والمقول إنها قد تلجأ إلى أخطر الخطوات إذا أسفرت الانتخابات الايتالية عن هذه الكثرة ؛ ولذلك فهى تؤثر أن تلجأ إلى تهديداتها المالية لعلها تقنع بها الايتاليين كى يبتعدوا عن تأييد الشيوعيين ومن إليهم .

وكذلك فان مجهودات تبذل فى سبيل ضم إسبانيا إلى الاتحاد الغربى . وإسبانيا فى غرب أوربا بالذات ، بل هى فى أقصى هذا الغرب . وهى معادية للمبادئ الشيوعية وواقفة عند معاداتها من زمان . وإذا كانت هيئة الأمم المتحدة قد اتجهت يوما إلى مناوأة إسبانيا ونظامها الفاشى ، وأوصت جمعيتها العامة بقطع علاقات أعضائها الدبلوماتية مع حكومة الجنرال فرنكو ، وأغلقت بالفعل الحدود بين فرنسا وإسبانيا ، فان الأمور قد تطورت فيما بعد إلى الحد من الغضب على الحكومة الاسبانية القائمة ، وإلى فتح الحدود الفرنسية الاسبانية واستئناف العلاقات التجارية بين البلدين . وأغلب الظن أن سيتم فى القريب انضمام إسبانيا والبرتغال إلى الحلف الغربى . و بهذا يتم التكتل من المحيط الاطلنطى وغربى البحر المتوسط وغربى بحر الشمال .

وكذلك فقد تطورت الأحوال بالنسبة لألمانيا إلى حيث أصبح أمراً واقعاً أن فصل بين شرقيها وغربيها ، بين المنطقة التى تحتلها الجنود الروسية ، والثلاث المناطق التى

تحتلها القوات البريتانية والأميريكية والفرنسية . والمنتظر أن تعمل السلطات العسكرية الثلاثية فى ألمانيا الغربية لضمها إلى الحلف الغربى ، كما تعمل الولايات المتحدة لاضافتها إلى قائمة المفيدين من مشروع مارشال .

وإذن فسيكون الانقسام قد حددت معالمه على نحو ما تقدم بين الكتلتين .

لكن لا حرب

لكن هذا الانقسام لايعنى فى نظرنا أن الحرب واقعة لا محالة على حد ماتذيعه هذه الأيام نذر التشاؤم فى كل مكان . فليست الحرب من الأمور الهينة التى يقدم عليها الناس ولما ينقض وقت على التئام الجروح التى سببتها الحرب العالمية الثانية ، بل لما تتهيأ فرص الانطلاق من قيود التمهل التى فرضها التخريب والتدمير اللذان حلا ببلاد أوربا كلها .

وكل ما نستطيع تصوره إنما هو تبين الحدود الفاصلة بين المنطقتين المتخاصمتين ، وتسابق كل منهما فى سبيل الاكتفاء الاقتصادى ، وترك التعاليم وحدها تتناطح وتتحارب إلى أن تستوى الاستعدادات فتنطلق إلى انفجار عالمى ثالث أو إلى تغلب تيار فكرى اجتماعى على التيار الآخر ، فيعود إلى العالم نوع جديد من الهدوء والاستقرار .

محمود عزمى

شهرية العلم

كوكبنا الصغير

صفة الغرور طبيعة من طبائع بنى البشر وقلما تجد إنساناً خلواً منها ، وغاية ماهنالك أنها تختلف شدة وضعفا من فرد إلى آخر . من مظاهر هذا الغرور مثلا اعتقاد الأم فى تميز أطفالها من جميع الأطفال ، وأن الأعمال التى يقومون بها يعجز عنها أمثالهم . كذلك الغرور يؤدى إلى تمجيد الرجل لمنزله أو أرضه أو وطنه . فالمصرى يعتقد أن مصر هى « أم الدنيا » ، والانجليزى لاشك عنده أن جزيرته الصغيرة المحبوبة لاتعدلها بقعة أخرى من بقاع العالم . فلا غرو إذن أن يتوسع الانسان فى هذا قليلا فيعطى الكوكب الذى يسكنه أعظم أهمية، فيعتقد كما فعل قدماء اليونان أن الأرض هى مركز العالم ، وأن جميع الأجرام السماوية الأخرى كالشمس والقمر والنجوم تدور حولها فى محيطات دوائر متحدة المركز ، وأن الأرض التى لاتتحرك هى مركز هذه الدوائر جميعا . على أنه كان هناك نفر من الفلاسفة حتى فى عصور اليونان القديمة أوسع أفقاً وأعمق تفكيراً ، فهداهم تفكيرهم إلى الاعتقاد بأن الشمس ثابتة وكذلك النجوم ، وأن الأرض والأجرام الأخرى هى التى تتحرك . إلا أن النظرية الأولى كان من معاضديها أرسطو فاكتسبت بذلك قوة جعلتها تطغى على النظرية الثانية وتمنعها من الذيوع .

ولكن المشاهدات التى قام باجرائها وجمع نتائجها عدد من الفلاسفة والرياضيين منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن الثانى بعده ، مهدت السبيل لظهور نظرية بطليموس فى أواسط القرن الثانى الميلادى .

وقد فسرت نظرية بطليموس كثيراً من المشاهدات التى جمعت حتى عصره تفسيراً دقيقاً ، إلا أنها اعتبرت الارض ثابتة وواقعة فى مركز العالم ؛ ولذلك جاء تفسيرها لحركة الكواكب معقداً . ومجمل هذه النظرية أن مسار كل كوكب عبارة عن محيط دائرة يتحرك مركزها على محيط دائرة أخرى مركزها قريب من مركز الأرض ولو أنه ليس منطبقا عليه تماما . ولتفسير التغير اليومى المشاهد فى السماء من شروق الشمس وغروبها وكذلك القمر والنجوم التى تتحرك بحيث تستعيد موضعها الأصلى فى ظرف يوم ، افترض أن الشمس محمولة على سطح كرة مركزها الأرض وكذلك القمر وكذلك كل كوكب من الكواكب الخمسة المعروفة عندئذ ، وأن النجوم تقع على أبعاد كبيرة جدا من مركز الأرض ولكنها متساوية ؛ ولذلك فهى تقع جميعاً على سطح كرة واحدة مركزها الأرض أيضاً ولكنها تحيط بالكرات السابقة كلها ، وأن هذه المجموعة من الكرات المتحدة المركز تدور حول الأرض من الشرق إلى الغرب دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة . وقد امتازت هذه النظرية على ما سبقها من نظريات بقدرتها على التنبؤ بوقوع الظواهر الفلكية بدقة كبيرة .

ولقد ظلت هذه النظرية مئات السنين متسلطة على الأذهان ولا يجرؤ على نقضها أحد ؛ لأن رجال الدين المسيحى فى أوربا نصبوا أنفسهم فى العصور الوسطى حماة للقديم ، وكانوا يعتبرون محاولة تناول

النظريات الخاصة بنظام الكون وأصل الخليقة بالتعديل والتبديل عملا عدائيا ضد الكنيسة والويل لمن يقدم عليه . ولكن هذا لم يمنع بعض كبار المفكرين فى العصور المختلفة من الشك فى صحة هذه النظرية ؛ لأنها ، رغم قدرتها على تفسير الظواهر الفلكية بدقة كافية ، معقدة تعقيداً كبيراً ، والعلم ديدنه البساطة . ولذلك استغل كوپرنيكس علاقاته الطيبة برجال الكنيسة العليا فى أوائل القرن السادس عشر وأعلن عن آرائه بكل حيطة وحذر على أنها محض افتراض ليس غير . وقد نقل كوپرنيكس مركز العالم من الأرض إلى الشمس قائلا إن الأرض والكواكب الأخرى تسير فى محيطات دوائر مركزها الشمس . وقد ظهر فى أواخر القرن نفسه فلكى كبير آخر هو تيكوبراهى أفاد الفلك كثيراً فى ناحية القياس ؛ فقد قام بتسجيل عدد كبير من الظواهر والمشاهدات بالدقة التى كانت تسمح بها آلات القياس فى عصره . ومن ذلك الحين أخذ علم الفلك يخطو خطوات سريعة واسعة نحو النظريات الحديثة الحالية فى نظام العالم وتكوينه .

واستمرت المشاهدات والظواهر الفلكية تجمع ، وتزداد بذلك المعلومات عن العالم ونظامه ، وتقدمت النظريات المبنية على هذه المعلومات تقدما كبيراً حتى تغيرت تغيراً جوهريا يثبت فيما يثبت تواضع العالم ، وأن الغرور داء لا يصيب عادة سوى الجاهل إذ ما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى وصل العلماء إلى نظرية أبعد ما تكون عن النظريات القديمة . فهم لم يكتفوا بالنزول عن ادعاء أن الأرض هى مركز العالم بل إنهم أيضاً نفوا عن الشمس هذه الصفة ، واعترفوا أن الشمس ما هى إلا نجم واحد مثل هذه الآلاف بل الملايين من النقط المضيئة التى قد نراها فى السماء بالعين المجردة وقد لا نراها بأقوى المنظارات ، بل إنها ليست بأكبر هذه النجوم ولا من كبرياتها ، وأن الأرض ما هى إلا كوكب من صغريات توابعها الثمانية المعروفة عندئذ والتى تدور حولها . واهتدوا بأبحاثهم إلى أن المجموعة الشمسية بأكملها متحركة نحو هدف معين .

ولا تختلف آراء تلك الفترة عن الآراء فى وقتنا هذا فى الجوهر إلا فى جهلها بتاريخ العالم ؛ فقد كان يرضيهم تسنين العالم بحوالى ستة آلاف سنة فى حين أن الاعتقاد الحالى فى عمر الحياة على سطح الأرض وحدها يقدر بنحو أربعمائة مليون سنة . كذلك تختلف فى عدم معرفتها أى شىء عن طبيعة الأجرام السماوية ؛ لأن محلل الطيف لم يكن قد اكتشف بعد . أما الآن وقد اكتشف هذا المحلل واستعمل بنشاط عشرات السنوات فقد عرفنا ، أو على الأقل نظن أننا عرفنا ، الشىء الكثير عن تركيب عدد كبير من الأجرام السماوية ودرجة حرارتها وكيفية حركتها . ومن بين ما عرفناه من ذلك أن أقرب نجم لنا يبعد عن الأرض قدر البعد بين الشمس والأرض ربع مليون مرة ، وهذا بعد عظيم حقا متى عرفنا أن الشمس نفسها تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال . كما عرفنا أن كثافة النجوم قد تكون من الكبر فى بعضها بحيث تساوى كثافة الماء ستين ألف مرة ، وقد تصغر حتى تصل إلى أقل من جزء من مائة من كثافة الهواء . وغير ذلك كثير مما يشبه العجائب اتضح لنا وما زال يتضح باستعمال الأجهزة الحديثة وتطبيق النظريات الجديدة .

حسن محمد حسين

شهرية السينما

الحياة فى سلام (لوكس فيلم) [1]

هـذا فيلم آخر عن حركة المقاومة فى إيطاليا أثناء الاحتلال الألمانى . وهو لا يمت بسبب إلى هـذه الأفلام الأمريكية التى كنا نشهدها فى فترة الحرب الأخيرة والتى كانت تتشابه تشابها دقيقا، حتى ليخيل إلى من يراها أنها وضعت وفق نموذج خاص . وكانت العناصر التى تأتلف منها القصة واحدة لا تتغير : فالقصة تقع فى ميدان من ميادين الجاسوسية ، أو فى ميدان من ميادين نشاط الفدائيين ، وتطلعنا على دقائق نشاط أولئك وهؤلاء . وكان الفيلم لا يخلو من خطر عظيم يتعرض له الفتى الأول ولا ينجح فى إنقاذه منه سوى عشيقته . كل هـذا كنت تجـده فى الأفلام جميعها ولا تجـد مطلقا صورة واقعية إنسانية لهؤلاء الذين جاهدوا فى سبيل الحرية . إن القوة والعنف والدمار والقتل والخيانة مجتمعة فى هذه الأفلام جميعا فى حين أنك لا تجدها فى الأفلام الايطالية مع أنها أكثر واقعيـة من الأفلام الأمريكية .

ففيلم « الحياة فى سلام » هو من قصص المقاومة ، ولـكن من القصص الهادئة التى لا تصور عنفا وإنما كلها يسر وهدوء ورفق . فالحوادث تسير سيرا هادئا بطيئا لا تعنف بالشخصيات بل هى رفيقة بهم كما هم رفيقون بها . فأنت لا تقف فى أى لحظـة من لحظات العرض على اختلاط فى الأمور أو عنف فى تصرفات أشخاص القصة . فهى تصور صورة صادقة أمينة لحيـاة الريف الايطالى أثنـاء الاحتلال الألمانى ، وصورة واقعية صافية لحياة هؤلاء الريفيين الذين لا يرومون إلا إلى أن يحيوا حياة هادئة مطمئنة . وتسير الأمور كذلك إلى أن يظهر أسيران أمريكيان . فما يكادان يظهران حتى تضطرب الأمور اضطرابا هادئا يسيرا ؛ لأن الريفيين يأبون أن يعنفوا بهما فلا يرفضون أن يمدوهما بالمساعدة رغم الخطر الذى يهددهم من هذه المساعدة . وهـذا الخطر لا يدفعهم مطلقا إلى أن يعنفوا بالألمان . والدافع الوحيد إلى هذا الرفق بأولئك وهؤلاء إنما هو دافع إنسانى فحسب . فهم يساعدون الأمريكيين لأن هذه المساعدة فرض يفرضه شعورهم الانسانى . وهم لا يحاولون أن يقتلوا الألمان لأن هـذا القتل يأباه شعورهم الانسانى . وكذلك تسير القصة إلى أن يصل الجيش الأمريكى فتنقذ القرية من مخالب الألمان .

وقـد أراد المخرج أن يصبغ إنتاجه بطابع واقعى ، فلم يلجأ إلى تشييد المناظر وإنما صـور ركنـا من أركان الريف الايطالى بأشجاره الجميلـة وجبـاله الشامخة وحقوله الغنية ، وقد ساعدت هذه المناظر على تحقيق جو هادئ لهذه القصة الهادئة .

والممثلون أيضا وخاصة ألدو فابريتزى

---

(1) Vivere in Pace *(Lux Film)*

قد ساهموا بتمثيلهم الطبيعي اليسير الذى يأبى العنف ويبتعد عنه كل البعد فى انشاء هذا الجو . فأنت لا تلمس مطلقا فى إيماءاتهم وتعبيراتهم أنهم يمثلون أمام آلة التصوير ، وإنما تشعر شعورا قويا أنهم يحيون على الشاشة لحظة من لحظات الحياة الريفية إبان الحرب الأخيرة .

وكذلك سجلت السينما الايطالية انتصارا عظيما حين أخرجت هذا الفيلم فى أسلوب فنى لم تصل إليه ستوديوهات هوليوود وهى تخرج أفلامها عن ٠ ركات المقاومة .

المطارد إخراج جون فورد (ر. ك. و.) (١)

« والمطارد » فيلم من أفلام الدعاية ، ولكنه من هذا النوع الذى يستر غرضه الأساسى تحت ستار قصة جميلة وإخراج لا نحظى بمثله إلا من حين إلى حين . فالدعاية هنا مهما يكن لونها محببة لأنها قد اتخذت سبيلا غير مباشر واستترت حتى كادت تفوت الشاهد ، فكان أثرها أقوى لخفاء وسيلتها .

إن مشكلة « المطارد » هى مشكلة الايمان يعرضها علينا المخرج فى أسلوب رمزى . فالقس فى هذه القصة يمثل الايمان القوى الذى ما يكاد يقضى عليه حتى يبدو أشد ظهوراً . فهذه الدولة التى لم يحدد لها مكان فى القصة قد خيل إليها أنها إعدمت القساوسة جميعا لتمحو من الشعب إيمانه بالدين وتنقذه من شعوذة رجاله . ولكنها فى الحقيقة لم تكد يخيل إليها أنها قضت عليهم جميعا حتى يتضح لها أن هناك قسا قد أخذ الشعب يلتف حوله . فطفق رجال الشرطة يكافحونه بشتى الوسائل وهو يكافحهم بوسائله فينتصر عليهم حينا ويتخاذل أمامهم حينا آخر . ويستمر هذا الانتصار وهذا التخاذل الذى يعقبهما الهرب تارة والعودة إلى الكفاح تارة أخرى حتى يقتل القس . وما يكاد يقتل حتى يظهر قس آخر ليعيد المأساة نفسها .

فهؤلاء الذين يريدون أن يقيموا دولا قوية لا دين فيها يريدون أن يحققوا شيئا مستحيلا ؛ لأن الايمان نبتة مغروسة فى نفوس الناس ما تكاد تقطع حتى تنبت مرة أخرى . فرجال الشرطة ما يكادون يقتلون قسا حتى يأتى قس آخر يتمم عمل من سبقه . هذا هو الرمز . أما الدعاية فهى تقصد دولا بعينها ونظاما اجتماعيا بعينه قد لفظ الدين ورجاله أو على الأصح قد أراد ألا يكون للدين سلطة فى الدولة .

وإخراج الفيلم رائع هيأ لنا مناظر وصوراً جميلة . ويبدو أن المخرج يميل إلى هذا النوع من الصور الذى يجمع بين الظل القاتم والضوء القوى ، فيبدو جمال الصورة من هذا التناقض الناشئ بين الظل والنور . كما أنه يعطى الصورة قوة تعبيرية قلما نجدها فى أفلام أخرى . فالمخرج حين أراد أن يصور منظر قتل القس قد هيأ درجاً مرتفعاً ، يبدو للشاهد فى الصورة أنه يصل الأرض بالسماء ، أسفله مظلم وأعلاه مضاء إضاءة شديدة . فكأن القس وهو يرتقى هذا الدرج يصعد إلى السماء . وهناك منظر آخر

The Fugitive (*R. K. O.*) (١)

قد أعقب هذا المنظر وهو قوى التعبير أيضاً : ما يكاد يموت القس حتى يرينا المخرج بعض المتدينين قد اجتمعوا فى مكان مظلم ، وإذا بباب المكان يفتح فجأة ويظهر القس الجديد وقد أغرقه المخرج فى ضوء شديد حتى يبدو كأنه شبح ،ونسمع هذه الجملة : «أنا القس الجديد ، جئت لأقيم بينكم . »

ولم يكن التمثيل أقل روعة من الاخراج . فدلوريس دلريو ، وكانت تمثل دور فتاة ريفية ، قد أتاحت بتعبيراتها تسجيل صور جميلة : فمنظر الكنيسة فى أول الشريط لا يسجل إلا وجه هذه الممثلة مصوراً من قريب حتى كاد يملأ الشاشة . ولم يكن أسلوب هنرى فوندا وبدرو ارمندارز ، القس والشرطى ، فى الأداء والتمثيل أقل شأنا من أسلوب دلوريس دلريو . فساهم التمثيل على تحقيق إنتاج فنى جميل .

سجا الليل إخراج بركات (اتحاد الفنيين)

هذا الفيلم المصرى الذى اختارته قاعة ريفولى الجديدة يسجل انتصارا كبيرا لصناعة السينما فى مصر . فهو رغم قصته يثبت لنا أن المخرج المصرى يستطيع أن ينتج انتاجا فنيا موفقا إن أراد أن يكون انتاجه فنيا موفقا .

وأول ميزات « سجا الليل » أنه يخلو تماما من الغناء والرقص . والأفلام المصرية التى تخلو من الغناء والرقص قليلة . فالمخرج هنا قد نجح فى أن يهمل هذين العنصرين اللذين يعتمد عليهما المخرجون المصريون فى أفلامهم ، وأن يوجه عنايته إلى عناصر أخرى هيأت له أسباب التوفيق والنجاح . فقد عنى المخرج خاصة باختيار مناظر تدل على حسن الذوق وإن كان قد أسرف فى حشد أثاث كثير فى هذه المناظر واستعمال آلة التليفون حين يضطر إلى ذلك وحين لا يضطر إلى ذلك . وقد عنى بالصورة أيضا عناية خاصة،فلم تأت بيضاء كما ألفناها فى الفيلم المصرى عامة ، بل كان فيها شئ من الظل جعلها أكثر وضوحا . كما أن تصوير الممثلين قد أصاب شيئا من التوفيق فلم تبد ملامحهم مضخمة مشوهة . غير أن المخرج لم يتح للصورة أن تعبر تعبيرا قويا ، واستعان بحوار لم يكن له ثمة فائدة . أذكر مثلا المنظر الأخير من الفيلم ، حين ترك الزوجان صديقهما المريض وقد عاد إلى كل منهما صفاء النفس . فيصور المخرج هذا الصديق وهو ينظر من وراء النافذة إلى الزوجين وهما يسيران فى الطريق يتكىء كل منهما على ذراع الآخر كأن كلا منهما سند للآخر ؛ فيهدأ باله ويعاوده شيئا من الطمأنينة والرضا قبل أن يستسلم للموت .

وقد يكون هذا المنظر أقوى تأثيراً وأكثر تعبيراً لو أنه قد جاء صامتا أولا — فهنا مجال للممثل وللمصور أن يظهرا قدرتهما على التعبير — ولو أن الطريق التى سار فيها الزوجان لم تكن طريقاً بعينها وإنما كانت مبهمة لتمثل الحياة . وهذا يؤدى بنا إلى أن الصورة التعبيرية فى الفيلم المصرى لاوجود لها ، وأن الحوار هو العنصر الأساسى فى الانتاج السينمائى . ولكن هذا النهج يتنافى مع فكرة السينما فى نفسها التى هى صورة أكثر منها حواراً . وإذا كان صحيحاً أن الفن التمثيلى هو النقل الصادق عن الحياة فلابد أن تبدو القصة التمثيلية

واقعية وصحيحة . أما قصة « سجا الليل » فلم تبد واقعية ولا صحيحة ؛ لأن مؤلفها قد عبث بالقوانين التى تسود الطبيعة وتنظمها وتسيرها ، ولأنه قد عبث بالقواعد النفسية فى وضع حوادث القصة ، وعبث أيضاً بالقواعد الطبية ليخلق لقصته عقدة ملفقة مصطنعة . فأنت ترى طبيباً شاباً صحيح الجسم قوى البنية يعشق فتاة عشقاً قوياً ، ويهيم بها هياماً شديداً ، والفتاة تبادله عشقاً بعشق وهياماً بهيام . وإذا به فى ذات يوم وهو يجرى نحوها ليخبرها أنه سيتزوج بها يكتشف فجأة من حيث لايدرى هو ومن حيث لايدرى شاهد الفيلم أنه مريض بالسل ، وأن هذا المرض قد عبث برئتيه عبثاً شديداً وقطع مرحلة كبيرة ؛ لأن الشاب ما يكاد يسعل حتى يبصق دماً . وحينئذ تضطرب أمور هذا العشق وينقلب نعيمه إلى شقاء متصل ، فيشقى الفتى لأنه فقد السبيل إلى تحقيق أمانيه ، وتشقى الفتاة لأنها قد فقدت السبيل إلى الحظوة بمن تحب . ويستمر شقاؤهما ويشتد لأن الفرقة قد جعلت من حياتهما الهادئة المطمئنة حياة قلقة مضطربة . وتسير الأمور كذلك إلى أن يموت الطبيب العاشق تاركا عشيقته فى أحضان صديق له .

فهنا المؤلف قد أغفل ما وضعه علماء الطب من قوانين وما وضعه علماء النفس من قواعد ليسوق إلينا مأساة ضعيفة كأن الحياة فى مصر لاتقدم فى كل يوم بل فى كل ساعة مأساة عنيفة : فالذين يشقيهم الظلم والفقر والمرض غير قليلين ، والذين تعذبهم أنفسهم الأبية غير نادرين . ولكن التصوير الصادق لهذه الحياة قد يسئ إلى المؤلف الذى يأمل أن يكسب من قصته مالا وفيراً ، وقد يسئ إلى الشاهد الذى لا يريد حين يلهو أن يعرف أن هناك أناساً يتعذبون ، فيهمل المؤلف والمخرج والشاهد هذه الحياة البائسة وينصرفون . إلى العبث

وإذا كان الفيلم قد أصاب توفيقا كبيرا فى الاخراج والتصوير فلم يصب توفيقا كبيرا فى التمثيل . لأن النجاح والاخفاق قد اقتسم هذه الناحية مناصفة : فقد نجح الأستاذ محمود المليجى فى أداء دور والد الفتاة ، وأصاب الأستاذ عماد حمدى حظا يسيرا من التوفيق فى أداء العاشق المريض ، على حين لم يتح للآنسة ليلى فوزى أن تؤدى دور الفتاة أداء صحيحا صادقا . فأنت أمام مشيتها وإيماءاتها ، وهذه المساحيق التى كانت تعلو وجهها وتفسد من تعبيراتها لا تشعر أنها تمثل دور فتاة من أسرة كريمة .

ومهما يكن من شئ فهذا الانتاج المصرى يعد خطوة كبيرة خطتها السينما المصرية فى سبيل الكمال الفنى . ولعله يكون بادرة لنهضة فنية قريبة الحدوث . فكل شئ محتمل الوقوع !

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

IL FAUT DE TOUT POUR FAIRE UN MONDE

ETIEMBLE

لا بد أن نأخذ من كل شيء جانبا ، لننشيء عالما *

عرف قراء « الكاتب المصرى » مارسل أرلان ، حين ترجمت فيه لهذا المؤلف ذى الأسلوب الرائق ، قصتان صغيرتان . والآن ، وقد قرأت هاتين الأقصوصتين فى الكتاب « لا بد أن نأخذ من كل شيء جانبا ، لننشئ عالما » الذى يضمهما فى وحدة أجدرها ألا تنفصلا عنها ، فانى أكاد أستشعر الأسف لأن جانبا من جمهور القارئين بالعربية ، قد عرف هذا الكتاب الرائع على ذلك النحو . ذلك لأنى أحسست أن الكتاب (كما يقول مارسل أرلان بحق فى مقدمته القصيرة) : « ليس مجموعة من الأقاصيص . فكل أقصوصة فيه قد أنشئت وكتبت لتشغل موضعا معينا لها فى الكتاب ، سواء أكان ذلك من ناحية المكان ، أو الجو الذى تعيش فيه الشخصيات ، أو موضوع الشخصيات ، أو طرائقهم فى الحديث أو حتى من ناحية حجم الأقصوصة ذاتها .

« وعنوان إحدى تلك الأقاصيص « لزجاج نافذة » يمكن أن يكون عنوانا للكتاب بأكمله . ذلك لأن تلك الأقاصيص تحاكى نقوش زجاج النوافذ فى كنيسة ريفية . ومهما بدت شخصياتى متواضعة سيئة التصرف ، فانى أحس أنها لا تقل كمالا ولا جيشانا عن أبطال المآسى . »

وإن مارسل أرلان الذى امتاز بمقالاته فى النقد قبل أن ينال جائزة جونكور بكتابه *L'Ordre* ، والذى كان يدير قسم النقد القصصى بالمجلة الجديدة الفرنسية *Nouvelle Revue Française* أيام جان بولان ، لقاص قدير يستطيع الحكم على آثاره الأدبية . حقا إن الأمر لأمر زجاج نافذة ذى صور متباينة ألوانها ، ولكنها بفضل الضوء المنسكب تطبع فى النفس صورة ساحرة غامضة مؤتلفة ألوانها .

« لا بد أن نأخذ من كل شئ جانبا ، لننشئ عالما . » تلك كلمة سائرة ، تكاد تكون قولا مأثورا ، وذلك حق أو على الأقل كل شئ يسير كما لو كان من اللازم أن نأخذ جانبا من كل شئ وبخاصة جانبا من الشر ، لننشئ عالمنا . وفى الكتاب ثلاث أقاصيص تحمل هذا العنوان العام : المغسل ، السيد ليونار ، فى بيت الأرملة . فهذه الأقاصيص الثلاث تعرض علينا مشكلة الشر المعقدة فى صورة حية مهما تباين ما نصادفه فيها من شخصيات ، أطفالا كانوا أو مراهقين أو شيوخا . وهو يعرض لهذه المشكلة فى تحفظ دون أن يظهر شيئا من تلك الوحشية التى عودتنا إياها خلال مائة عام القصص المسماة « واقعية » .

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

فنحن لا نكاد نستشعر الواقعية فى أقاصيصه وهو لا يذكر القلق الجسدى إلا فجأة وفى قصد ، وخاصة فى أقصوصة « المغسل » فيصل بذلك إلى التأثير فى نفوسنا . وربما استطعنا أووجب علينا أن نقول إن هذه النظرة لعالم الشر لا تتفق ومبدأ الكاتب المسيحى الذى لا يستطيع مطلقا أن يوائم بين نفسه وجسده . وفى الحق أنه مهما خفت مسيحية أرلان فانه لا يستطيع بنظرته إلى الشر ، أن ينكر إلى أى حد تحيا الأخلاق المسيحية المجردة من المراسم لدى أكثر الفرنسيين حرية فى الفكر . ذلك لأن من يعيش مثله فى القرية ويعرف الريف يجد مظهرا آخر من مظاهر الشر والخطيئة لا يقل عن غيره عنفا ، ألا وهو حال الأجراء حين تقارن بحال المزارعين ، أو حال المالك الذى يجنى غلات أرض تزرعها أيد كليلة خشنة تكاد تشلها حركات العمل . وهناك أخيرا « الخبراء المهندسون » الذين يتطفلون على الأجير والمالك معا ، ودارهم التى تعد مع دار طبيب القرية والكاتب والصيدلى ، أرفع دور فى القرية ، لا تقوم إلا على عرق الفلاح . فاذا انتهينا من ذكر ذلك التحفظ الهام (ومارسل أرلان يقول ، دون أن يذكر سببا ، حتى لو تغير نظام الأرض فان عواطف أهل الأرض لن تتغير كثيرا أو قليلا) . فلنعترف أن لهذا الكتاب مزايا تجعله من خير ما كتب أرلان .

لقد بدأ كالجميع بأن ثار على النظام الاجتماعى ونظام العالم (كتب *L'ordre* عام ١٩٢٩) ، ثم فعل ما يفعله كل من يقدرون أنفسهم فاستشعر إغراء المطلق من الأشياء ، والتمس فى حب الزوجين ربا إنسانيا لعاطفته الملائكية . فأخرج « البحار الحارس » . ويكتبه « أرض الوطن » و « زليل الصحراء » و « أجمل أيامنا » أخذ يسلك سبيل الحكمة . فهو راض بحاله فى القرية قريبا من الأرض ، ومن القوم المتواضعين الذى يعملون فيها ، وهو يوائم بين نفسه وبين الحياة وما فيها من عظمة .

وكما يسود الموت والحياة حياتنا ، كذلك هما يسودان أقاصيصه . ففيها ترى أنواعا من الحب : الحب الزوجى المشروع ، والحب غير المشروع . وفيها تلقى الأرملة والفتاة الأم . وهناك حتى المرأة العاجزة التى تموت على فراشها التعس وهى تلد أول طفل لها . وهناك الخطيبة أيضا ، خطيبة الشرطى . وهكذا نلقى كل أنواع الحب . ذلك لأن الريف الفرنسى مربى دافئ تنمو فيه أغرب العواطف . ثم أليس من الواجب أن نأخذ بطرف من كل شئ لننشئ عالما ؟

ولا بد أيضا من الموتى ، من كثير من الموتى لتصحيح ما تؤدى إليه العواطف العنيفة من أخطاء . لا بد من موتى بقدر عدد الأحياء [1] . والموت فى القرية عديدة صوره ، شأنه فى ذلك شأن الحب ؛ فهناك السرطان ، وعودة الميت إلى مسقط رأسه . وهناك موت العريد ، ذلك الموت الجميل فى شناعته . وهناك موت المرأة العجوز نورين ، ذلك الموت الجميل حقا . وهناك الدور الذى تلعبه المقبرة فى الأقصوصة « على القبور » . ففيها نرى المرأة العجوز التى لا تحيا إلا بموتاها . فهى تعمل وتنظف وتجلو : « كان الواجب أن تضم هذه القبور العشرة فتنطوى فى قبر واحد ضخم يسود المقبرة كلها ، فيه كهوف وعليه صلبان منحوتة ، وغطاء من الرخام

---

(١) «الأحياء» هو أيضاً عنوان كتاب لمارسيل أرلاند .

تعلوه المشاعل والتيجان الخالدة وأزهار الكريزانتيم . عندئذ تستطيع تلك العجوز أن تؤدى فى كرامة ، صلاتها الأليمة من أجل الموتى ، تلك الصلاة التى فنيت فيها . قبر ضخم تجد فيه الأسرة كلها ملجأ أمينا . الأسرة كلها حتى أنسباؤها : زوجة الابن مثلا . لا أحد يرجو لها شرا . ولكن المسكينة رقيقة الصحة . والابن الأصغر حين يحين حينه ، بعد عمر طويل (مهما بلغ به العقوق فسندفنه كابن من أبنائنا) . والابن الأكبر مع شديد الأسف ، فذلك أمر لا بد منه ، الابن الأكبر ، رئيس الأسرة . قبر ضخم فخم تكمل فخامته بموتها هى .

العمل ، والحب ، والشر ، والموت ، وفتيان يموتون فى ريعان شبابهم ، وكهول يهربون وهم فى عبثهم الصبيانى ، وخيار ومتوسطون وأشرار . جانب من كل شئ لننشئ ذلك العالم : عالم قرية فرنسية . ويقول مارسل أرلاند : « والعالم الذى ينشئه كل أولئك قد يبدو محزنا شيئا ما ، ومجازفاتهم ومصايرهم قد تكون قاسية شيئا ما . ولكن هذا العالم رغم كل ذلك لا يدعو إلى اليأس . » وذلك صحيح ؛ أولا لأن مارسل أرلان يبدع فى إبراز ناحية الرحمة الالهية فى كل حياة يعرضها مهما كانت متواضعة ، تلك الرحمة التى تتدارك الحياة فتنقذها . وانظر إلى قصة ذلك الشرطى الخشن الذى خطب فتاة أحبت شخصا آخر كان قد اختفى ، وانظر إليه حين يذهب فى الليلة السابقة للزفاف ، يدفعه نداء تلك الرحمة الالهية التى همست فى أذنه « حان الوقت أيها الشرطى فأسرع » فاذا بهذا الخشن الثقيل يقفز درجات السلم أربعا فأربعا ليختطف من يدى حبيبته السم الذى كانت توشك أن تتناوله . نعم ! لم يكن صاحبنا شرطيا عاديا . لقد كان رئيسا « لنقطة » البوليس . فالرحمة الالهيه تتدارك إذن أكثر الناس تواضعا . وزيادة على ذلك فهناك الله ليساعد القرية ، هناك عدالة الله . فعند ما تموت عشيقة باشوم شر ميتة ، تقول القرية : « هذا عدل الله » . وعند ما يلعب سيزار مع منافسه دورا قذرا ، يقولون : « نعم هناك عدالة فى الحياة . » فاذا أصابت الصاعقة ابنا بارا فى الرابعة والعشرين ، صاح القوم : « الموت يذهب بخيارنا » ، وتلك إرادة الله . وهذا لا يمنع لحسن الحظ أن تبلغ نورين التسعين وتتجاوزها . أليس الله عادلا ؟

فلا يأس لدى هؤلاء الناس ، وحياء الكاتب يضفى على تلك الأقاصيص المرحة المكشوفة تقريبا « زواج قيصر » ، « الغرفة » *La Chambre* شيئا من التحفظ والوئام والسلام ، وجوا من الشعر أحيانا مما يتيح لكل شئ أن يكون مستساغا .

كلا ! ليس هذا العالم يائسا ، إنه عالم ينتظر شيئا ما ! أى شئ ؟ ينتظر عالما آخر إن شئت ، ينتظر ذلك الفردوس الفانى قليلا فقليلا حيث لم تستطع نورين — بعد أن بلغت زوجها الميت ولاحظت أنه ما زال يمشى وهو يضغط حذاءه — أن تجعل صوتها يصل إلى مسامع رجلها : « وكانت قد نسيت ما تريد أن تقوله . ذلك لأنه لم يبق فى وضح النهار من تلك العجوز الضئيلة التى ماتت فى أول الصباح ، إلا شبحا إنسانيا ضئيلا ، متوترا بعض الشئ ، قبيحا شيئا ما ، شبحا أخذ يشحب ويذوب ثم اختفى . »

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

ابنيابل

من وراء البحار

دولتا الهند وباكستان

درج الكتاب البريطانيون الذين يعالجون المسائل السياسية منذ إنشاء دولتى الهند وباكستان على النظر إلى مشاكل الهند بنظرة أقرب إلى التشاؤم . ولكن سير برسيفال جريفيث ، وهو المستشار السياسى لاتحاد الهند وبورما ، ينظر غير هذه النظرة فى مقال كتبه أخيراً بعد أن عاد من زيارة لدولتى الهند وباكستان ، ونشرته له مجلة القرن التاسع عشر فى عدد فبراير . وقد بدأه بلوم الكتاب المتشائمين الذين يرددون القول بأن الهند القديمة صارت حرة الآن ، ولكن السلم البريطانى زال عنها ، وصارت البلاد منقسمة ولا يمكن إنساناً أن يخترق ظلام المستقبل .

وهو يرى أنه يجب أن تعكس هذه الأقوال ، فيقال إن الهند القديمة منقسمة ، والسلم البريطانى قد زال عنها ، والمستقبل غير أكيد ، ولكن دولتى الهند وباكستان يتمتعان بالحرية وفيهما روح جديدة ، وقد استيقظت فى نفس الشعب الرغبة فى العمل والاصرار على أن تكون البلاد عظيمة . فهو يرى أن العزيمة ماثلة فى الدولتين ، وأن المراقب العادل لايستطيع إلا أن يرى مثل هذه العزيمة فى زيارة قصيرة إلى كراتشى ودلهى عاصمتى الدولتين ، وأن المرء إذا تجاهل هذه العلامة فانه فى هذه الحال سيخطىء قراءة الحاضر والمستقبل لهذه البلاد .

أجل! إن العلائم الخارجية لاتبعث على الرضا ؛ فالهند وباكستان تكادان تكونان فى حالة حرب ، والانفصال الاقتصادى تام بينهما ، ويبدو بالنظرة العابرة أنهما يسيران فى الطريق التى سبقتهما اليها الصين ، وهى طريق الفوضى والتعاسة ؛ ولكننا نرى فى الدولتين الحديثتين قوى روحية كبيرة بادية للعيان .

ثم أخذ المؤلف يبحث الموقف فى الدولتين فيما يتعلق بالمسائل الداخلية ، ثم بالعلاقة بينهما ، ثم نظرتهما إلى العالم الخارجى .

ففيما يتعلق بالحالة الداخلية يمكن أن يقال إن بريطانيا نجحت أثناء حكمها فى تثبيت دعائم القانون والنظام فى الهند ، ويمكن أن يقال إن الحال فى الدولتين مرضية بالنسبة للقانون والنظام ؛ فان إدارة البوليس تسير فى عملها سيراً طبيعياً بالرغم من المشاكل العديدة الناشئة عن إيجاد الدولتين وتنقل السكان . وفى مدينة كبيرة مثل كلكتا نجد أن الحالة تفضل بكثير ما كانت عليه منذ سنة حين كان لا يمضى يوم دون وقوع حوادث واضطرابات ؛ ويعزى الفضل فى ذلك للزعيم غاندى ، ولكن إذا نظرنا إلى أن اللجنة التى تضع الحدود بين الدولتين قررت منح هذه المدينة لدولة الهند بالرغم من مطلب المسلمين ، فانه من المنطقى أن نعزو الفضل للمسلمين بالقيادة الرشيدة للسيدين جنة وسهراوردى .

وفى مدينة كراتشى عاصمة باكستان أمكنت المحافظة على الأمن ، ولو أن الكثيرين من الهندوس هاجروا منها خوفاً من أن يكون لحوادث البنجاب صدى فى نفوس أهل السند .

أما فى البنجاب فان مسألة القانون والنظام ذات علاقة وثيقة بالهجرة الكبيرة للسكان . وليست هنالك أرقام معلومة غير أنه يقدر أن ثمانية ملايين من السكان ، يكادون يكونون جميعاً من المسلمين والسيخ يرحلون عن ديارهم فى اتجاهين متضادين . وإيواء هذا العدد الضخم من الأهالى مشكلة كبيرة جدا لم تحل إلى الآن،غيرأن انسحاب السيخ من غرب البنجاب يكاد يكون تاما ، كما أن انسحاب المسلمين من شرق البنجاب كاد يتم ،وانتقلت المسألة من حيز القانون والنظام إلى حيز العلاقات الدولية .

وللسيخ مسألة أخرى ، هى أنهم تجمعوا فى قسم من البلاد صغير نسبياً يمتد من الشمال الغربى لدلهى إلى بلدة أمرتزار . وهم شعب مقاتل شديد المراس ، ويبلغ عدده نحو ستة ملايين ، وهو الآن يشعر حانقا بمركزه كأقلية ، ولا يزال يذكر المملكة التى أقامها فى القرن التاسع عشر . وسيظل هذا الشعب مبعث القلق لدولتى الهند وباكستان . وقد ظن فى وقت من الأوقات أنه لا يهدد غير باكستان ، أما الآن فقد وضح لجميع المفكرين من الهندوس أن خطر هذا الشعب يشمل الدولتين .

ومن الأخطار التى لها تأثير فى الحالة الداخلية للدولتين خطر الشيوعية . وليس من السهل معرفة المورد الذى يمد الحزب الهندي الشيوعى بالنظريات والأموال . وقد يقال إن اتجاهات هذا الحزب تختلف أحياناً مع نظرة الروسيين ، ولكنه يبدى من الحماسة ما تبديه الأحزاب الأخرى فى الهند. ولا شك فى أن حزب المؤتمر سيعمل للقضاء على الحزب الشيوعى . ولكن هذا العمل سيتطلب مجهوداً كبيراً ولا يمكن التكهن بنتيجته .

ومن المشاكل الرئيسية فى الدولتين تدبير الموظفين الذين يصلحون لتولى أعمال الادارة ؛ فان الدولتين تجدان نقصاً كبيراً فى إيجاد الرجال المدربين على الأعمال .

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الدولتين فان الأمور على أكبر جانب من التوتر . فباكستان تشكو من أنها لم تعامل معاملة عادلة فى تقسيم أداة الحكم،وإن دولة الهند لم تقم بتعهداتها فيما يتعلق بتبادل الأدوات الحربية ، وقد استعملت القوة فى جوناجادة وكشمير .

وتنكر دولة الهند على باكستان حقها فى قبول ضم جوناجادة ؛ لأن أكبر أهلها من الهندوس ، ولأن مركزها الجغرافى لا يسمح بذلك . وتبدو هذه التهمة غريبة من الهند التى ضمت إليها كشمير وهى البلاد الاسلامية. وتزعم الهند بأن باكستان شجعت القبائل على غزو كشمير ، وأنها بالرغم من الاتفاقات فرضت رسوماً على الجوت الذى ينقل من شرق البنغال إلى مدينة كلكتا .

ويتناقش أهل الدولتين فى هذه الخلافات ليلا ونهاراً . وتعتقد دولة باكستان أن دولة الهند ستحطمها إذا استطاعت . كما يعتقد الكثير من رجال دولة الهند أنه كان من الواجب عدم اقرار تقسيم البلاد إلى دولتين . ولكن مما يبعث على الرضا أن المفكرين فى الدولتين أخذوا يشعرون بأنه إذا لم يستطع الوصول إلى اتفاق بينهما فلابد من وقوع كارثة ، وبأن مشكلة حماية الحدود الهندية فى الشمال الغربى ، وهى مشكلة شغلت بريطانيا دائماً فى الهند ، قد يصعب حلها إذا لم تتفق الدولتان . غير أن هذا الاتفاق معلق على معالجة مسألة كشمير .

فانه عند ما صدر قانون الاستقلال الذى

أنشأ دولتى الهند وباكستان، تحللت الولايات الهندية الأخرى من ارتباطها ببريطانيا، وصارت حرة فى الانضمام إلى إحدى الدولتين أو البقاء مستقلة عنهما. وكان من الواضح أن تتخذ كل ولاية قراراً مراعية الدين والموقع واتجاه الحاكم فيها، وفى ولاية كشمير ما يؤيد انضمامها لباكستان. فسكان ولاية كشمير ثلاثة أرباعهم من المسلمين ولو أن بها مساحات تقل نسبة المسلمين فيها عن ذلك، ثم المواصلات بينها وبين باكستان سهلة وقريبة فى حين مواصلاتها مع الهند سيئة.

على أن الحاكم هندوسى ولا يرغب فى الاتصال بدولة باكستان. وقد بدت علائم تدل على رغبة هذا المهراجا فى الانضمام إلى دولة الهند. فاستاء رعاياه من ذلك وأخذوا يجأرون بالشكوى. وانتهز بعض القبائل الفرصة فغزوا كشمير واتحدوا مع السكان لمقاومة رغائب الحاكم الذى طلب المعونة من الهند. وبالرغم مما قيل من قبل بحق الشعوب فى تقرير مصيرها لبت الهند نداءه وأرسلت جنوداً إلى كشمير، كما أرسلت أحد المسلمين المؤيدين لها ليساعد فى تهدئة الخواطر. وقيل إن الاحتلال وقتى، ولكن العالم الحديث لا يؤمن بمثل هذه التصريحات، وأبى مسلمو باكستان ومسلمو كشمير أن يصدقوا هذا التصريح.

ومما لا شك فيه أن حكومة الهند لم تقدر الصعوبة الحربية التى سوف تواجهها حق قدرها. فان القبائل الغازية زادت من قوتها سريعاً وانضم إليها السكان، وصار من أصعب الأمور تموين الفرقتين اللتين دخلتا كشمير مع ما يصيب المواصلات السيئة فى الشتاء. وهذه هى المسألة التى تعرض الآن على هيئة الأمم المتحدة.

وسيكون حل هذه المسألة من الصعوبة بمكان، وسيؤدى فى الغالب إلى اجراء استفتاء فى ولاية كشمير. ولكن كيف يكون هذا الاستفتاء؟ إنه لو قصر على أصحاب الأملاك فانه يعطى الهندوس نسبة غير عادلة، فى حين أنه سيكون من الصعب إجراء استفتاء عام بين أفراد الشعب. ومن المؤكد أن القبائل الغازية لن تهتم أى اهتمام برأى هيئة الأمم المتحدة ولا بنتيجة الاستفتاء. وفضلا عن ذلك سيكون من أصعب الأمور طرد هذه القبائل الغازية إذا لم تتعاون دولتا الهند وباكستان.

فالدولتان إذن فى حالة تكاد تكون حرباً. وسيتوقف على حل هذه المشكلة وقرار هيئة الأمم أمر السلم فى آسيا أيستقر أم يضطرب.

ومع ذلك إذا اتجهنا إلى علاقة الدولتين بالعالم الخارجى نجد نوعاً من التوافق بينهما. فلقد تحولت الأفكار فى الهند حين كان يظن الزعماء أنه من المستطاع الابتعاد عن الدول العظمى. وبدأ الزعماء يشعرون بأن من الواجب أن يتعاونوا مع إحدى الكتلتين العظيمتين اللتين انقسم إليهما العالم. وأخذ زعماء الدولتين يعدلون عن الكراهية للبريطانيين، ويرون أن من الواجب عليهم التفاهم مع بريطانيا فى الأمور الاقتصادية وأمور الدفاع. وكان من المستطاع أن يتم ذلك فى سهولة لو قررت الهند الدخول فى مجموعة الدول البريطانية ذات المصلحة المتحدة. أما إذا اختارت الهند غير ذلك الاتجاه فيجب عليها وعلى بريطانيا أن يجدا مع ذلك سبيلا آخر للتعاون.

ومما يلاحظ أن دولة باكستان دولة لم تستعمل مواردها، وأن سياستها قائمة على الاسراع فى ترقية الصناعة بها. وهى تحتاج إلى الخبراء فى الصناعات وإلى الآلات، وهى تأمل أن تحصل عليها من بريطانيا. لذلك ينتظر أن تكون علاقتها ببريطانيا وثيقة.

وإذا لم تجد المساعدة السريعة من جانب البريطانيين فماذا يكون أمامها غير التحول إلى الجانب الروسى ؟ ربما ترددت بريطانيا فى هذه المساعدة الآن مراعاة لشعور دولة الهند فى الموقف الحاضر . ولكنها فى رأى الكاتب تحسن صنعا وتكون حكيمة لو قدمت كل ما يمكن من معونة للدولتين الناشئتين .

الحالة الاقتصادية فى بلاد الجزائر

استعرضت مجلة « العالم اليوم » البريطانية فى عدد فبراير، الحياة الاقتصادية والسياسية فى بلاد الجزائر . وقالت إنه لكى يستطاع فهم العوامل التى أدت إلى ما يصفه الفرنسيون بالمرض الجزائرى ، يجب أن نعرف أن هذا المرض نشأ عن عدة عوامل سياسية واقتصادية قصيرة الأجل أو بعيدة الأجل . وقد تجمعت هذه العوامل التى لم يسبق لها مثيل فى السنوات الخمس الأخيرة ، فأحدثت من التعاسة واضطراب النفوس ما لا يمكن تفسيره تفسيراً واضحاً إلا ببحث هذه العوامل المتشابكة .

ولننظر إلى العوامل الاقتصادية الطويلة الأجل أولا مع أن هذه العوامل لم تقدر حق قدرها إلا أخيراً . وأهمها أن ضغط السكان قد ازداد على الأرض . وكان من نتيجة ذلك أن نصيب الفرد من الحبوب ، وهى الغذاء الرئيسى لأهل البلاد ، قد نقص باستمرار . فبينما كان الفرد فى سنة ١٨٧١ نصيبه فى السنوات العادية نحو خمسة كونتال من الحبوب صار لا يأمل فى سنة ١٩٠٠ فى أكثر من أربعة كونتال . وفى سنة ١٩٤٤ فى ٢,٥ كونتال واليوم لا يطمع فى أكثر من اثنين .

وإذا بحثنا عن السبب فى ذلك تبين لنا أن السبب هو وضع يد المستعمرين الأوربيين على شطر كبير من الأراضى المزروعة . فقد بلغ الملاك الأوربيون بين سنتى ١٨٣٠ ، ١٩١٤ ستة وعشرين ألفاً . وهم يمتلكون اليوم ثلث الأراضى القابلة للزراعة فى الجزائر . وذلك ما يقدر بمليونين ونصف مليون هكتار . وهم يستخدمون من العمال العرب نحو مليون فى شطر من الموسم .

ولكن يجب أن نعترف بأن الكثير من هذه الأرض كان غير صالح للزراعة ، وأن مجهود المستعمرين فى رأى الكاتب قد زاد من ثراء الجزائر ، وصار عاملا حيويا فى الحياة الاقتصادية .

ويمكن أن يقال إن زراعة الأعناب فى تلك البلاد هى زراعة أوربية . فقد بلغت الأراضى المزروعة أعناباً أربعمائة ألف هكتار ، وهى تؤلف نصف الصادرات . وإذا كانت المساحة المزروعة أعنابا قد خفضت الآن قليلا فانها لا تزال كبيرة الأهمية بحيث يمكن فى الأزمنة العادية أن يشترى بما تربحه نحو ١٢ مليون كونتال من الحبوب فى السنة . مع أن هذه المساحة نفسها لو زرعت حبوباً لما أخرجت غير مليونين فى السنة . وهذا يؤدى إلى عطلة عدد وفير من العرب عن العمل إذ أن زراعة الأعناب تحتاج إلى اليد العاملة أكثر من زراعة الحبوب .

وفيما يتعلق بزراعة الحبوب نفسها فان العرب يستعملون طرقاً عتيقة ، ثم إنهم لا يمتلكون الآن غير الأراضى الضعيفة . ولكن يلاحظ أن الزيادة فى زراعة القمح

التى ارتفعت بين سنتى ١٩٠١ ، ١٩٣٩ بالرغم من استيلاء زراع الأعناب على الأرض الجيدة فى الشمال ، هذه الزيادة كانت بمجهودات الأوربيين ؛ فان العربى لا ينتج فى المتوسط غير أربعة كونتال للهكتار الواحد بينما ينتج الأوربى ثمانية .

فيظهر من ذلك أن الاستيلاء على أراضى الأوربيين لا يحل مشكلة ضغط السكان على الأرض وإن كان من المؤكد أن الالتجاء لطريقة المزارعة قد يخفف من هذا الضغط .

فالمشكلة فى اتساعها وفى مجالها أكبر من أن تحل بمعالجة مسألة المستعمرين ، وإنما هى ناشئة من نمو السكان نمواً كبيراً حتى بلغوا ثمانية ملايين ، فكانت زيادتهم نحو مائة وثلاثين ألفاً فى السنة تحت حكم الفرنسيين . ويعزى ذلك إلى العناية بالصحة والأمن . وليس من وسيلة للقضاء على هذه المشكلة غير حسن زراعة الأراضى لزيادة إنتاجها .

هذا هو المشكل الاقتصادى الأساسى فى الجزائر ، ولكن السلطات الفرنسية لم تتبينه إلا بعد كوارث الحرب ، ولم يبذل أى مجهود فيما قبل الحرب لمعالجة هذه المسألة . حتى إن فرنسا كانت تتخلص من قمحها بوسائل غريبة حين يزيد المحصول لديها دون أن تفكر فى حاجة بلاد الجزائر .

ولكن الحالة ساءت بين سنتى ١٩٤٠ ، ١٩٤٥ إذ كان المحصول رديئا فى الجزائر وصار الموقف خطراً بسبب الحرب . على أن الحالة إلى سنة ١٩٤٢ لم تكن سيئة للغاية بالرغم من استيلاء الايطاليين والألمان على بعض المحصول بتعليمات من لجنة الهدنة بين الألمان وفرنسا ؛ فان المحصول كان غير ردىء ، وكانت التجارة مع فرنسا متصلة . ولكن بعد نزول الحلفاء فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ ساءت الأمور ؛ إذ وقف الاتصال بفرنسا، وسبب وجود جيوش الحلفاء تضخما فى العملة . فصار العمال الذين يتناولون أجراً قليلا غير راغبين فى العمل لأنهم يجدون فى السوق السوداء عملا أكثر ربحاً . وقد يقال إن جيوش الحلفاء كانت تستخدم عمالا تدفع لهم أجوراً باهظة . ولكن ذلك زاد سوء الحالة بعد مغادرتهم للبلاد . ثم إن تجنيد الكثيرين من السكان الأوربيين والعرب قد أضعف من الأيدى العاملة فى الزراعة ، وبدأت الحالة إلى المخصبات والوقود وآلات الزراعة تتجمع وتزداد وضوحاً .

وفضلا عن ذلك أصيبت البلاد بالقحط فيما بين سنتى ١٩٤٣ ، ١٩٤٥ . وكان القحط فى سنة ١٩٤٥ أسوأ ما عرف منذ سنة ١٨٥٦ ، فكان المحصول ٥ ملايين كونتال وكان فى العادة ٢٠ مليون كونتال . وجاءت المساعدة من أمريكا والشرق الأدنى ثم من فرنسا بعد الحرب . ولكن المجاعة انتشرت بالرغم من ذلك ومات الكثيرون من أهل البلاد جوعاً حتى فى المناطق الغنية ، وبلغت الخسارة فى المواشى ٩٠ فى المائة .

ويجب أن تقدر هذه الظروف عند ما نبحث فى الاضطرابات التى تحدث فى بلاد الجزائر ، لاسيما تلك الاضطرابات التى حدثت فى بلدة ستيف فى ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، وهى اضطرابات لم يعرف كيف نشأت . ولكن يظهر أن موكباً كان يسير نحو النصب التذكارى للحرب وهو يحمل راية وطنية ، فأراد أحد رجال الشرطة أن يقتلعها من يد حاملها فأبى تسليمها ، فأطلق رجل الشرطة النار ؛ فسبب ذلك اضطرابات امتدت إلى البلدان المجاورة . وتقول المصادر الرسمية الفرنسية إن ١٠٢ من الأوربيين و ١٥٠٠ من العرب قتلوا ، على حين صرح

عزام باشا أخيراً لمراسل « نيويورك هيرالد تريبيون » أن عدد القتلى من العرب يقدر بنحو ٢٠ ألفاً إلى ٣٠ ألفاً ومن الفرنسيين ثلثمائة . ويظهر أن الفرنسيين استعملوا شدة متناهية ، ولكن هذه الفظاعة وقفت الثورة .

وقد استعرض الكاتب باسهاب مطالب الأحزاب الوطنية فيما قبل الحرب وما حدث لها من تطور فيما بعد الحرب والمناقشات العديدة والمشروعات التى قدمت للجمعية الوطنية الفرنسية إلى أن وضع القانون الجديد لبلاد الجزائر ، وهو الذى وافقت عليه الجمعية الوطنية فى أول سبتمبر سنة ١٩٤٧ بعد خمسة عشر يوماً من مناقشات حادة . ولم توافق أحزاب اليمين على هذا القانون بل أعطوا أصواتهم ضده . وامتنع من الموافقة عليه الشيوعيون والجزائريون المسلمون الذين غادروا الجمعية ورفضوا الاشتراك فى المناقشات حين قرئت المادة الأولى منه . وهى تقضى بأن الجزائر تظل ولاية من ولايات أرض فرنسا .

ويقول الكاتب إن ما يطلبه الجزائريون المسلمون والشيوعيون والاشتراكيون مع اختلاف بسيط فى التفاصيل ، هو أن تقوم حكومة مسئولة حقيقة فى تلك البلاد ، لها سلطة تنفيذية ، يقوم بها رجال منتخبون وخاضعون لجمعية تنتخب بالأصوات العامة. أما ما يقضى به القانون الحالى فهو زيادة تمثيل المسلمين فى الجمعية المالية الحالية التى تتألف من ١٢٠ عضواً يقسمون بالمساواة بين الأهالى المتجنسين بالجنسية الفرنسية وغير المتجنسين . وهذه الجمعية هى جمعية استشارية، ولاتزال السلطة التنفيذية فى يد الحاكم العام المسئول أمام الحكومة الفرنسية والبرلمان الفرنسى وحدهما .

ولا شك فى أن هذا القانون قد زاد من كراهية الجزائريين للنظام القائم هنالك ، فاتفقت كلمة الأحزاب . وسيظهر المستقبل إلى أى حد ينجحون فى تحقيق رغباتهم .

اللغات واتصالاتها

كانت مجلة « بريطانيا اليوم » قد أثارت منذ مدة موضوع نقل الكتب من لغة إلى لغة ، ونشرت فى ذلك مقالين للأستاذ أليسون كيرز . وقد جاءتها رسائل مختلفة من دول عدة تصف ما يجرى عليه العمل فى نقل الكتب فى تلك البلاد .

وفى عدد فبراير أشار رئيس التحرير إلى هذه الرسائل فى مقاله الافتتاحى . فكتب واصفاً ما جاء فى رسالة طالب نمساوى . وقد ذكر هذا الطالب أن النمسا تعلق أهمية عند تعليم اللغات الأجنبية على أن يعرف الطالب النمساوى الموضوعات التى تعالجها لغة من اللغات فضلا عن اللغة نفسها . فالطالب الذى يدرس الفرنسية أوالانجليزية أو الاسبانية أو أية لغة أخرى يطلب منه أن يدرس منشآت الشعب الذى يدرس لغته وعاداته ، وأن يضيف إلى معرفته بقواعد تلك اللغة معرفة بتفكير الذين يتكلمونها . ولقد صارت معرفة اللغات اليوم كبيرة الأهمية أكبر من قبل لأن اختلاف اللغات هو من أكبر الموانع للاتصال والتعاون بين الأمم . ولكن اللغة نفسها ليست إلا جسراً ومعرفة اللغة الأجنبية معرفة سطحية غير كاف لعبور هذا الجسر

وقد يكون كافياً للضرورات القصوى فى التجارة والسياحة ، ولكنها لا تكون أداة للاتصال وتخدم الغرض منها إلا إذا كانت تؤدى لمتكلمها أو كاتبها إلى الاتصال بعقول أهلها وشعورهم .

وليست الموانع التى توجدها اللغة هى موانع لغوية فحسب . فلقد ظهر أن صفات شعب من الشعوب تجعله يتخذ شكلا خاصاً فى لغته ، وأن المرء لا يعرف هذه اللغة حق المعرفة إلا إذا وقف على الشعور الاجتماعى للشعب الذى يتكلم هذه اللغة ، وأنه لا يكون قد وقف على خباياها إلا إذا تشرب طريقة التفكير عند هذه الأمة ، وليس ذلك بسهل ولا مستطاع ، ولكنه المثل الأعلى الذى يرمى إليه متعلم هذه اللغة . فاللغة إذن ليست حائلا بين الأمم لأنها تمنع التجارة والسياحة ، بل لأن اختلافاتها تدل على اختلافات فى التفكير والشعور . ويجب أن تقدر الشعوب هذا الاختلاف حق قدره إذا كانت تريد أن تكون علاقاتها حسنة مع الأمم الأخرى .

وقد يحدث أن يوجد أشخاص ذوو لغتين وهم أناس يستطيعون عند تغيير لغتهم أن يغيروا من تفكيرهم عند استعمال اللغة التى يتكلمونها .

وليس معنى الاتصال الدولى الحقيقى هو القضاء على الاختلافات فى العقلية . فان لكل أمة شخصيتها كما أن لكل فرد شخصيته . ولكن كل ما يراد ألا تنطوى الأمة على نفسها وتمنع وصول ضوء إليها من الخارج ، ولا تحاول أن يكون بينها تفاهم أو عطف مع أولئك الذين يعملون لتقارب بنى البشر . وليس من المنتظر أن يكون أكثر الناس ممن يتقنون لغتين أو أكثر . ولكن أولئك الذين يتقنون أكثر من لغة سيكونون جسراً يصل بين الأمم ، وسيشجعون غيرهم على دراسة آداب الأمم الأخرى وقوانينها وفلسفتها وعاداتها مما يقرب بين الأجناس المختلفة . فأهمية دراسة اللغات فى عصر يزداد فيه التقارب بين الأمم لا يمكن أن ينكر أو يهمل ، ولكن من الأخطار الأخرى التى يجب أن يتنبه إليها الذين يشرفون على الثقافة الحديثة ، هو ذلك الخطر الناشئ من الاغراق فى التخصص . ولاشك فى أن التخصص ضرورى . ويجب أن يتلقن الكثيرون العلم بالمدارس والجامعات ؛ لأن العلم يحل الكثير من المشكلات الضرورية فى هذا العصر . ويجب أن نلقن الكثير من الاقتصاديين ، إذ بغيرهم لا يمكن إنقاذ العالم من المشاكل الاقتصادية التى وقع فيها . ولكن العلوم والاقتصاديات لا تعيش بمفردها . ويجب لكى يكون لها وجود أن تكسوها الآراء البشرية والعواطف . وإذا كان الجنس البشرى يخضع الآن للعلماء والاقتصاديين ، فيجب أن يكون هؤلاء العلماء والاقتصاديون أكثر من ذلك على علم بالاتجاهات الانسانية ، ولا تقتصر دراساتهم على التخصص وحده .

فالمشاكل التى أمام العالم الآن هى مشاكل انسانية ويحتاج حلها إلى العلوم . ولكن العلوم لن توفق لحلها إلا إذا دخل فى تقديرها الألوان المختلفة للطبيعة البشرية .

ظهر حديثا

البيت السبكى للأستاذ محمد الصادق حسين بك (دار الكاتب المصرى)

الأستاذ محمد الصادق حسين بك رجل مارس العلم والتعليم قبل أن يتقلب فى المناصب المالية والادارية ، ويبلى فيها أحسن البلاء . وممارسته للعلم والتعليم فى أيام الشباب هى التى ردته إلى البحث والاستقصاء حين تخفف من أعباء الخدمة العامة الرسمية . وكان فى أثناء خدمته العامة تلك ، يصاحب العلم ويباشر الكتب ويقرأ ما شاء الله أن يقرأ ، ويتحدث إلى نظرائه المثقفين الممتازين فى فنون من الثقافة والأدب حديث العالم المستقصى . ولكنه كان يعلم أن الله لم يجعل لرجل قلبين فى جوفه ، وأن التفرغ للعلم لا يتاح لمن يغدو ويروح مشغولا بالادارة والمال فى حياتنا العامة المعقدة . فلما ترك لأصحاب الادارة والمال إدارتهم ومالهم ، عاد إلى علمه الذى أحبه ، وإلى كتبه التى آثرها ، ولم يلبث أن اندمج فيها واندمجت فيه ، كما يقول أصحاب التمثيل فى هذه الأيام ، وأخرج لنا هذا الكتاب الذى إن دل على شئ يفجأ الناظر فيه قبل أن يتعمق أو يعمد إلى نقد ، فانما يدل على أن مؤلفه صاحب فراغ للبحث والدرس وعكوف على التحرى والاستقصاء . فأنت لا تكاد تمضى فى قراءة الصفحات الأولى من الكتاب حتى ترى رجلا يحدثك عن كتب المؤرخين القدماء والمحدثين الشرقيين والمستشرقين ، كأنه قد أنفق حياته معاشرا لأولئك وهؤلاء . ولم ينفق خلاصتها متردداً بين وزارات الحكومة غارقا فى أمور المال والحساب .

ولكنك تمضى فى القراءة فتفجؤك خصلة أخرى يمتاز بها هذا الكتاب ، وهى أن كاتبه لم يقبل على كتابته متأثرا بما يتأثر به الباحثون من حب الاستطلاع الخالص الذى يجعل الباحث موضوعيا ، ليس لعواطفه ولا شعوره تأثير قليل أو كثير فيما يستقبل من البحث ، وإنما هو إلى دقته واستقصائه وحرصه الشديد على أن يتحرى الحق ويلتزم مناهج البحث التاريخى الصحيح ، قد دفع إلى بحثه هذا بعاطفتين كريمتين : إحداهما حبه لاقليمه الذى نشأ فيه ، وهو إقليم المنوفية . والآخر حبه لوطنه وتتبعه لدعوة الاصلاح فى هذا الوطن ، وتتبعه من أجل ذلك لما يختلف على مواطنيه من ألوان الضعف والقوة ، وفنون الانحطاط والرقى ، وضروب الجمود والنشاط . فهو يدرس فى هذا الكتاب أسرة مصرية من أسر المنوفية عاصرت دولتى المماليك ، وأنجبت لمصر وللعالم العربى ، بل للعالم الاسلامى كله ، جماعة من علماء الدين وأئمته ، كانوا نوراً ساطعاً فى ذلك العصر الذى كانت الظلمة تحاول فيه أن تغمر العالم الاسلامى بحكم ما أصابه من غارات الصليبيين والتتار ، ومن تحكم الترك فى شؤونه ومصايره .

وهذه الأسرة هى أسرة السبكية التى ما زالت آثارها العلمية والدينية باقية

يعيش عليها الفقهاء والمؤرخون إلى الآن ، وسيعيش عليها الفقهاء والمؤرخون دهرا طويلا . وما من شك فى أن مصرية هذه الأسرة ونشأتها فى سبك العويضات باقليم المنوفية ، هما اللتان حببتا إلى الأستاذ الصادق حسين العنايه بها ، والتتبع لآثارها ، وإحياء ذكرها بهذا الكتاب الممتع النفيس .

وقد قرأ الأستاذ الصادق حسين كتاباً لرجل من علماء هذه الأسرة لفته إلى أن حركة الاصلاح التى دعا إليها جمال الدين ، والكواكبى ، ومحمد عبده فى القرن الماضى ، ليست بدعاً من حركة إصلاح أخرى ، دعا إليها عالم مصرى منوفى فى القرن الثامن للهجرة ، ولقى فى دعوته إليها من الجهد والمشقة والامتحان مثل ما لقى هؤلاء المصلحون . وهذا الكتاب هو كتاب «معيد النعم ، ومبيد النقم» لتاج الدين السبكى . فأقبل الأستاذ الصادق حسين على درس هذا الكتاب وتعمقه ، والموازنة بين دعوة الاصلاح القديمة ودعوة الاصلاح الحديثة ، والموازنة بنوع خاصٍ بين الأسباب التى أثارت الشيخ إلى دعوته فى القرن الثامن للهجرة ، والتى أثارت الشيوخ إلى دعوتهم فى القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة . وإذا هو يصل إلى نتيجة رائعة مروعة حقا . فالاستبداد هو أصل الفساد فى العصرين ، والظلم هو الذى أفسد التوازن بين طبقات الشعب ، وأثار فيها ضروباً من الآثام والموبقات متشابهة كل التشابه ؛ ومن أجل ذلك تشابهت الدعوة إلى تغييرها وتشابه العلاج الموصوف لها فى العصرين : حكام يظلمون ، ويتخذون الحكم غاية لا وسيلة ويتخذون السياسة أداة لارضاء الغرائز وتحقيق المطامع وقضاء المنافع العاجلة ؛ وإدارة تفسد من أجل هذا كله ؛ وشعب يشقى بهذا الفساد ؛ وأخلاق اجتماعية تنشأ قوامها الأثرة ، وما تستتبع من الكيد والغش ، والتهالك والخمود ، وصغر النفوس ، وتضاؤل الآمال ، وحب الحياة اليسيرة الخسيسة التى لا تغنى عن أصحابها شيئاً. وعلاج واحد يقترح فى العصرين ، وهو أن يعترف الناس بنعمة الله عليهم ، وأن يشكروا لله نعمته هذه فيقبلوها كما ينبغى أن تقبل بقلوب خالصة ونفوس صافية وضمائر نقية ؛ ونهوض بالواجب من حيث هو واجب لا من حيث إنه يجلب نفعاً أو يدفع مضرة، واستقامة من أجل ذلك فى السيرة ترد الحاكم إلى القصد وتشعره بأن الحكم وسيلة لاسعاد المحكومين ، وتبصر الشعب بالحق وتشعره بأنه قد خلق حرا يعيش لنفسه ويحكم لمصلحته ، وليس لأحد أن يذله أو يستغله ، أو يتخذه أداة لتحقيق مطمع أو قضاء مأرب أو إرضاء شهوة . والقارئ يدهش من غير شك حين يقرأ هذا الكلام ، ويستبين أن شعور المثقفين المصريين فى القرن الرابع عشر ، هو شعور المثقفين المصريين فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين للمسيح . ولكن هذه هى الحقيقة الواقعة التى جلاها الأستاذ الصادق حسين فى أيسر اليسر وأقرب القرب . تلقى هذا الكتاب الصغير ، فلم يكتف بالنظر إليه وإلى ما قيل حوله ، وإنما قرأه على مهل وأساغه فى أناة . وكان الناس يقولون إنه كتاب فى التصوف ، فاذا هو يجد نفسه فى السياسة لا أكثر ولا أقل . وكل ما فى الأمر أن عليه مسحة دينية ؛ لأن صاحبه رجل من رجال الدين وإمام من أئمته وقاض عظيم من قضاة المسلمين . وأكبر الظن أن الذين يتلقون الكتب القديمة لو قرأوها قراءة إمعان وفهم ، لخرجوا بنتائج كثيرة قيمة كهذه النتيجة التى يعرضها

علينا الأستاذ الصادق حسين ، بعد أن فرغ لقراءة هذا الكتاب .

على أن الأستاذ الصادق حسين لم يخرج بهذه النتيجة وحدها ، وإنما خرج لنا بنتائج كثيرة كلها قيم ممتع حقا . فقد دعاه درس هذا الكتاب إلى درس الحياة المصرية أيام المماليك ، وإذا هو يعرض علينا نتيجة قد تغيظ المؤرخين الذين يعجبون بالمماليك وتخدعهم ظواهر الأمور ، فيثنون عليهم لأنهم أتموا تحرير الشرق العربى من الصليبيين ، وردوا عن الشام ومصر غارات التتار ، وأقاموا ما أقاموا من العمارات ؛ وحفظوا لمصر استقلالها رغم الأحداث الخطيرة التى كانت تلم بالعالم الاسلامى ، ونظموا العلاقات الخارجية السياسية والتجارية مع الشرق والغرب . ولكن هذا كله لا يرضى الأستاذ الصادق حسين ؛ لأن السياسة الداخلية للمماليك كانت تقوم على الظلم والعسف ، وعلى الأثرة والاستبداد ، ولأن الحياة التى كان الشعب المصرى يحياها فى ظل المماليك كانت حياة قوامها البؤس والشقاء .

وهذا يصور إيمان الأستاذ الصادق حسين بالمذهب الحديث ، مذهب الايمان بأن السياسة يجب أن تكون وسيلة لاسعاد الشعوب . ولكنى أود لو يفكر المؤلف فى أن ما يشهده فى مصر أيام المماليك من الظلم والعسف ومن بؤس الشعب وشقائه ، لم يكن مقصوراً على مصر ، وإنما كان شائعاً فى الأرض كلها شرقها وغربها ، كان ظاهرة اجتماعية أو قل إنسانية ، تلاحظها فى جميع البلاد المتحضرة على اختلاف حظوظها من الحضارة ونظم الحكم . وهذا هو الذى جعل للعصر الحديث امتيازه ، وهو الذى جعل لعصر الثورة الفرنسية وما بعده امتيازه السياسى والاجتماعى . وليس أحد ينكر أن لويس الرابع عشر قد كان ظالماً مستبدا ، وأن الشعب الفرنسى فى ظله قد كان بائساً شقيا . وليس أحد ينكر فى الوقت نفسه أن عصر لويس الرابع عشر قد كان عصر مجد لفرنسا الشقية البائسة ، لأسباب تشبه من وجوه كثيرة الأسباب التى جعلت عصر المماليك عصر مجد لمصر الشقية البائسة . فقد كان بؤس الشعوب وشقاؤها وظلم الحكومات واستبدادها أصلا من أصول الحياة ، ومظهراً من مظاهر التاريخ فى القرون الوسطى . ولو لم يكن لعصر المماليك من الفضل إلا أنه حفظ للحضارة الاسلامية مصباحها مضيئاً ، ولواءها مرفوعاً ، وأتاح للعلماء أن يكتبوا ، وللسبكيين أن ينتجوا ، ولابن تيمية أن يذيع دعوته ، ولتقى الدين السبكى أن يخاصمه ، ولتاج الدين السبكى أن يدعو إلى الاصلاح العملى السياسى والاجتماعى ، كان هذا خليقاً أن يتيح لنا أن نتحدث فى شئ من الرضا عن عصر المماليك .

والأستاذ الصادق حسين يذكر ظلم المماليك فيما أقاموا من العمارات . فقد ينبغى أن يذكر ظلم الفراعنة فيما أقاموا من المعابد والأهرام ، وظلم الفرنجة فيما أقاموا من العمارات أيضاً ، وفيما جشموا الشعوب من أهوال الحروب . والمماليك بعد ذلك قد حفظوا على مصر علاقتها بالشرق والغرب ، ومكنوها من أن تأخذ وتعطى وتشارك فى الحضارة ، وهيئوها للمشاركة فى النهضة الحديثة ، لو لم يفسد الترك العثمانيون عليها أمرها . وكم كنت أحب أن يفرق الأستاذ بين أثر المماليك فى الحياة المصرية وفى مصير مصر ، وأثر الترك العثمانيين فى الحياة المصرية وفى مصير مصر أيضا .

وربما كان من أقوم النتائج التى أخرجها لنا الأستاذ الصادق حسين فى بحثه هذا هو أنه حين عرض الأسرة السبكية ، قد

عرض أسماء جماعة من السيدات عنين بالعلم والدرس ، وتخرجن على جماعة من الأئمة ، وتخرج عليهن جماعة من الأئمة أيضا ، فكن يتلقين الاجازة من العلماء ، وكن يهدين الاجازة إلى العلماء . فما أجدر الذين يتتبعون تاريخ المرأة ويحاولون إصلاح حال المرأة فى العصر الحديث ، بأن ينظروا فى أسماء هؤلاء السيدات اللاتى نبغن فى أسرة واحدة من الأسر المصرية أيام المماليك . ومن يدرى ! لعلهم إن تتبعوا مثل هذا البحث أن يجدوا أسماء كثيرة لنساء كثيرات فى أسر مصرية أو عربية أخرى .

والشئ الذى لا أشك فيه هو أن أظهر ما فى كتاب الأستاذ الصادق حسين من الخصائص والمزايا بعد دقته فى البحث وحسن استقصائه للتاريخ وتحريه للحق ، أنه كتاب شديد الايحاء والاغراء ، لا يكاد القارئ يمضى فيه حتى يود لو استطاع أن يبحث كما بحث المؤلف ، ويستقصى كما استقصى ، ويستخرج من كنوز التاريخ مثل ما استخرج من هذه النتائج القيمة . وليس هذا بالشئ القليل .

طه حسين

غانية أطلنطا للأديب الفرنسى بيير بنوا ترجمة الأستاذ رشدى كامل (دار الكاتب المصرى)

ليس من السهل إذا أردنا الكلام عن القصصى الفرنسى بيير بنوا ، وإذا أردنا أن نعرف مركزه فى الأدب الفرنسى ، أن نحدد هذا المركز تماما ، وأن نقدر ما أسداه من يد للآداب الفرنسية . فهو كأديب لم يشتهر بغير القصص ، وهو كقصصى لم يبلغ شهرة واسعة أو قل شهرة عالمية إلا بقصتين « غانية اطلنطا » التى أصدرتها دار الكاتب المصرى فى ثوب عربى ، وقصة « كوينجسمارك » التى لم تنقل بعد إلى العربية فيما أظن . وقد ألف قصصا عديدة غير هاتين القصتين ، ولكنها لم تضف إلى شهرته من هاتين القصتين شيئا . ولا ريب فى أن بيير بنوا له جمهور كبير يقبل على قصصه ، وله جمهور ينتظر هذه القصص فى صبر نافد ويقرأ هذه القصص فى لذة . ولكن لانظن أن الجمهور قد وجد فيما ألفه من بعد ما وجد فى « غانية أطلنطا » .

والواقع أن قصة « غانية أطلنطا » عندما صدرت فى سنة ١٩١٩ قابلها قراء القصص فى فرنسا وقراء القصص الفرنسى فى غير فرنسا لأول وهلة بارتياح عظيم ؛ إذ وجدوا فيها قصة جذابة بحوادثها وغرائبها قبل كل شيء ، أى إنها جذابة بالعنصر الأساسى للقصة . فليست هذه القصة تجربة فى الأسلوب ولا هى تجربة فى بناء القصص ، وإنما هى مجرد قصة تجتذب القارئ فلا يكاد يستطيع مفارقة الكتاب حتى يصل إلى خاتمته .

وقد مكن المؤلف لقصته كى تكون حوادثها غريبة وظريفة بأن اختار موضعا لحوادثها قارة إفريقية التى ما زالت ولن تزال موضع الغرابة والأسرار لدى الأوربيين .

وكان بيير بنوا فى طريقته التى سلكها فى هذه القصة مبتدعا — على الأقل لدى قراء اللغة الفرنسية — فان الذين يقرءون اللغة الانجليزية مثلا لم يفتهم أن يروا العلاقة بين هذا القصصى الفرنسى وبين قصصى انجليزى سابق له بجيل واحد أو يكاد يكون معاصراً

وهو ريدر هاجارد، ذلك القصصى الذى اتخذ إفريقية مسرحا للكثير من قصصه بل لأكثرها. ولم يفت الذين يقرءون اللغة الانجليزية أن يروا تشابها فى بعض أشخاص قصة « غانية أطلنطا » وإحدى قصص ريدر هاجارد الشهيرة. ولانريد أن نسترسل فى هذا الموضوع، وإنما كل مايهمنا أن نقوله هو أن الجو الافريقى أتاح للقصاصين نجاحا عظيما. إذ لا ريب فى أن ريدر هاجارد بلغ شهرة كبيرة درت عليه أموالا طائلة، وكذلك درت شهرة بيير بنوا عليه الأموال، أما القيمة الفنية والمجهود الفنى فهذا ما نتركه الآن.

كل ما نريد أن نقرره هو أن المؤلف الانجليزى تمتع بالمال والشهرة فى حياته وأغدقت عليه ألقاب الشرف من أجل مؤلفاته، وأن الكاتب الفرنسى نال شهرة ومالا ونال من الشرف مالا مطمح بعده إذ عين عضواً فى الأكاديمية الفرنسية وصار على قول الفرنسيين من الخالدين.

ولم لا؟ لماذا يريد الأدباء أن نقتصر على الكتب ذات القيمة الفنية العظيمة وأن نتجرع هذه الكتب كالدواء قد نبرأ به ونسترد العافية ونفتح صفحة حياة جديدة، ونشعر أننا بعد هذا الدواء قد صرنا خيراً مما كنا من قبل، ولكنه على كل حال دواء نشربه مكرهين؟ وما أمر الدواء فى القصص!

أما القصاصون من أمثال ريدر هاجارد، وبيير بنوا، فان نفعهم ظاهر وأثرهم سريع. هم يسترعون الذهن من أول لحظة، ويبعدون عن الذهن متاعبه وهمومه، وينسون المريض آلامه والمؤرق متاعبه.

ربما كان الفرق بين القصصى السهل والقصصى العبقرى، هو أن الأخير يقتطع من نفسه وعصارة ذهنه، ويقدم شطراً من حياته. أما الأول فييسر لك فى سهولة سبل التسلية. فهو يعمل للذتك، ويستقضيك مالا. أما ذلك العبقرى فيقتطع من نفسه وأجره عند الله.

وقد أرادت دار الكاتب المصرى أن تطلعنا على النوعين. فانها قدمت من الأدب الدسم العميق فى فن القصة ستاندال وغير ستاندال. وهى اليوم قد أرادت أن تقدم بيير بنوا فى قصص سهل شيق، وأرادت أن يكون النقل إلى اللغة العربية ملائماً لمزاج القصة، فاختارت أديباً تجرى فى عروقه دماء الشباب، لينقل تلك القصة المثيرة بحوادثها، ولقد نجح ووفق توفيقاً كبيراً، إلا فى كلمات قليلة أراد أن يظهر فيها علمه بأساليب اللغة. وكان الأجدر به أن يظل فى أسلوبه المرسل العذب الذى يلائم هذه القصة الشيقة.

حسن محمود

ديوان أبى فراس نشره سامى الدهان فى ثلاثة أجزاء (بيروت ١٩٤٤)

[قال ابن الرومى :

قولا لمن عاب شعر مادحه
أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء والخشب اليا
بس والشوك بينه الثمر

وعلى هذا أكثر الشعراء الأقدمين، كأنما شق عليهم أن يطرحوا آثار القريحة ساعة تجمد فيقتصروا على الفرائد والغرر. ولطبع كل شاعر أيام تخلف تجئ فيها الأغراض مطروقة والتعابير قلقة. وليس

الاختراع والابداع من سنن الخلق اللازمة. واليوم ترى الشعر –أو يجب أن نراه– فناً من فنون القول الاسمى ، فكيف نستطيع أن نرضى عن الترخص الذى حلا لأكثر الأقدمين ثم طاب لجمهور هؤلاء المحدثين من شعراء ومتشاعرين ؟

يقول أبو فراس :

الشعر ديوان العرب
أبداً وعنوان الأدب

وما أبغى سوى شكرى ثواباً
وإن الشكر من خير الثواب

أنت تجد مثل هذا النظم السخيف أو الفاتر ، ولكنك تقع فى غير موضع من الديوان على رقائق « الروميات » وعقائل « الفخريات » ، وتقع على « أراك عصى الدمع ... »

وقد يفجأك لمح الرمز أو لطف المعنى هنا وهنا . من ذلك :

عبرن بـ «ماسح» والليل طفل
وجئن إلى « سليمة » حين شابا

تعلم –أقيك السوء– أن مدامعى
لبعدك مثل العقد أوهاه ناظمه

هذا ، وجعل بعضهم أبا فراس ضريب المتنبى وأبى العلاء ، بل قدمه نفر من المستشرقين عليهما وعلى ابن الرومى وأبى تمام هذين الفحلين . وما أظن الأمركما ظنوا جميعاً . فما أبو فراس ، على جزالة لفظه وحلاوة وشيه ووجاهة غرضه ، من زعماء المعنى الغمر والعبارة الحافلة والاشارة الخاطفة . غير أنه من أحسن من صاغ شعر الحنين فتوجع وأوجع ، وهنا فضله .

ولست اليوم بسبيل الكلام على شعر الرجل ، ولكنى قرأت ديوانه لأتعرف كيف أخرجه لنا الأديب الحلبى سامى الدهان . فقد والله كد فى تحريره وتقريبه . ومما أعجبنى فى الأديب نصبه المصاعب فى وجهه ، إذ كثر النسخ التى اعتمدها إرادة الاستثبات فجعلها أربعين ، بعد أن طاف من أجلها شرقاً وغرباً . وهو بهذا أهدى إلينا عملا منشأ إنشاء إذ خلص شعر صاحبه من الشوائب المنبثة فى ثلاث النسخ المطبوعة ، وإذ أتى برواية ابن خالويه وشرحه ، بأعلى الروايات وأفضل الشروح ، وإذ رد إلى ديوان أبى فراس ثلثيه ، فما أكرمه !

وإن مُخرَج هذا الديوان من خير ما وقعت عليه عينى . فالمتن سلم من النقائص والحواشى حفلت بالاشارات . ولا شك فى أن المخرج تعب صادقاً مخلصا . ثم إنه أراد أن يزيد على مشقة البحث والتحقيق عناء الشكل الكامل والترقيم البالغ . وقد لعمرى كان عنهما فى غنىً إلا حيث يخشَى اللبس . ولولا هذا الافراط فى سبيل تقريب الحروف إلى من اعتادوا النظر فى الشعر لكان الديوان أمن اضطرابا يسيراً استدرك المحرر بعضه فى باب« التصويب ». ومن أمثلة ما فاته : ورود « ظلوم » ثلاث مرات فى صفحة ٢٤٢ منصرفاً فى النثر على حين أنه اسم قينة فلا ينصرف .

ولست أشك أن جل ما سقط فى هذا الباب مرده إلى بعد المحرر عن موطن الطبع ، وقد أبى إلا ركوب الصعب فلا يجمل بأحد أن يتعقبه تعقب طاعن .

أما معارضة الروايات بعضها ببعض فما يدل على نشاط المحرر لشعر أبى فراس وحسن تأتيه لفهمه ، وكثيراً ما رأيت رأيه . وإن أنا وقفنى التحرى والتخير حتى إن الشك

أدركني فلم يكن هذا إلا في الندرة ، ودونك مثلا مما وقفني :

إلى الله أشكو من فراقك لوعة
طويت لها مني الضلوع على جمر

وحسرة مرتاح إذا اشتاق قلبه
تعلل بالشكوى وعاد إلى الصبر

ص. ٢٢ وفي روايات الهامش :
١) وحسرة مشتاق إذا اشتاق قلبه .
٢) إذا ارتاح قلبه . فالظاهر لي أن صحة البيت الثاني هكذا :

وحسرة مشتاق إذا التاح قلبه
أو : وحسرة مشتاق إذا التاع قلبه
أو : وحسرة ملتاح إذا اشتاق قلبه

لجلي أن لفظة « المرتاح » الواردة في نسختين (وقد آثرها المحرر) لاتستقيم معها «الحسرة» و « اللوعة » و «طي الضلوع على جمر » ، لأن المرتاح هو المسرور أو الناشط . وإنما الحسرة تلزم الملتاح أي الظمآن ، وكذلك تلزم الملتاع ، والقلب يلتاع إذا احترق من الهم أو الشوق . لذلك جعلت العرب الظمأ والالتياع من تلويحات الشوق الشديد .

وأيضاً وقفني تفضيل المحرر رواية على رواية دون تعليل . من ذلك :

طلبتك حتى لم أجد لي مطلباً
وأقدمت حتى قل من يتقدم

وما قعدت بي ، عن لحاقك ، علة
ولكن قضاء ؛ فاتني فيك ، مبرم

الترقيم للمحرر ، ص. ٣٩ . هذان بيتان من قصيدة طويلة يذكر فيها أبو فراس أسر صاحبه « أبي العشائر » وطلبه له ووصوله إلى « مرعش » في أثره . ومن روايات البيت الثاني : « قعدت بي همة » . فالظن أن « همة » أعلى من « علة » لأنها توافق سياق البيتين ، علاوة على أن في تعابيرهم المتوارثة : « همة قاعدة » . فهنا كان يحسن بالمحرر أن يؤيد في الهامش تفضيله بدليل .

ثم إن هنالك أبياتا جد قليلة لاتزال مفتقرة إلى تبيين ، مثل :

ألست ابن الألى شادوا المعالي
وأرسوا الناس بالشرف الرياسي

بضم السين في « أرسوا » ، ص ٢٣٦ . فما « أرسوا الناس » هذه ؟ هل نقرأ « راسوا » بالتخفيف ؟

هكذا ترى أن النص على وفرة النسخ ليس بالهين تحقيقه . فلا يسعني إلا أن أقدر عمل الدكتور سامي الدهان . وإن عمله ليزيده خطراً تلك المقدمة التي صنعها في اللغة الفرنسية فاستقصى فيها ما يتصل بالديوان : عرض تصانيف القدماء وإشاراتهم ورواياتهم ، منهم الثعالبي في يتيمة الدهر والحصري في زهر الآداب وابن الأثير في التاريخ الكامل وابن عساكر في التاريخ الكبير . وانتقل إلى ما سطره المحدثون أمثال البستاني وجرجي زيدان والسيد محسن العاملي وإلى مختارات نظرائهم . ثم تلفت إلى الغرب فسرد رسائل المستشرقين ومباحثهم سرداً منتظما في تصفح . وانتقد بعد ذلك ثلاث الطبعات المتداولة . ثم أكب على المخطوطات التي اهتدى إليها فما زال يقلب فيها النظر فيفرز ويفصل ويقرب ويجنب حتى رتبها بالاضافة إلى الأصول فأدرجها طوائف تحت أمات أربع ، زيادة

على ما أسماه « أشباه المجاميع » وفيها طرف من شعر أبي فراس ، وعلى ما أعجزه إدراكه من النسخ فلم يدخل في الترتيب . ثم حاول أن يسلسل القصائد على التعاقب الزمني فسلكها تحت أبواب ثلاثة : ما قيل قبل الأسر ثم فيه ثم بعده . وأتبع ذلك بتقسيم القصائد على الأغراض من نسيب وفخر ورثاء وتوجع ، وهو يفصل ويوضح . ثم رأى أن يختم سعيه بمضاهاة النسخ طائفة طائفة ، فصنف جداول محكمة بين خاصة وعامة أثبت فيها اختلاف مظان القصائد . ولا يقوى على مثل هذا السعي الشاق إلا الأقلون ممن يحالفون الصبر الطويل ولا يخيفهم الايغال في خدمة العلم المحض . وبالجملة إن تلك المقدمة تنزل منزلة أنموذج سويّ للنهج الواجب في إخراج النصوص .

بشر فارس

فى مجلات الشرق

من لبنان

الأديب العدد ٣ : ٧ (مارس ١٩٤٨)

يفتتح الأستاذ عبد الله المشنوق هذا العدد من «الأديب» بكلمة عن التعاون الثقافى المنشود بين الأقطار العربية ، جعل عنوانها « قصيدة بل أسطورة » وهو ينكر فى كلمته هذه أثر الجهود التى تبذل منذ إنشاء جامعة الدول العربية لتحقيق ذلك التعاون الثقافى ، ويزعم - ولعله على حق فى كثير مما يزعم - أن أثر هذه الجهود لا يتجاوز بضعة « كراريس أنيقة على ورق صقيل ، ومآدب سخية ، ولجان ثقافية لا تجتمع » وأن « هذا التعاون الثقافى بين الأقطار العربية ، قصيدة ، بل أسطورة ! »

وفى ثنايا هذا الحكم الذى يدمغ به الأستاذ المشنوق كل ما بذلت جامعة الدول العربية من مجهودات لتحقيق التعاون الثقافى خلال ثلاثة أعوام ، لا تتجاوز تلك الكراريس التى كتبت على عجل وطبعت طبعاً أنيقاً ثم وزعت على الأقطار العربية وصادق ممثلو الدول العربيـة على بعضها فى مؤتمر بيت مرى ... خلال هذا الحكم الدامغ يسائل الأستاذ المشنوق :

« ثم على ماذا تحتوى هذه الكراريس ؟ هى تضم عدداً من الأسئلة صيغت بشكل يوحى جواباً معيناً مقصوداً ، وهى تتناول القدر المشترك من قواعد اللغة وآدابها والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية . »

ويمضى فى مساءلته :-

« أليس من المؤسف حقا أن نبحث القدر المشترك فى هذه الموضوعات قبل أن ندرس المستوى العلمى الدراسى فى مختلف مراحل الدراسة بين الأقطار العربية ونعمل على توحيده ... وهل تقوم اللجان الثقافية بدرس مشاكل المعلمين وإعدادهم ، والبعثات العلمية ، وكتب الدراسة ، والرحلات المشتركة ، وتزاور كبار الأدباء والعلماء العرب ، والمكتبة العربية ، والتأليف ، والتعاون على إحياء التراث القديم ، وعلى تنشيط التأليف وتوجيهه ... وما هو نصيب الأدب والفن (الموسيقى والتصوير والنقش) من عناية اللجان الثقافية ... وأى أثر كان لتواصى مؤتمر بيت مرى ؟ ... »

ويبدو أن هذه الأسئلة الذى يتوجه بها الأستاذ المشنوق إلى قرائه ، يدور مثلها فى أدمغة كثير من المثقفين فى دول الجامعة العربية السبع وفى غيرها من البلاد العربية التى لم يكن لها حظ المشاركة فى لجان الجامعة الثقافية ومؤتمراتها ؛ فان العصبة المحدودة الاتجاه التى تشرف على الشؤون الثقافية لجامعة الدول العربية ، ليست من سعة الأفق بحيث تتنور هذه الأهداف البعيدة التى يأمل أن يبلغها كل مثقف واع من أبناء البلاد العربية ، فلم تسلك طريقها الذى سلكت عن علم وبصيرة وتجربة ، بل

سارت منقادة فى الطريق الذى رسم لها بعض المشرفين على شؤونها من كبار أصحاب السلطة ، كما يمضى كل « موظف » فى الطريق الذى يدفعه إليه « رئيسه » وصاحب السلطان عليه لا يدرى أين يبلغ ! فالأمر فى ذلك أمر حكومات لا أمر علماء من أهل الرأى والتجربة والادراك الشامل والأهداف القومية المدروسة البعيدة المدى . وليس العيب فى ذلك هو عيب أولئك السائرين إلى غير هدف يتنورونه ؛ إذ كانت كل كفايتهم فى عملهم - كموظفين - هى الطاعة ! ولا هو عيب الحكومات التى قلدتهم وظائفهم ودفعتهم إلى هذا النهج ؛ إذ كان الحكام فى هذه البلاد العربية - على العادة وفى أغلب الأحوال - ليسوا من الثقافة بالمنزلة التى يؤمل معها أن يكون لهم توجيه سديد فى الشؤون التى تتصل بالآداب والعلوم والفنون والثقافة العامة . وفى مصر - كما فى لبنان - لا يأمل الشعب فى الوقت الحاضر على الأقل أن يكون القائمون على شؤونه فى تلك المنزلة ... فاذا كان ثمة تقصير ينسب إليه هذا العجز عن تحقيق معنى التعاون الثقافى بين البلاد العربية ، فانما هو تقصير الشعوب، وبتعبير أدق : إنما هو تقصير المثقفين وأهل الرأى فى البلاد العربية . إن الشعوب هى التى توجه الحكومات ثم تنقاد لها بعد ذلك . أما الشعب الذى يأمل أن يأتيه التوجيه من حكامه فهيهات أن يبلغ أمنية . وما هذه الجامعة التى يراد منها أن توجه البلاد العربية إلى التعاون الثقافى ، إلا حكومة مصغرة من تلك الحكومات السبع التى تمثلها ؛ وما لجنتها الثقافية هذه إلا طائفة من الموظفين فى هذه الجامعة إلى طائفة من الممثلين السياسيين فى المفوضيات والقنصليات العربية بالقاهرة فهل كان يأمل الأستاذ المشنوق أن يكون توجيه الثقافة العامة فى البلاد العربية عملا من أعمال طائفة من الموظفين إلى طائفة من الممثلين السياسيين كل ثقافتهم التى يتميزون بها أن يحسنوا الاستقبال والتوديع وترتيب مقاعد المدعوين فى الحفلات العامة ؟

ذلك مطلب بعيد !

الطريق العددان ٢ ، ٣ : ٧ (فبراير — مارس ١٩٤٨)

فى هذا العدد من تلك المجلة « التقدمية » يجدى القارئ صدى بعيداً للحوادث التى كانت فى العراق منذ بضعة أسابيع تعبيراً عن سخط العراقيين العام على معاهدة «جبر — بيفن» ؛ فقد استغرق حديث الثورة العراقية هذه أكثر صفحات المجلة التى تبلغ ١٤٤ صفحة ؛ بين عرض للحوادث ، وتعليق عليها ، وأحاديث أدبية تتصل بها ، ويوميات تفصل مجملها ، وشعر مما قيل فى رثاء شهدائها ...

ومما يعبر أبلغ تعبير عن الأثر الذى تركته تلك الثورة فى نفوس العرب فى خارج العراق وداخلها ، ذلك المقال الافتتاحى الذى كتبه الأستاذ رئيف خورى بعنوان « طريق صالحى جبر ... وطريق العرب ! »

ويقول فى ختامه :

« الشعوب العربية قد أفصحت عن إرادتها يوم غضبت بيروت غضبتها على المستعمرين الفرنسيين ، ويوم سالت الدماء

في دمشق ، ويوم أبينا إلا الجلاء ، ويوم رفضت مصر توقيع المعاهدة مع بريطانيا ، ويوم انتقض العراق انتقاضته الأخيرة الجبارة ! وليس يخامرنا ريب في أن إرادة الشعوب العربية ستكون بالنتيجة هي الارادة المتصرة ! إن صالح جبر قد اختار طريقا ... و إن الشعب العراق قد اختار طريقا هي طريق الشعوب العربية . فهل للأفراد جميعا أن يعرفوا أن طريق صالح جبر وأشباهه ، طريق اضطهاد الحريات والتنكيل بالأحرار وتهريب المعاهدات الاستعمارية وقذف الشعب بالرصاص ، ليست هي بالطريقة القويمة ، حتى ولا هي أسهل الطرق كما يخيل للبعض ، مع تعاظم يقظة الشعوب العربية واشتداد سواعدها ضد الاستعمار ومشاريعه ؟ »

المشرق الجزء ٣ : ٤١ (يوليه — سبتمبر ١٩٤٧)

في هذا الجزء من مجلة المشرق الكاثوليكية بضعة مباحث ممتعة ، أولها بعنوان « الوراقة والوراقون في الاسلام » للأستاذ حبيب زيات ، وهو بحث مفصل في نحو ٥٠ صفحة استند فيه باحثه إلى بضعة وأربعين مرجعاً من الأمهات ، وتحدث فيه عن الوراقة ، والأمالي ، والاستملاء ، والنسخ ، والخط الوراق ، وطبقات الوراقين ، والمشتهرين بالوراقة من أصحاب الفنون والآداب والقصص ... إلى غير ذلك مما يتصل بالوراقة وأهلها ؛ فجاءت رسالة وافية بموضوعها لا أعلم في العربية خيراً منها جمعا واستقصاء وتبويباً . وينتهي الأستاذ حبيب من بحثه هذا برواية كلمة المهلب لبنيه : « يا بني ، لايقعدن أحد منكم في السوق ، فان كنتم لابد فاعلين فالى زراد أو سراج أو وراق ! »

ثم بحث آخر للأستاذ الفريد البستاني عن كتاب « المقتضب من تحفة القادم » لأبي عبد الله بن الأبار القضاعي البلنسي المتوفى في تونس سنة ٦٥٨ هـ .

وصاحب هذا البحث هو أستاذ الأدب العربي في معهد الدروس المغربية بتطوان ، وله عمل في مؤسسة الأبحاث العربية الأسبانية هنالك ، وهي مؤسسة تعمل فيما تعمل لنشر الثقافة الأندلسية والمخطوطات النفيسة وكل ما له صلة بتاريخ العرب بالأندلس من خلال الوثائق والآثار والمخطوطات . وهذا الكتاب الذي يعرضه في مجلة « المشرق » ، هو من سلسلة مجموعات المؤسسة التي أعدتها للنشر في جدول أعمالها السنوية .

وقد أراد ابن الأبار بكتابه « تحفة القادم » أن يجمع في كتاب ما سها عنه مؤرخو الأدب الأندلسي من آثار أعلامه وأغفله من سبقه من الأدباء ومن عاصروه ، ويعارض به صفوان بن إدريس المرسي صاحب « زاد المسافر » وابن رشيق في « شعراء القيروان » ، فأضاف بعمله هذا فصلا قيما إلى تاريخ أدباء المغرب وفتح بابا جديداً في دراسات تاريخ الأدب الأندلسي . ثم جاء أبو إسحاق البلفيقي في القرن العاشر فانتخب من كتاب ابن الأبار هذا جملة صالحة وسماها « المقتضب من تحفة القادم » وهو الكتاب الذي عثر به الأستاذ البستاني في مكتبة الأسكوريال وأفرد له هذا البحث ونشر بعضه محققاً — على ماوسعه الجهد — في هذا الجزء من هذه المجلة فاستوعب خمسين صفحة ، واعداً

أن يوالى نشر الكتاب فيما يلى من الأعداد .

وثمة بحث ثالث عن « حمامات دمشق » للأستاذ صلاح الدين المنجد رئيس ديوان مديرية الآثار العامة فى سورية ، فيه تحقيق وتدقيق واستيعاب .

وبحث آخر للأب أسطفان لاتور اليسوعى ، ترجمة الأب توتل اليسوعى ؛ ينقد فيه كتاب « تاريخ أسبانية فى عهدها الاسلامى » الذى نشره بالفرنسية الأستاذ ليفى بروفنسال فى سنة ١٩٤٤ تحت إشراف المؤسسة الأثرية الفرنسية فى القاهرة .

إلى بحوث أخرى لا أجد متسعاً لغير التنويه بها وبالمجلة التى تفسح لها صدرها مترفعة بمستواها العلمى عن النزول إلى المنحدر الذى هبط إليه كثير من مجلات الشرق متخففة من أثقال العلم إلى السفاسف التى تستهوى عامة القراء !

من سوريا

الحديث العدد ٢ : ٢٢ (فبراير ١٩٤٨)

ويتحدث محرر مجلة «الحديث» التى تصدر فى حلب عن ازدحام العاصمة السورية بالطلاب الذين يفدون إليها لطلب العلم فى كليات الجامعة وما يلقون من عنت فى أسباب العيش ، لغلاء الأسعار وضيق المساكن حتى ليتكلف الطالب أكثر من مائتى ليرة فى الشهر إلى ثلاثمائة (٢٢ — ٣٣ جنيهاً مصريا) وهو مبلغ ضخم لا يستطيع أن يتحمله الطالب ، فيعمد إلى بعض الأعمال الحرة أو الحكومية يكسب منها عيشه — كله أو بعضه — « وهذا ما يجعل من الطالب الجامعى نصف متعلم ، لأنه لن يستطيع أن يوفق بين أعباء الحياة وأعباء الدراسة ، أى لن يستطيع أن يعطى كل نشاطه إلى دروسه ... »

ثم يسأل المحرر بعد هذا : ألا توجد وزارة المعارف السورية حلا لهذه المعضلة ؟

ويتمنى على الحكومة أن تنشئ بيوتاً للطلاب فى كل مدينة ، فيعطى كل طالب غرفة صحية لسكناه يتمتع فيها بما يحتاج إليه من أنواع الراحة ، وتقدم إليه وجبات الطعام بثمن مستطاع !

وهذه المشكلة التى يتحدث عنها محرر «الحديث»، ليست خاصة بسوريا دون بلاد الشرق ؛ ففى القاهرة مثلا حيث يبلغ عدد طلاب المعاهد المختلفة أكثر من نصف مليون طالب وطالبة لا يقل الغرباء منهم عن خمسين ألفاً — يعانى الطلاب ما يعانون من غلاء الأسعار وأزمة المساكن وتكاليف الحياة التى لم يتعودوها ولا يتهيأ لهم فيها الراحة والاستقرار والبعد عن المغريات ، وهى العناصر الضرورية ليتفرغ طالب العلم لدرسه ويتوقى عوامل السوء التى تتنازعه . هذا إلى أن القاهرة — من هذه الناحية — أخف وطأة على الطلاب الغرباء من عواصم شرقية أخرى ؛ ففيها يستطيع الطالب الفرد أن يعيش عيشة متوسطة بثلث المبلغ الذى يقدره محرر «الحديث» للطالب الذى يعيش فى دمشق .

وقد فكرت وزارة المعارف المصرية

أن تيسر على الطلاب الغرباء فى القاهرة والعواصم بانشاء بيوت تؤويهم ويشرف عليهم فيها طائفة من أساتذتهم يكونون لهم فيها آباء ومعلمين وأصدقاء مرشدين فى وقت معا . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ على وجه عام ووقفت منها بعض الحكومات فى مصر موقفا معارضا وإن كانت قد نفذتها على نطاق ضيق بالنسبة للطلاب الشرقيين ، وللطالبات ... ولكنها حتى فى هذا الحيز المحدود لم تنفذها طيبة النفس راضية بما تبذل لها ، فأخذت فى نوع من المحادثة مع جامعة الدول العربية لتلقى عليها عبأها وتتخفف من نفقاتها ؛ ولا بأس فى هذا لو أن جامعة الدول العربية ولجنتها الثقافية كانت مأمولة لخير ...

لقد حل الأزهر هذه المشكلة قبل أن يفكر فى وجودها أى بلد من بلاد الله فى الشرق والغرب ومنذ مئات من السنين ، فلا حاجة بمحرر «الحديث» إلى الاستشهاد بما فعلت أسبانيا ولا غير أسبانيا فى هذه السنين ؛ فان أمامنا المثل الصالح للاحتذاء فى مصر العربية ؛ وهو بقليل من التحسين الذى يلائم حالة التطور الاجتماعى كفيل بأن يحل مشكلة الطلاب الغرباء على خير وجه لو آمن المشرفون على شؤوننا الثقافية والاجتماعية بأن من حق الشعوب أن تتعلم وأن تيسر لطلاب العلم فيها - وغير طلاب العلم - أن يعيشوا عيشة كريمة !

ويذكر محرر «الحديث» فى موضع آخر من مقاله زيارته لبعض بيوت أهل الثراء فى ضاحية من ضواحى بلده ، فيصف ما لقى من الاكرام ثمة ، وما هيئ له من الطعام الدسم والشراب اللذيذ وأسباب المتعة والسرور ؛ ثم يقول إنه أوى بعد الغداء إلى حيث هيئوا له مكاناً ليستريح ، فبحث - على ما تعود - عن كتاب يقرؤه ، أو صحيفة يطالعها فلا يجد ، فيسأل حنقاً : « ماذا ؟... بيت كالقصر ، صاحبه من الذين أخذوا بحظ وافر من مباهج الحياة ، ينفق بسخاء ، ثم لا تجد كتاباً فى مضافته ؟... أنا لا أعرف كيف يعيش بعض الناس بدون أن يسامرهم الكتاب !... وكيف تخلو هذه البيوت المؤثثة بأثمن الرياش وبمختلف مظاهر البذخ وألوان الترف من مكتبة صغيرة تضم عشرات الكتب فى شتى فنون الأدب والتاريخ والاجتماع ؟ »

يا عجبا !

ألم يعرف محرر «الحديث» إلا يومئذ أن الأمة العربية التى تضم ٧٠ مليوناً ، ليس فيها من القراء أكثر من بضعة آلاف قارئ ؟

ذلك هو الحق الذى لا يجدى فيه جحود ولا مكابرة ، وإلا فكم ألفاً يطبع من أشهر كتاب لأشهر كاتب فى هذا الجيل ؟ فليدع حديث مئات الآلاف من قراء الصحف والمجلات الهازلة الداعرة ؛ فأولئك طبقة من الأميين لا يدخلون فى إحصاء القراء ، ثم ليحاول جواباً ؟

هل يطبع من أشهر كتاب لأشهر كاتب فى هذا الجيل أكثر من بضعة آلاف نسخة ، أو بضعة عشر ألفاً ! فذلك هو عدد القراء على التحقيق ؛ فلا يخدعنه ما يذاع - كذباً وزوراً - على سبيل الفخر والمباهاة : أن عدد الأميين فى البلاد العربية لا يزيدون على ٩٠ ٪ ويالها مفخرة لو صدق الفاخرون !

من العراق

دار المعلمين العالية العدد ١ : ٢ (١٩٤٨)

هذه مجلة مدرسية (أو معهدية) باعتبار المعهد الذى تنتسب إليه فى بغداد ، ولكنها فيما أرى أعظم قيمة ، وهى بانتسابها إلى دار المعلمين العالية تعنى بشؤون التربية ؛ فهذا مقال الدكتور خالد الهاشمى عميد الدار عن « أهداف التربية والتعليم فى العراق » يقرر فيه ضرورة استناد أهداف التعليم ومناهجه إلى فلسفة تربوية اجتماعية يستطاع الركون إليها والاسترشاد بها ؛ ويكاد ينكر أن للتعليم أهدافاً مرسومة على هذا الوجه الذى يشير إليه .

وثمة مقالات أخرى فى فنون من الثقافة مما يتصل بحاجة المعلمين ، والطلاب الذين يهيئون أنفسهم ليكونوا معلمين .

والاستاذ إميل جبر ضومط أستاذ الفيزيا فى الدار بحث طيب عن « الاصطلاحات العلمية الحديثة فى اللغة العربية » يميل فيه إلى نحو من التوسع فى استعمال بعض الكلمات اللاتينية ونحوها فى هذه المصطلحات المنقولة ، ويعرض أمثلة ويحتج ببراهين ، يرمى من وراء ذلك إلى التدقيق فى دلالة الألفاظ على معانيها من ناحية ، وخفتها فى الاستعمال من ناحية أخرى بالقياس إلى بعض الكلمات التى يراد أن ينفض عنها غبار المعاجم العربية لتستعمل استعمالا حديثاً فيما غير ما وضعت له فى القديم .

وهو رأى من حقه أن يناقش ويرد عليه ويجاب عنه ؛ فلا يؤخذ على عمومه ولا يتوسع فى الأخذ به . ولكن يكفينا مئونة هذه المناقشة أن هذا الموضوع قد خرج — فى جملته — من نطاق المباحث الفردية حين اضطلع به مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، الذى يمثل فيه علماء من جميع البلاد آراء أهل العلم فى بلادهم . فلندع حديث هذه المصطلحات وأسمائها لأعضاء هذا المجمع اللغوى حتى ينتهوا فيه إلى الرأى الذى يحدد الأسماء لمسمياتها فى كل البلاد الناطقة بالعربية فلا تتبلبل ألسنتهم ويختلفون طرائق فى التسمية والتعبير .

فى مجلات الغرب

من الجزائر

فورج عدد خاص عن الكاتب الأسبانى سرفانتس (١)

[ذلك الجلال الجبار الذى تتتابع به حوادثها ، وذلك الارهاف الذى تنفذ به إلى أعماق قلوبنا ، والذى تجعلنا تنفذ به إلى طوايا القلوب ، ما تكشفه القصة من ضعف تخضعنا له حواسنا ، ومن جبروت طاغ تخضعنا له شهواتنا ، كل هذا يجعلنا — فى إعجاب غامر — نقرن هذه القصة «قصة دون كيشوت» بأرقى وأقوى ما كتب دستويفسكى وشكسبير من صفحات.]

جان كاسو

تمت فى العام الماضى أربعمائة سنة على مولد ميجويل دى سرفانتس (٢) فى الكالا دى هينيرس — مدينة ينم اسمها الأسبانى عن أصله العربى ويذكر بملك العرب وقلاعهم وحضارتهم فى الأندلس . ولد فى أسرة متواضعة عجزت حتى عن أن ترسله إلى المدارس ، وعاش حياة شاقة لم يعرف الراحة فيها قط . اشتغل خادما وكاتبا للقاصد البابوى ، فثقلت عليه حياة لا استقلال له بها ولا مجد فيها ، وغامر فى حياة الجندية فأصيب فى ذراعه بعاهة يوم وقعة ليبانت ، وقبض عليه القراصنة وأسروه فى الجزائر سنوات ، واشتغل كاتبا للحسابات فكان يقع فى أخطاء حسابية تؤدى به إلى السجون ، ثم مات فى نفس اليوم الذى مات فيه شكسبير (٣) ، مات مشردا معدما وإن كان قد خلف للانسانية تراثا وسع كل الأمم فشاركت وما زالت حتى اليوم تشارك فيه ، ترك لنا كتاب « دون كيشوت » وكتاب « القصص المثالية » كما ترك لنا مسرحية « نومانس » .

مولد سرفانتس فى الأندلس ، وأسره فى بلاد المغرب العربى ، ما لمحه وحققه البحث العصرى من صلات وتأثيرات للأدب

---

(١) *Forge*, Cahiers litteraires Nord-Africains, No. 5 et 6 Octobre - Novembre 1947 : « Hommage à Cervantes ».

(٢) أنظر «ميجويل سرفانتس» فى مجلة «الكاتب المصرى» عدد ٣٥ (أكتوبر ١٩٤٧).

(٣) ٢٣ ابريل سنة ١٦١٦ .

العربي في قصته « دون كيشوت » (١) ، وأخيراً ما تجلوه آثار سرفانتس على أهل عصرنا ، في تحللهم وشكوكهم واستخفافهم ، من معاني الايمان والطموح والعمل الايجابي لتحقيق المثل العليا ونصرة الخير والحق — بعض هذا كان سبباً كافياً لاخراج هذين العددين من مجلة « فورج » تحية لسرفانتس ، وهذا كله يجعلنا نقصر الحديث اليوم عليهما .

وأول ما نلاحظه في هذين العددين — وقد صدرا في مجلد واحد — هو مشاركة الكتاب والفنانين العرب في إصداره . كتب بعضهم بالفرنسية ، ولكن بعضهم كتب لأول مرة باللغة العربية ونشر مقاله بهذه اللغة مع ترجمة فرنسية . وهذه أول مرة تنشر المجلة فيها مقالات بالعربية . تثبت هذه الخطوة الجديدة في سبيل التعاون والتفاهم وتقدرها قدرها ، ولكنا نرجو أن تكون عناية الذين يكتبون بالعربية في أعداد المجلة القادمة أظهر جدا من عناية الذين كتبوا بها ، ومن ترجموا من الفرنسية إليها في هذا المجلد . ثم نلاحظ عناية المجلة بالرسوم الفنية في هذا المجلد ؛ فقد ألحقت به سبع صور ممتازة قوية التعبير كلها من وحي سرفانتس ، منها صورة رسمها الرسام العربي محيي الدين الطرطوشي تمثل سرفانتس في أحد شوارع مدينة الجزائر عام ١٥٧٥ ، ومنها اللوحة التي رسمها دي بوزون لدون كيشوت وسانشو بانزا بطلي قصة سرفانتس الخالدة . وقد وفق الفنان في هذه اللوحة ليس إلى تصوير الرجلين فقط ، بل إلى التعبير القوي عن الصراع الذي ما زال يتقسم نفس الانسانية منذ الأبد ، والذي تمثله قصة « دون كيشوت » . نرى في أدنى اللوحة التي رسمها الفنان صورة سانشو قاعداً مطمئنا في قعوده ، باسما ، راضيا عن نفسه كل الرضا . هو راض عما حوله من طعام وشراب وأداة من أدوات اللهو ، ومطية سهلة يسيرة هي الحمار الذلول بصره مردود إلى الأرض مقصور على الخبز واللحم والخمر ، في عينيه وشفتيه ابتسامة كلها دعة وبلادة واطمئنان . في أعلى الصورة يرتفع قوام دون كيشوت لا يظهر الفنان منه إلا نصفه الأعلى ، وقد حجبت جثة سانشو نصفه الأسفل ، فهو يبدو للناظر وكأنما ينشق عن رجل القناعة والرضا ويسمو منه ، في يساره كتاب يعلم منه الحق والعدل وفي يمينه سيف يقر به الحق والعدل اللذين آمن بهما ، عيناه إلى السماء يرقى بهما إلى المثل الأعلى الذي لا يزال ينشده ، وبوجهه آثار ذلك الهم النبيل الذي تنطوي عليه نفسه ، قد ظهر من خلفه في الصورة جواد يبجاز (٢) وهو ثائر ، مشبوب ، تكاد تتحرك الصورة بنزاعه إلى الوثوب ، هيئة أرادها الفنان مناقضة كل المناقضة لخمول الحمار في ضجعته ، كما جعل صورة دون كيشوت مناقضة لصورة سانشو ، فنجح فيما أراد كل النجاح .

وقفنا عند هذه الصورة قليلا لأنها تكاد تلخص فكرة المجلد كله ، فان التحية الموجهة إلى سرفانتس في هذا المجلد ، لم تتمثل في اطراد أسلوبه أو حتى نقده وتحليله ، ولكنها قد اتجهت إلى استخلاص وتجلية البواعث والهموم والمقاصد التي توحيها كتابات هذا الاسباني الخالد . نرى هذا في

---

(١) ألقى الدكتور طه حسين بك محاضرة عامة عن هذا الموضوع في جامعة فاروق الأول في الاسكندرية سنة ١٩٤٣ .

(٢) Pégase

الحوار الطويل — أو المسرحية القصيرة — الذى يطالعنا فى أول العدد[١]. كتب هذا الحوار الكاتبان جوزيه سانشيس بانوس ولويس بيير فبلغا فيه مبلغا عظيما جدا من التوفيق، ولخصا فى صفحات قليلة قوية حياة وعمل وتفكير سرفانتس. وقد بدأ هذا الحوار فى مدينة الجزائر حيث سجن سرفانتس فى إحدى سنوات الأسر أيضا، سنة ١٥٧٩. وقد ختم الكاتبان الحوار بما يشبه المغزى أو الموعظة التى يستخلصانها من مسرحياته القصيرة. وكنت أود لو أعفى القراء من هذا الختام، فليس بهم إليه حاجة، وقد كان فى الحوار نفسه بما فيه من قوة الرمز وحسن الأداء ما يغنى عن بسط المغزى للقارئ.

يلى هذا الحوار مقال قليل القيمة عن عصر سرفانتس للكاتب جورج ماريا، ثم مقال آخر عن المحيط الطبيعى الذى تدور فيه حوادث قصة «دون كيشوت» — كتب هذا المقال بالفرنسية الكاتب عمر جلالى[٢] فأحسن إحساناً كبيرا. يبدأ مقاله بتتبع رحلة مؤلف «دون كيشوت» من أشبيلية إلى مقاطعة لامانش عام ١٥٦٩، ثم يقدم للقراء صورة للمقاطعة فى ذلك العهد بمدنها وقراها، بما فى تلك المدن والقرى من شوارع وأزقة وبيوت وناس، ويصور جبال المقاطعة الموحشة وأوديتها الفقيرة القاحلة، وما كان يتسامر به أهل الجبال أو يتهامس به أهل الأودية من القصص والأساطير وحكايات المغامرات، يصور هذا كله مثبتاً تأثر سرفانتس العميق بطبيعة تلك المقاطعة، متتبعاً هذا التأثر فى قصة «دون كيشوت»، موضحاً كيف كانت مقاطعة لامانش جديرة بأن توحى إلى سرفانتس شخصية كيشوت البطل الحالم والشاعر المغامر فى نفس الوقت الذى توحى إليه فيه شخصية سانشو الفلاح الخامل القانع بالبحث عن رزق يومه.

وفى مقال آخر يرى الكاتب الأسبانى مونوا[٣] أن دون كيشوت ليس إلا صورة من نفس مؤلف القصة، وأن صراع دون كيشوت ونزاعه إلى المثل الأعلى هو صراع سرفانتس ونزاعه، وإن يكن قد أضفى عليه من الابتسام والسخرية الرقيقة ستاراً لا يحجب ما تحته من صرامة وجد. ثم يرى الكاتب أن شخصية دون كيشوت وشخصية سرفانتس نفسه ليستا إلا صورة من نفس أسبانيا، أسبانيا المكافحة الثائرة لمثل العدل والحب والحرية والسلام دائماً.

وفى تصوير هذه الثورة الدائمة لتحقيق تلك المثل العليا، وفى الرمز إلى أن أسبانيا ما زالت حتى يومنا الحاضر ثائرة لتحقيق تلك المثل المنشودة، يكتب الكاتب الأسبانى جوزيه سانشيس بانوس مقالا ثانيا عنوانه «أسير قراصنة آخرين»[٤]. وحول هذه المعانى نفسها يكتب مارسيل هاروىمى مقالا ممتازا عن نومانس[٥] المدينة الأسبانية التى خلدها سرفانتس فى تصويره لكفاحها للحرية، المدينة الأسبانية التى عرف أهلها أن الرومان سيغزونهم فى عقر دارهم، وأنهم

---

(١) José Sanchis Banus et Louis Pierre, *Evocation de Cervantès*

(٢) Omar Djillali, *Paysages du Don Quichotte*

(٣) *Sobre la Obra de Cervantes*, por Eulogio Munoa

(٤) *El Cautivo de Otros Corsarios*, por José Sanchis Banus

(٥) M. Harouimi, *Numance ou la tragédie d'un peuple libre*

لا قبل لهم بهم وأن لاسبيل إلى الفرار منهم ، ففضلوا الموت على التعرض لاستعبادهم وتناحروا جميعاً إلا واحدا منهم أحب الحياة حبا جما فلاذ ببرج المدينة الشاهق يعتصم به . جبن عن أن يقتل نفسه أو أن يدعو غيره إلى قتله كما فعل مواطنوه جميعاً . وقد بقى بالبرج حتى دخل الرومان إلى نومانس فلم يجدوا من يستأسر من أهلها ليسعوا به إلى روما ويسيروا به فى طرقاتها ويزفوه إلى أهلها رمزاً لانكسار نومانس واستذلالها . حتى إذا بلغوا البرج ورأوا ذلك الذى اعتصم به أمنوه ، وعرف أنهم مبقون على حياته ، ساعون به إلى روما ، فعز عليه أن يخذل مدينته نومانس وما خذلها من أهلها سواه ، فلم يستسلم ولم يستأسر وألقى إلى قائد الرومان خطابا قوياً رائعاً أوله حديث الخوف الذى أحس به والجبن الذى أطلق ساقيه بالفرار إلى البرج ثم قيدهما به ، ثم أشار إلى الأسر الذى إن أبقى عليه حياة جسده فانه متلف نفسه ، وإلى الذل الذى سيلحق بلده إن هو استأسر ، وانتهى إلى أنه الآن يحس قوة نفسه ترتد إليه ، ويجد بعض تلك القوة التى عرفها مواطنوه ، وفروا بها من الذل إلى الموت ، ثم يتبع ذلك بالقاء نفسه من أعلى البرج فيعصمه الموت من الأسر والاستذلال . يحكى الكاتب قصة هذه المدينة ويحلل المسرحية الرائعة التى صور مؤلف «دون كيشوت» فيها تلك البطولة ، والخطبة التى أجراها على لسان صاحب البرج ، مسجلا الجملة المأثورة «إن نومانس قد هزمت هازميها»

وهذا المقال لايمتاز بروعته وبما يهز فينا من مشاعر الوطنية فقط ، ولكنه يلفت القارئ إلى أن شهرة سرفانتس باعتباره مؤلف «دون كيشوت» لا ينبغى أن تحجب نبوغه باعتباره مؤلفاً مسرحياً جديراً بأن يقرن ويقارن بمعاصره الاسبانى دى فيجا [1] بل بمعاصره الانجليزى شكسبير .

وهذا المجلد لايظهر لنا سرفانتس كاتباً ومؤلفاً مسرحياً فقط ، ولكنه يقدم إلينا قصيدة إسبانية من شعر سرفانتس مع ترجمة فرنسية لها ، وهى قطعة غزلية عنوانها «التنجيم» [2] .

وإلى جانب شعر سرفانتس قصائد أخرى أوحتها أعمال سرفانتس لشعراء محدثين من الفرنسيين والاسبان ، نذكر منها مع الاعجاب قصيدة « فى طريق الحلم » للشاعر الاسبانى سيجوفيا [3] . والعدد لا يظهر أثر سرفانتس فى فن الشعر فقط ، ولكنه قد خصص مقالين ، أحدهما للحديث عن تأثير « دون كيشوت » فى الغناء والآخر عن تأثيرها فى السينما .

وقد أخرت حتى ختام هذا المقال عرضى للقصة العربية التى حدث بها محمد عبدالجليل الجزائرى وكتبها رشيد التونسى [4] ، أخرتها لمافيها من بساطة ومن رمز ومن إيحاء ، هى قصة جزائرى صغير فى الثانية عشرة من عمره ، تقع فى يده قصة « دون كيشوت » فيقرؤها فى ركن من أركان داره الريفية ، ثم يعود إلى قراءتها وقد خلبه ما فيها من ايمان دون كيشوت وحماسته للعدالة والنجدة ، فما هو إلا أن

---

(١) Lope de Vega

(٢) *La Buenaventura*

(٣) *Por Los Caminos del Sueno,* por S. L. Herrero Segovia

(٤) «لقاء مع سرفانتس» .

يقرأها المرة بعد المرة حتى يتحول إعجابه إلى رغبة ملحة فى أن يسير هو نفسه سيرة دون كيشوت ، وأن يطوف مثلما طوف بطل سرفانتس ليحمى المستضعف ويذود برمحه عن حق المسكين . يصنع الصبى لنفسه من أغصان الشجر رمحاً طويلا ، ويطوف على قدميه — فانه لم يجد حتى مثل الحصان الأعجف الذى وجده دون كيشوت ، وما يلبث أن يبدأ أولى مغامراته — وآخرها — حين يرى أعرابية صغيرة فى قبضة جندى فرنسى ؛ فقد رعت الصغيرة أغنامها فى بعض الأراضى التى جعلتها السلطات الفرنسية لنفسها وحظرت على الأعراب الرعى فيها ، وهذه البنت الصغيرة تتلوى وتصرخ وتبكى وتستنجد فى يد ممثل السلطة ، لا تعرف ولا تفهم ما جريمة الرعى وما حظر العشب على أغنامها . يرى عبد الجليل هذا فيتقدم بحربته ويرى بها الجندى من وراء فيسقط على الأرض ، وتفر الفتاة من قبضته وتعدو إلى البادية . ولكن الجندى يلتفت إليه وينهال بالضرب الموجع عليه ، ثم يريد أن يسعى به إلى السجن . ولم تنفع دون كيشوت الصغير لا حريته ولا خيالاته ، ولكن نجاه أن رآه شيخ من البدو ، لم يلبث أن غاب فى أشجار الزيتون ، ثم عاد بجماعة قد تسلحوا بأغصان من الشجر ، وبدت فى وجوههم علامات التصميم والاجماع والجد . تقدموا صوب الجندى والصبى ، ففهم الجندى وأسرع باطلاق الصبى بعد أن أنذره ألا يعود إلى مثلها . يقول عبد الجليل فى ختام المقال موضحا رمز المقال وايحاءه : « ولقد قرأت فى السنة الماضية كتاب « دون كيشوت » مرة أخرى ، فوجدت نفسى ما زلت معجبا « بهدلقو »(1) الخالد . ولكن استخلصت من تجاربى أن عهد المنتصرين للحق بمفردهم قد انقضى وفات ، وأن جماعة من الرجال تحدوهم الارادة والعزم والاتحاد ، ولو كانوا مسلحين بالعصى فقط ، يخدمون الحق أكثر مما يخدمه الفارس المسلح بالحربة . »

أمينة طه حسين

---

(1) هدلقو تعريب Hidalgo يقصد دون كيشوت .

قائمة الكتب التى أصدرتها دار الكاتب المصرى بإشراف الدكتور طه حسين بك

الأدب والقصص الحديث

قلوب الناس، قصص تحليلية، تأليف ابراهيم المصرى.

قصص جديدة للكاتب المعروف ابراهيم المصرى يصور فيها بيئتنا المصرية الحديثة فى أسلوبه السهل الجذاب: ساميه وإنعام، المقامر، قصة امرأة، أطوار النساء، مأساة ضمير، بعد سبع سنوات، نداء البحر، روايح الجنة، الحياة الثانية، هو القدر، سلطان المثل الأعلى.

٨ + ١٣٦ صفحة، الثمن ١٥ قرشا.

*

لقيطة، تأليف محمد عبد الحليم عبد الله، جائزة فاروق الأول للقصة.

القصة التى نالت جائزة فاروق الأول من مجمع فؤاد الأول للغة العربية لما فيها من وصف دقيق لنفس معذبة فى أسلوب عربى متين رصين.

٨ + ٢٥٢ صفحة، الثمن ٢٥ قرشا.

*

من حولنا، قصص مصرية، تأليف محمد سعيد العريان.

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه، يرى كل قارىء فى مرآته صورة من نفسه، أو صورة من حوله، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه.

١٠ + ٢٦٢ صفحة، الثمن ٢٥ قرشا.

على باب زويلة، قصة تاريخية، تأليف محمد سعيد العريان، الجائزة الأولى للقصة من مجمع فؤاد الأول للغة العربية لسنة ١٩٤٧.

كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد، كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين.



طبعة مزينة بالصور، ١٢ + ٣٥٢ صفحة، الثمن ٣٠ قرشا.

*

حكايات فارسية، بقلم يحيى الخشاب.

كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً رقيقاً حسن الوقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة.

١٠ + ١٩٨ صفحة، الثمن ٢٠ قرشا.

من الأدب الفرنسى

Maurice Barrès, UN JARDIN SUR L'ORONTE.

جنة على نهر العاصى ، تأليف موريس بارس عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب محمد عبد الحميد عنبر وعبد الحميد عابدين .

غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر العاصى حيث تملأ السواقى بأنينها أجواز الفضاء .

١٦٨ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

*

Léon Daudet, LA VIE ORAGEUSE DE CLÉMENCEAU.

كليمنصو وحياته العاصفة ، تأليف ليون دوديه ، تعريب حسن محمود .



كليمنصو ... مسقط الوزارات... النمر ... الرجل الذى عاش حراً فأصبح مغلولا ... الرجل الذى طلب أن يدفن واقفاً فى القبر ... زعيم فى السياسة بقلم زعيم فى الأدب . طبعة مزينة بالصور وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه ، ١٦ + ٢٧٢ صفحة ، الثمن ٣٥ قرشا .

*

André Gide, LA PORTE ÉTROITE.

الباب الضيق ، تأليف أندريه چيد ، تعريب نزيه الحكيم ، مع رسالة من أندريه چيد إلى المترجم ورد طه حسين على أندريه چيد .

« ...ترجمة كتبى إلى لغتكم ؟... إلى أى قارئ يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبى ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى ، أنه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أمخطئ أنا ؟ » أندريه چيد

« لم تخطئ أنت ، وإنما دفعت إلى الخطأ لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام ... فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب . »

طه حسين

[من مقدمة كتاب « الباب الضيق »]

١٦ + ١٤٨ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

*

André Gide, ŒDIPE — THÉSÉE.

أوديب — ثيسيوس ، تأليف أندريه چيد ، ترجمة طه حسين .

« صديقى أندريه چيد ، سمعتك تقرأ لنا قصتى « أوديب » و « ثيسيوس » فعرفت الحنان

الخاص الذى تؤثرهما به . ومن أجل هذا علمتهما العربية ليبلغا إلى قراء الشرق رسالتك التى هى ثقة وشجاعة واستبشار . وسيشهدان كذلك بما أضمر من أعجاب بك قد أصبح منذ التقينا وداً كريماً . »

طه حسين

٨ + ٣١٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

André Gide, L'ÉCOLE DES FEMMES — ROBERT — GENEVIÈVE.

مدرسة الزوجات يليها روبير وجنفييف

تأليف أندريه جيد، تعريب صبرى فهمى.

فتاة فى نشوة الحب ، ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها ، دفاع الزوج عن نفسه ، رأى الابنة فى والديها .

٣١٢ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

François Mauriac, GÉNITRIX.

والدة ، تأليف فرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين .

وصف دقيق لنفسية الأم حين تشعر أن امرأة غيرها قد استأثرت بابنها وصرفته عنها.

٨ + ١٧٦ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

*

André Maurois, LE PESEUR D'ÂMES.

وازن الأرواح ، تأليف أندريه موروا عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب عبد الحليم محمود .

هل توجد الروح ؟ وكم تزن ؟ هل يمكن الاحتفاظ بها ؟ وهل يمكن أن تمتزج بعد الموت روحان كانتا مؤتلفتين أثناء الحياة ؟

٢٠٤ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

*

Prosper Mérimée, COLOMBA.

كولومبا ، تأليف پروسپير ميريميه ، تعريب محمد غلاب .

قصة فتاة من أهل جزيرة كورسيكا تلك الجزيرة التى لا زالت تعترف بالعواطف الفطرية الأولى وتدين بقانون الحب والانتقام .

٨ + ٢٢٠ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

*

A. de Saint-Exupéry, TERRE DES HOMMES.

أرض البشر ، للكاتب الطيار أنطوان دى سانت أكسوپرى ، تعريب مصطفى كامل فوده .

« أرض البشر، تلك الهباءة من الثرى التائهة بين الأجرام السماوية ، تلك الأرض الجديرة باعجابنا لأنها وحدها تكوّن الرجال . »

طبعة مزينة بالصور ، ٢٤٤ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

Stendhal, LA CHARTREUSE DE PARME.

دير پارم ، تأليف ستندال ، تعريب عبد الحميد الدواخلى .

قصة من عيون الأدب الفرنسى يصف كاتبها الكبير دولة إيطالية صغيرة ومغامرات بطل القصة ودسائس وزيرها العجيب .

طبعة فى جزأين ، الجزء الأول ٨ + ٢٧٦ صفحة ، الجزء الثانى ٨ + ٣٢٠ صفحة ، ثمن الجزء ٣٠ قرشا .

*

Voltaire, ZADIG ou la Destinée.

زديج أو القضاء، قصة شرقية ، تأليف فولتير ، ترجمة طه حسين .

مشكلة القضاء والقدر يعرضها الفيلسوف الفرنسى فولتير فى أطار قصصى جذاب . عدد خاص من مجلة الكاتب المصرى ، الثمن ١٠ قروش .

من الأدب الانجليزى

Aldous Huxley, BRAVE NEW WORLD.

العالم الطريف ، تأليف أولدس هكسلى ، تعريب محمود محمود .

العالم فى المستقبل ... بعد أن يتحكم العلم ... وتتولد الأطفال فى المعامل !
١٦ + ٢٧٦ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

*

H. G. Wells, THE FOOD OF THE GODS.

طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض ، تأليف ه . ج . ولز ، تعريب محمد بدران .

قصة طريفة لذلك الكاتب الانجليزى الخصب الخيال الذى عرف بنبوآته الغريبة عن الحروب ومخترعات العقل البشرية وتحققت أكثر هذه النبوآت فى حياته .
١٦ + ٣٢٠ صفحة ، الثمن ٣٠ قرشا .

*

Oscar Wilde, THE PICTURE OF DORIAN GRAY.

صورة دوريان جراى ، تأليف أوسكار وايلد ، تعريب لويس عوض .

قصة شاب جميل الطلعة يحتفظ بشبابه بينما تهرم صورة له وتظهر عليها كل العلائم التى تنتاب المقبلين على اللهو والملذات .



طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم م . ج . م .
٨ + ٣٠٤ صفحة ، الثمن ٣٠ قرشا .

*

Oscar Wilde, THE CANTERVILLE GHOST.

شبح كانترفيل ، تأليف أوسكار وايلد ، تعريب لويس عوض .

وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هذا القصر التاريخى إلى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سان جيمس . فيها فكاهة متصلة مع براعة فى الوصف وفى الخيال .
طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم م . ج . م .
١٢٨ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

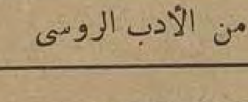
من الأدب الأمريكى

John Hersey, HIROSHIMA.

هيروشيما ، تأليف چون هرسى ، تعريب حسن محمود .

قصة تدمير مدينة هيروشيما بفعل قنبلة ذرية واحدة وما حدث لسكان هذه المدينة ، مشاهدات ستة أشخاص كانوا فى المدينة حين قذفت القنبلة ونجوا بأعجوبة من هذه الكارثة . وهى قصة جذابة قرأها ملايين فى أمريكا وأوربا .

عدد خاص من مجلة الكاتب المصرى ، طبعة مزينة بصور مهداة من مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات بالسفارة الأمريكية بمصر ، الثمن ١٠ قروش.



من الأدب الروسى

Fédor Dostoievski, THE GAMBLER.

المقامر ، تأليف فيدور دستويفسكى ، تعريب شكرى محمد عياد .

قصة شاب مصاب بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بقلب القارئ وعقله .

٨ + ١٧٢ صفحة ، الثمن ١٨ قرشا .

*

Ivan Tourguéniev, FIRST LOVE.

الحب الأول ، تأليف ايفان ترجنيف ، تعريب محمود عبد المنعم مراد .

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشئ يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

٨ + ١٠٨ صفحة ، الثمن ١٥ قرشا .

من الأدب الألمانى

Emil Ludwig, NAPOLÉON.

نابليون ، تأليف إميل لودفيج ، ترجمه عن الألمانية محمود ابراهيم الدسوقى .

البطل الذى اكتشف لودفيج وراء قناع بطولته محيا الانسان ، فتجلت بطولته فى إنسانيته ، وفاقت كل ما عرف إلى الآن .



طبعة مزينة بالصور فى جزأين ، الجزء الأول ٢٠ + ٣٠٦ صفحة ، الجزء الثانى ١٢ + ٣٠٦ صفحة ، ثمن الجزء ٤٠ قرشا .

فى القانون والفلسفة

INSTITUTES DE JUSTINIEN

مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى، ألفه فقيه القياصرة فى قسطنطينية الأمبراطور جوستنيان ونقله إلى العربية إمام القضاة فى مصر معالى عبد العزيز فهمى باشا، أخرجته دار الكاتب المصرى فى طبعة ممتازة وتجليد أنيق.

٢٨ + ٤٠٩ صفحة من القطع الكبير، الثمن ١٠٠ قرشا.

*

Ignaz Goldziher, LE DOGME ET LA LOI DE L'ISLAM.

العقيدة والشريعة فى الاسلام، للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر، نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، عبد العزيز عبد الحق المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر، على حسن عبد القادر دكتور فى العلوم الاسلامية ومدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن.

أبواب الكتاب: محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه — نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف — الفرق — الحركات الدينية الأخيرة.

١٦ + ٣٨٨ صفحة من القطع الكبير، الثمن ٨٥ قرشا.

*

تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط، تأليف الأستاذ يوسف كرم مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول.

وهو كتاب قيم فيه تفصيل واف عن المذاهب الفلسفية فى تلك القرون فى دقة تعبير مع طلاوة فى الأسلوب.

٨ + ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير، الثمن ٥٠ قرشا.

*

عقلى وعقلك، تأليف سلامه موسى.

أوفى كتاب فى علم النفس الحديث يبسط آخر المعارف عن هذا العلم بلغة واضحة ليس فيه جملة معقدة أو فكرة مبهمة تقرأه فتقف منه على أسرار النفس البشرية وحركة التفكير.

٨ + ١٩٢ صفحة من القطع الكبير، الثمن ٤٠ قرشا.

الكتب التى صدرت أخيراً

قطوف، بقلم عبد العزيز البشرى، مقدمة لطه حسين.

آخر آثار الأديب العظيم عبد العزيز البشرى جمعت فى مجلدين يحتويان أكثر من ٤٠٠ صفحة. اقرأ «قطوفه» هذه فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق للحياة المصرية فى عصر الانتقال.

طبعة فى جزأين، الجزء الأول ٢٠ + ١٩٦ صفحة، الجزء الثانى ٨ + ١٩٦ صفحة، ثمن الجزء ٢٠ قرشا.

كتاب البخلاء للجاحظ، حقق نصه وعلق عليه طه الحاجرى مدرس الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول.

أثر من أعظم آثار الأدب العربى يبعث من جديد فى طبعة منقحة بالدقة التى يتبعها علماء هذا العصر. قام بنشره طه الحاجرى الذى تخصص فى أدب الجاحظ وعلق عليه وشرح غامضه فأصبحت هذه الطبعة أكبر أداة للباحثين.

٥٢ + ٤٦٨ صفحة من القطع الكبير، الثمن ١٠٠ قرش.

*

تاريخ قضاة الأندلس، ألفه الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى وسماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشره إ. ليفى بروفنسال أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس.

وثيقة عظيمة الخطر عن تاريخ القضاء بالغرب الاسلامى فى العصر الوسيط.

٢٤ + ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير، الثمن ٧٥ قرشا.

*

البيت السبكى، بيت علم فى دولتى المماليك، تأليف محمد الصادق حسين.

تاريخ عصر يتمثل فى تاريخ أسرة بقلم عالم من أكبر العلماء.

٩٦ صفحة من القطع الكبير، الثمن ٢٥ قرشا.

*

تربية سلامه موسى، بقلم سلامه موسى.

تاريخ حياة المؤلف باعتبار أن الحياة تربية وتاريخ مصر فى تطورها وانتقالها من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين.

٢٩٢ صفحة، الثمن ٢٥ قرشا.

*

سافو نارولا، الراهب الثائر، بقلم حسن عثمان.

صفحة من أروع صفحات عصر النهضة الأوربية كتبها مؤرخ توفر على دراسة ذلك العصر، وهى حياة شخصية غريبة قلما يجود بمثلها الزمان.

طبعة مزينة بالصور، ٢٦٠ صفحة، الثمن ٢٥ قرشا.

*

Henri Bergson, LE RIRE.

الضحك، بحث فى دلالة المضحك، تأليف هنرى برجسون، تعريب سامى الدروبى وعبد الله عبد الدايم.

الكتاب الشهير الذى وضعه الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون ليدرس فيه الضحك كظاهرة نفسية والمضحك وأنواعه المتعددة.

١٣٦ صفحة، الثمن ١٥ قرشا.

*

Anton Tchékov, HISTOIRE D'UN INCONNU.

قصة رجل مجهول، تأليف أنطون تشيكوف، تعريب محمود الشنيطى.

من أبدع قصص أمير القصة القصيرة وهى مثال كامل لفنه فى بناء القصة وفى معالجتها.

٤ + ١٢٢ صفحة، الثمن ١٠ قروش.

Pierre Benoît, L'ATLANTIDE.

غانية أطلنطا ، تأليف بيير بنوا عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب رشدى كامل .

لم تكن تبحث عن نشوة الحب فحسب بل كانت ترمى كذلك إلى أن تنتقم من الرجال ، فتقتلهم بحبها .

٢٩٦ صفحة ، الثمن ٢٥ قرشا .

François Mauriac, LE NŒUD DE VIPÈRES.

عقدة الأفاعى ، تأليف فرنسوا موررياك عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، تعريب نزيه الحكيم .

«لا لم يكن المال ما يحبه هذا البخيل ولا الثأر ما يطلبه هذا المجنون . أما هواه الحق فستعرفه إذا ملكت القوة والجرأة على أن تصغى إلى هذا الرجل حتى اعترافه الأخير الذى يقطعه الموت .»

٨+٢٢٠ صفحة ، الثمن ٢٠ قرشا .

*



دار الكاتب المصرى قسم النشر باشراف الدكتور طه حسين بك

٥ شارع قنطرة الدكة — القاهرة


جودة
اكسلسيور
EXCELSIOR
بايار
القلم الذى
لا يبارى
MADE IN FRANCE
585
14 K
يباع فى المحلات الكبرى
الوكلاء : الكاتب المصرى ش.م.م

أصدرت دار الكاتب المصرى باشراف الدكتور طه حسين بك

مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى

INSTITUTES DE JUSTINIEN

نقله إلى اللغة العربية معالى عبد العزيز فهمى باشا

٢٨+٤٠٩ صفحة — ثمن النسخة المجلدة ١٥٠ قرشاً

العقيدة والشريعة فى الاسلام

للمستشرق الكبير اجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، عبد العزيز عبد الحق المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر، على حسن عبد القادر دكتور فى العلوم الاسلامية، مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

١٦+٣٨٨ صفحة — الثمن ٨٥ قرشاً

كتاب البخلاء للجاحظ

حقق نصه وعلق عليه طه الحاجرى مدرس الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

٥١+٤٦٨ صفحة — الثمن ١٠٠ قرش

تاريخ قضاة الأندلس

ألفه الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى وسماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر إ. ليڤى پروڤنسال أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس

٢٤ + ٢٨٤ صفحة — الثمن ٧٥ قرشاً

قطوف لعبد العزيز البشرى

مع مقدمة لطه حسين

الجزء الأول ١٦+١٩٦ صفحة، الجزء الثانى ٨+١٩٦ صفحة — ثمن الجزء ٢٠ قرشاً

تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط

تأليف الأستاذ يوسف كرم مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

٨+٢٦٦ صفحة — الثمن ٥٠ قرشاً

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية